مخطوطات مدفونة



م. عبدالوهاب السيد الرفاعي   أسـامـة المسـلـم



مكتبة | 762
سُر مَن قرأ

م. عبدالوهاب السيد الرفاعي أسامة المسلم

مخطوطات مدفونة

العنوان

مخطوطات مدفونة



ردمك:

978-99966-1-863-5

رقم الإيداع: 2017/1105

تصميم وإخراج

نوڤا بلس للنشر والتوزيع



نوڤا بلس للنشر والتوزيع

NOVA PLUS FOR PUBLISHING AND DISTRIBUTING

www.novapluskw.com

مكتبة | 762
سُر مَن قرأ

مخطوطات مدفونة

م. عبدالوهاب السيد الرفاعي   أسـامـة المسلـم



نوفا بلس للنشر والتوزيع
NOVA PLUS FOR PUBLISHING AND DISTRIBUTING

الفهرس

دافع.. لا يخطر ببال أحد!!
م.عبدالوهاب السيد الرفاعي 7

الانتهازي
أسامة المسلم 37

فوبيا
م.عبدالوهاب السيد الرفاعي 105

النداء
أسامة المسلم 123

طريقة مبتكرة
م.عبدالوهاب السيد الرفاعي 159

عصير الليمون
أسامة المسلم 197

الكابوس
م.عبدالوهاب السيد الرفاعي 261

القبر المفتوح
أسامة المسلم 297

دافع .. لا يخطر بِبال أُحد !!

م. عبدالوهاب السيد الرفاعي

أجلس مع زوجي في السيارة ونحن نحدّق بالبحر بقلق شديد.. الساعة تقترب من السابعة مساء.. المكان خالٍ تقريبا من السيارات.. نتحدث بهمس غير مقصود بسبب خطورة الموقف.. العرق يغمر وجهينا رغم برودة الجو في مثل هذا الوقت من السنة.. هل يعقل أن يقشعر الجسد بطريقة متصلة؟!.. هذا ما يحدث لي الآن.. زوجي يمسك بيدي مطمْئنا دون جدوى.. ربما بسبب يده التي ترتجف بدورها.. أقول بصوت مختنق:

- لا يمكنني أن أصدق أنك تفكر بهذه الطريقة.. إنني زوجتك منذ 5 سنوات.. لكني أشعر وكأنني لا أعرفك!!!.

فيرد مدافعا:

- حبيبتي.. لا يوجد حل آخر.. فكّري جيدا أرجوك.

أقول بصوت باك:

- إنك تتحدث عن ارتكاب جريمة قتل!!.. سنقتل إنسانة بريئة لم ترتكب ذنبا.. هذه الخادمة الطيبة تعيش بيننا منذ زواجنا تقريبا وتؤدي عملها على أكمل وجه.. لا يمكن أن نلجأ للقتل!!!.. لا شك أن هناك حلا آخر.

يرد وهو يتنهد:

- لقد قلتِ هذا الكلام مئة مرة.. وأنا أعيد كلامي للمرة المئة أيضا وأقول إنها فرصة لن تتكرر يا حبيبتي.. مؤكد أننا سنعيش فترة طويلة من العذاب النفسي وتأنيب الضمير.. مؤكد أنني سأرتجف كثيرا قبل ارتكاب الجريمة.. وربما سأنهار باكيا بعدها.. فأنا لست قاتلا بالفطرة.. لكن الأمور ستكون على ما يرام بعد ذلك.. خاصة بعد أن نقدّم لأهلها كل مساعدة ممكنة تكفيرا عن جريمتنا.. لا أريدك أن تتحدثي عن حلول أخرى.. فلا توجد حلول أخرى أصلا.. سنرتكب الجريمة دون أن يكشف أحد أمرنا.. وستكون الجريمة الكاملة التي يظنها الناس مستحيلة.

أمسح دموعي التي انهمرت دون أن أشعر.. ثم أقول مترددة:

- لأنها مستحيلة بالفعل.. إنك تردد عبارة يقولها كل مجرم قبل ارتكاب جريمته.. ليفاجأ حين يتم إلقاء القبض عليه أنه لم يكن بذلك الذكاء الذي يتصوره.. فما بالك أن تتم الجريمة في شقتنا الصغيرة؟!.. سنكون حينها المتهمين الوحيدين أمام الشرطة.

هز رأسه نفيا وهو يقول بإصرار:

- جريمتنا تختلف.. كل جريمة قتل في العالم تُرتكب لسببين.. أن يكون خلفها دافع.. أو أن يكون مرتكبها مريضا نفسيا.. ونحن لسنا مرضى نفسيين بالطبع.. أما الدافع فموجود لدينا بالفعل لكن لا يمكن أن يخطر ببال أحد!!!.. لهذا سيصرف رجال الشرطة أنظارهم عنا سريعا وسيخرجوننا من دائرة الشبهات.. خاصة وأن كل ما سيعرفونه عنا بتحقيقاتهم أننا زوجان في مقتبل العمر بدأنا حياتنا منذ سنوات قليلة وإننا جامعيان نشغل وظائف حكومية محترمة.. ولا يوجد لدينا أي سجل إجرامي.

سكت دون أن أرد.. ليكمل بدوره بحماس:

- سيبحث رجال الشرطة عن قاتل وهمي لن يعثروا عليه بالطبع.. وسيظنون أن الخادمة لديها عشيق وقد أدخلته الشقة أثناء وجودنا في العمل.. فقتَلها لخلاف ما.. ثم سرق مجوهراتك وبعض المال وهرب.. وقد يفكرون بعشرات الاحتمالات الأخرى.. لكنهم

لن يشيروا بأصابع الاتهام إلينا أبدا.. والسبب -كما كررته ألف مرة سابقا- أنهم لن يتمكنوا من تخمين الدافع وراء ارتكابنا للجريمة.. عدم معرفتهم بالدافع هو صك براءتنا!!.

ينتهي من كلامه وينظر إلي برجاء كي أوافقه على ارتكاب الجريمة.. يا إلهي.. لو قدر لأحد أن يراقب حياتنا فسيجدها طبيعية للغاية.. وسيرى أننا أسرة سعيدة جدا.. دون أن يدور بخلده للحظة أن هذين الزوجين السعيدين يخططان معا لقتل الخادمة المسكينة التي لم ترتكب أي ذنب.. أتذكر تلك الحقيقة فأجهش بالبكاء.. زوجي يحيطني بذراعه ويقول متعاطفا:

- سنندم طوال حياتنا لو تركنا فرصة كهذه تفلت من أيدينا.. راجعي تفاصيل الخطة وستجدينها بسيطة ومحكمة بنفس الوقت.. إن طفلنا الآن يذهب إلى رياض الأطفال.. أي أن الخادمة تتواجد وحيدة يوميا في الشقة طوال فترات الصباح.. سأعود أثناء ساعات عملي دون أن ينتبه زملائي بسبب طبيعة عملي الميداني.. وسأقوم بطعن الخادمة بالسكين حال دخولي.. ثم أعود سريعا إلى عملي.

قلت بلوعة:

- وماذا عني؟!.. هل تظن أنني سأتمكن من تأدية دوري؟!.

رد ببساطة:

- وما المانع؟!.. كل ما عليك فعله يومها العودة من العمل قبل وصولي.. وهو أمر معتاد ومتوقع لقرب مكان عملك من شقتنا.. أي أنك ستمارسين حياتك الطبيعية دون تكلّف.. وستجدين الخادمة صريعة.. أعلم أن الموقف لن يكون سهلا.. ربما ستصرخين وتنهارين باكية.. وهذا هو المطلوب!!.. ثم عليك بعدها الاتصال بي كتصرف تلقائي بديهي.. لأتصل أنا بالشرطة أثناء عودتي إلى الشقة ممثلا دور الزوج القلق الملتاع.. هذا كل شيء.. إنها فرصة عمر لن تتكرر.. وأقولها بإصرار.. إنها الجريمة الكاملة كونها مجهولة الدافع.

أحاول أن أطرح عواطفي جانبا وأفكر بعقلانية.. كلامه مقنع للغاية رغم ترددي الشديد.. بالفعل.. إنها الجريمة الكاملة.. لأنها جريمة غير مألوفة أصلا.. فقد اعتدنا أن نقرأ عن جرائم الخدم

من سرقة وقتل.. لكن الأمر معكوس هذه المرة.. سنقتل نحن خادمتنا التي لم ترتكب أي جرم.. وبسبب دافع لن يخطر ببال أحد ستعرفونه في سياق القصة بالتأكيد.. هذا ما نراهن عليه لنكون بعيدين تماما عن الشبهات.. لذا.. وفي النهاية.. أومأت برأسي موافقة.. فابتسم زوجي وزفر بقوة مفرغا كل انفعالاته.. ثم أدار محرك السيارة لنعود إلى شقتنا وقد اتخذنا قرارنا!!!.

كان هذا استكمالا للحوار الذي دار بيني وبين زوجي طوال اليومين الماضيين.. وقد حُسم الأمر الآن بعد نقاشات حادة طويلة نقلت لكم آخرها.. أعترف أن التردد ظل يسيطر علي رغم موافقتي.. صوت الضمير يصرخ باستمرار.. يخبرني أننا لسنا قتلة.. وأن ارتكاب جريمة قتل سيغيرنا إلى أناس آخرين إلى الأبد.. أحاول طمس صوت الضمير هذا.. والذي يشعرني أحيانا وكأنه صوت أجدادنا الذين يحاولون إرشادنا إلى الطريق السليم!!.. ستكون أياما عصيبة.. عقدة الذنب ستلاحقني طوال حياتي.. لكني سأقدم تعويضات كثيرة عن جريمتي هذه.. سأساعد الفقراء.. سأزور دور الرعاية الاجتماعية وأشتري اللعب للأيتام.. أردد هذا باستمرار محاولة أن أخفف على نفسي عبء الجريمة التي سأرتكبها مع زوجي.

المهم.. كنت أقول أننا خططنا لكل شيء.. وبتنا مستعدين تماما لارتكاب جريمتنا في اليوم التالي فحسب.. ورغم ذلك.. ظللت أتقلب في الفراش ليلتها وكأنني أكتوي في الجحيم.. حتى شعر زوجي بتوتري.. فالتفت إلي وهو يقول بصوت مرتجف:

- إنني أشعر بذات التوتر.. لن يكون الأمر سهلا.. أنا لم أخض شجارا مع أحد في حياتي.. فما بالك بارتكاب جريمة قتل بحق امرأة بريئة لم ترتكب ذنبا!!!.. لا أتصور أنني سأدخل نصل السكين في معدتها وأطعنها أكثر من مرة.. سيكون الأمر رهيبا.. ستطاردني نظرات الموت في عينيها طوال حياتي.

انفجرت باكية وأنا أقول:

- إنني أخشى مشاهدة الجثث في السينما.. فكيف سيكون الحال حين أرى جثة في شقتي؟!.. وبجريمة قتل ارتكبها زوجي بموافقتي.. ثم ماذا عن طفلنا؟!.. سيكون معي لحظتها.. فحتى لو منعته من الدخول ورؤية الخادمة.. سيراني أصرخ وأبكي وسيخيفه هذا كثيرا دون شك!!!.

احتضنني وهو يقول محاولا تهدئتي:

- يجب أن ندرك في قرارة أنفسنا أن قتل الخادمة لا مفر منه.. أرجوك تذكري أن تكوني على طبيعتك غدا في العمل وأن تبتعدي تماما عن التوتر.. إنه يوم واحد مهما بدا طويلا.. سيمر وستتغير حياتنا بعدها إلى الأفضل.

و.. أمام كلماته المشجعة.. شعرت ببعض الاطمئنان.. وأنفاسي انتظمت تدريجيا.. إلى أن نمت.. لكن نومي ظل متقطعا قلقا استيقظت منه عدة مرات وشعرت خلاله بزوجي الذي لم يكن أفضل حالا مني.. فأنفاسه لم تنتظم أبدا.. إلى أن مرت الساعات أخيرا.. لتحين لحظة الاستيقاظ.. المنبه يرن ويعيدنا إلى الواقع بعد ليلة سوداء بمعنى الكلمة.. زوجي يغلق المنبه ويلتفت لينظر إلي بتوتر ملحوظ وعينان منتفختان.. بالطبع.. لا ألومه.. فهو الذي سيتحمل العبء الأكبر.. أراه يذهب إلى الحمام مطأطئا برأسه وهو يشعر بالعار لما سيفعله.. أنهض بدوري لأوقظ طفلي.. أحتضنه كثيرا شاعرة أنه كتلة من البراءة في عالم مخيف أنا أحد أركان الشر فيه مع الأسف!!!.. أسير معه إلى الحمام.. ثم أستبدل له ثيابه.. ليذهب بعدها لتناول الإفطار وهو يشاهد التلفاز كما يفعل دوما.

أما أنا فرحت أتجهز للذهاب إلى العمل.. قبل أن أجلس قليلا في غرفتي أحاول قتل التوتر بالعبث في هاتفي.. أقرأ الرسائل الصباحية التي ترسلها صديقاتي وأقاربي.. لا يوجد شيء مهم.. مجرد حكم ومواعظ لو عمل بها الناس لأصبحت حياتنا جنة.. أفكر للمرة المليون بما سيحدث اليوم.. أبتسم بمرارة وأنا أتذكر أن هناك من تحسب يوم تخرجها من الجامعة الأهم في حياتها.. وأخرى تظن أن يوم زواجها هو الأهم.. وأخرى ترى أنه يوم إنجابها.. أما في حالتي.. فأهم يوم سيكون يوم ارتكاب جريمة قتل خادمتي مع سبق الإصرار والترصد دون أن ترتكب المسكينة أي ذنب!!.

زوجي يحتضنني مشجعا ويخرج من الشقة متجها إلى عمله كالمعتاد.. ألتقط نفسا عميقا.. ثم أتجه إلى غرفة المعيشة وأجد الخادمة تجلس في المطبخ تأكل إفطارها.. إنه آخر يوم في حياتك يا عزيزتي.. سامحينا أرجوك.. فأنت لم تخطئي في حقنا.. أنادي طفلي بصوت مرتجف أن ينهض لآخذه إلى الروضة.. فيغلق التلفاز بملل ويتبعني.. لنخرج من الشقة ونترك الخادمة لوحدها!!.



أجلس خلف شاشة الكمبيوتر في مقر عملي.. لحسن الحظ إنني أعمل في إدارة الشؤون المالية بإحدى الجهات الحكومية.. لذا لا يوجد هناك تعامل مع أي مراجعين.. لأن التوتر يقتلني وسيلحظه الناس في ملامحي.. آخر ما أريده الآن جذب انتباههم.. أحاول تجنب زملائي قدر الإمكان بالجلوس أمام شاشة الكمبيوتر لإتمام عملي.. لا يوجد ما يريب في هذا.. فطبيعتي متحفظة قليلا.. ولست من الفتيات اللاتي يكوّن الصداقات في كل مكان يذهبن إليه.. كما أن معظم زملاء العمل من الذكور.. وهذا ما يصنع حاجزا بيننا إلى حد ما.

الدقائق تمر ببطء شديد.. يفترض ألا أتصل بزوجي خلال تلك الفترة.. فاتصالاتنا ببعضنا أثناء وقت العمل نادرة جدا.. نريد أن نكون على طبيعتنا وألا نفعل أي شيء يثير الشبهات.. أراجع الخطة في ذهني للمرة المليون.. زوجي سيخرج من مقر عمله دون أن يثير فضول أحد بسبب طبيعة عمله الميداني.. وعليه أن يعود إلى الشقة في الحادية عشرة صباحا.. لكنه سيركن سيارته في مواقف المسجد القريب كي لا تثير عودته انتباه الجيران.. سيبدل ثيابه في السيارة ليرتدي البنطلون والقميص مع قبعة ونظارات تساعده على إخفاء ملامحه..

وسيذهب مشيا إلى الشقة.. وحال دخوله.. سيخرج السكين من جيبه ويطعن الخادمة حتى الموت.. ثم سيسرق مجوهراتي ومصروف البيت الشهري مع بعض المقتنيات الأخرى الصغيرة -بما فيها هاتف الخادمة النقال- ليعطي انطباعا أن القاتل عشيق لها مثلا وقد غدر بها بعد أن أدخلَته الشقة.. فارتكب جريمته بقصد السرقة.

سيخرج زوجي عائدا إلى سيارته ليستبدل ثيابه مرة أخرى.. وعليه أن يرمي كل ما سرقه في أبعد حاوية قمامة.. لينتهي دوره هنا ويذهب ليكمل عمله.. ثم سيأتي دوري بعد ذلك عند عودتي من العمل لاكتشاف الجريمة.. ولا أظن أنني سأحتاج إلى التمثيل.. لأنني سأصرخ وأبكي وأتصرف بطريقة طبيعية للغاية.. سأخيف طفلي كثيرا مع الأسف.. ولن أسامح نفسي أبدا لهذا.

أنظر إلى الساعة بنفاد صبر.. الثواني تسير ببطء غير معقول.. إنها الواحدة ظهرا.. يفترض أن يكون زوجي قد ارتكب جريمته وانتهى من كل شيء.. أحترق فضولا وقلقا للتواصل به ومعرفة ما حدث.. لكني سألتزم بالخطة.. فحتى الرسائل النصية بيننا محظورة خوفا أن يتوصل إليها رجال الشرطة في تحرياتهم.

ها قد انتهت ساعات العمل.. أنهض من مكاني الذي لم أتركه طوال اليوم.. لا أشعر بأي آلام جراء الجلوس الطويل هذا.. فعقلي انفصل تماما عن جسدي.. أذهب إلى السيارة وأقودها بيد ترتجف دون توقف.. حسنا.. يجب الاعتراف أنني أفرغت كل عواطفي.. إن وجود المرء في السيارة وحيدا يمنحه من الخصوصية ما يسمح لك بالغناء والتحدث مع نفسه أحيانا.. واسترجاع الذكريات أحيانا أخرى.. أو الصراخ والبكاء في حالتي!!!.. لكني تمالكت نفسي حين وصلت إلى روضة طفلي.. أراه يركض إلي ضاحكا فرحا بقدومي.. فأحتضنه بحنان جارف.. ثم أسير به إلى السيارة وهو يتحدث عن مغامراته اليوم دون أن أسمع كلمة واحدة مما قال.. لنذهب إلى شقتنا أخيرا!!!.

أصعد درجات السلم لأصل إلى الدور الأول حيث شقتي.. أخرج المفتاح بيد مرتجفة.. هل فعلها زوجي؟!.. أين قتل الخادمة؟!.. في المطبخ؟!.. أم في غرفة المعيشة؟!.. سأعرف بعد لحظات.. أشعر بتوتر يشبه كثيرا الذي يصيب من يجلس في قاعة السينما منتظرا لقطة مرعبة تجعله يقفز من كرسيه.. إنني أنتظر تلك اللحظة.. و:

- يا إلللللللهيييي.. النجدااااااااا

لم يكن هذا تمثيلا.. أرى الخادمة ملقاه على الأرض وسط غرفة المعيشة.. الدماء تخرج من معدتها بغزارة وتنزف من فمها.. عيناها تراقبان الفراغ بطريقة مخيفة.. كان هذا يفوق أكثر الأفلام رعبا.. بالطبع شعر طفلي بذعر شديد لصراخي.. فبكى وهو لم يفهم ما يحدث.. إذ حجبت عنه المنظر البشع وأنا أقف أمام عتبة الباب.. ثم حملته وأنا أنزل إلى الطابق الأرضي وأصرخ.. أحتضنه بحرارة وأحاول طمأنته.. إنها لحظات صراخ وبكاء سينساها بعد قليل.. سامحني يا صغيري أرجوك.. يدي الأخرى تعبث في حقيبتي بجنون لأخرج هاتفي.. الحقيبة تسقط على الأرض.. هذا لا يهم.. أتصل بزوجي وأنا أصيح:

- الخادمة.. الخادمة.. جريمة.. الخادمة.. قتل!!.

أنا لا أفهم كيف يجسد بعض الممثلين أدوارهم بدقة.. هل يرتكبون جرائم فعلية ثم يقومون بتفريغ انفعالاتهم التي تبدو للمشاهدين واقعية للغاية؟!.. فانفعالي كان واقعيا بالفعل.. زوجي يتحدث بكلمات سريعة لم أستمع إليها.. إذ تركت الهاتف لا شعوريا ليقع من يدي.. ورحت أحاول تهدئة صغيري وأختلق له قصة مضحكة لإيضاح سبب بكائي.. وأعده بأنني سأشتري له كل لعب الدنيا.. أعده أنني سأفعل كل ما

يرغب به.. أحد الجيران ينزل من الطابق العلوي مستفسرا عما يحدث بعد أن سمع صراخي ثم رأى نظرات الرعب على ملامحي وارتجافي الواضح.. فأخبره بكلمات سريعة -وبنبرة هستيرية- بما حدث.. حارس؟!.. لا يوجد حارس.. فنحن لا نتحدث هنا عن عمارة سكنية.. بل عن بيت تم تحويله إلى مجموعة من الشقق كما هو الحال مع الكثير من البيوت في (الكويت).

سيارة الشرطة تصل بعد فترة قصيرة نسبيا وتلحقها سيارة شرطة أخرى.. وأخرى.. أما زوجي فقد وصل متأخرا بسبب زحمة الطريق وهو ما يحدث دوما في الواقع.. وصل وملامح القلق واضحة عليه.. إنه يتصرف بتلقائية أيضا.. فيحتضنني مع صغيري طويلا وهو يحاول طمأنتنا أن الأمور ستكون على ما يرام.. رجال الأدلة الجنائية يصلون بدورهم ليبدؤوا عملهم بالبحث في كل ركن من الشقة.. وقد حضر شقيقي أيضا بعد أن أبلغته بما حدث.. فأخذ طفلي بعيدا عن تلك الأحداث وطمأنني أن أبناءه سيلعبون معه وينسونه صراخي والموقف الذي عاشه اليوم.

بعد ساعتين.. أو ربما أكثر.. كانت الأوضاع قد هدأت قليلا..

أما أنا فكنت أجلس في غرفة النوم مع زوجي بعيدا عن عمل الشرطة في غرفة المعيشة حيث جثة الخادمة.. تقف أمامي سيدة من الشرطة النسائية تطرح علي بعض الأسئلة.. فأجيبها بكلمات متقطعة وشرود حزين.. وقد التزم زوجي الصمت التام ولم يعلق بكلمة كوني أنا التي اكتشفت الجريمة.

في النهاية.. خرجنا من الغرفة لنرى رجال الشرطة وهم على وشك الانتهاء من عملهم بعد أن أخذوا جثة الخادمة إلى الطب الشرعي.. الضابط يلتفت إلينا ليقول ما توقعناه بالضبط وما كنا ننتظر سماعه:

- القضية واضحة مبدئيا.. أستطيع أن أقول أنها حادثة سرقة.. ومن شخص تعرفه الخادمة جيدا.. عشيق ربما.. يبدو أنها أدخلته بنفسها كوننا لم نرَ أي أثر لكسر القفل أو اقتحام المكان.. ويبدو أنه طمع بسرقة البيت.. فرفضت.. وربما هددته بإبلاغ الشرطة لو فكر بالسرقة.. لذا قتلها وسرق ما سرق.. وقد تكون الجريمة مرتبطة أيضا بفضيحة أخلاقية.. عموما سننتظر تقرير الطب الشرعي لتتضح الصورة.

لم نرد على كلامه.. بل سأله زوجي بالمقابل:

- هل من الممكن أن نبيت اليوم خارج شقتنا؟!.. فنحن لن نحتمل البقاء هنا بعد كل ما حدث.

بالفعل.. لم يطرأ هذا بذهني أبدا.. الضابط يومئ برأسه موافقا وهو يلقي علينا التحية.. ويطلب منا زيارة المخفر بعد قليل لعمل محضر رسمي بالجريمة.. حسنا.. هذا متوقَّع.

يخرج الجميع من الشقة مع وعودنا أننا سنذهب إلى المخفر بعد أن نستبدل ثيابنا ونغتسل ونأكل شيئا.. و.. أخيرا.. أنا مع زوجي لوحدنا في الشقة.. ننظر إلى بقايا الدماء في غرفة المعيشة والتي أذن لنا الضابط بتنظيفها.. تدب الحياة في جسد زوجي فجأة ليهرع إلى المطبخ ويأخذ ممسحة أغرقها بالماء.. ثم يبدأ بإزالة الدماء دون أن ينطق أي منا بحرف!!.

عندها فقط شعرت أن هذا الكابوس قد انزاح من حياتنا إلى الأبد.. فتنهدت بارتياح أزاح حملا ثقيلا من صدري.. أحدق بزوجي.. وهو يحدق بي بالمقابل.. يهرع ليحتضنني وهو يلقي على مسامعي كلمات الاطمئنان.. الشعور بالارتياح يخيم على المكان.. لكن تأنيب الضمير قادم دون شك.. عموما سأفكر بذلك

لاحقا.. علي الآن أن أستمتع بلحظات الراحة النفسية تلك.

عزيزي القاريء.. لا شك أنك في حيرة مما يحدث.. فما تزال تجهل لماذا يقوم زوجان حديثا الزواج نسبيا يعيشان حياة سعيدة مستقرة ماديا ومعنويا توجاها بطفل جميل بعمل كل هذا؟!!.. لماذا يتفق زوجان على قتل الخادمة؟!!.. لا يتعلق الأمر بالطبع بأي فضيحة أخلاقية.. فبكل تأكيد سيفحص رجال الشرطة الجثة -كما أشار الضابط- وسيجدون أنها لم تتعرض لأي اعتداء جنسي.. وسيخضعون في النهاية للسبب الوحيد المتاح للقتل.. وهو السرقة.. سيبحثون بعدها عن قاتل وهمي لن يعثروا عليه أبدا كما قال زوجي مرارا.. هذا ما راهنا عليه وكسبنا الرهان!!.

حسنا.. سأبين الدافع وراء ارتكاب جريمتنا التي مضى على أحداثها أكثر من سنة.. ولكن.. يجب أولا أن أعود بالذاكرة إلى ذلك اليوم.. حين كنت نائمة في غرفتي.. وزوجي يجلس في الصالة يشاهد التلفاز.. قبل أن يسمع الخادمة وهي تصرخ بهستيريا في غرفتها.. لم يفهم السبب.. فذهب بقلق ليطرق باب غرفتها ويستوضح الأمر ظنا أنها أصيبت بمكروه.. لتفتح

له وهي تكاد تطير فرحا وتخبره أنها ربحت جائزة اليانصيب* في (لندن)!!!.

وقف زوجي أمامها مصدوما دون أن يستوعب كلامها وهي تتحدث وتتحدث بكلمات سريعة وتذكّره بذلك الموقف.. فقد كنا في (لندن) قبلها بشهور قليلة أثناء إجازتنا.. وأثناء تسوقنا بأحد المجمعات التجارية.. وجدنا لافتة إعلان (اليانصيب الوطني).. إنها مسابقة سنوية شهيرة تقام هناك.. كل ما عليك شراء تذكرة والدخول في السحب.. والجائزة تتجاوز 160 مليون جنيه استرليني.

وقد اشترى زوجي تذكرة متعاطفا مع البائع الشاب الذي كان من أصول عربية.. ووضعها بإهمال في أحد أكياس التسوق التي كانت بحوزتنا.. وعند عودتنا إلى (الكويت) وأثناء فتح حقائبنا.. وجدنا التذكرة التي كنا قد نسينا كل ما يتعلق بشأنها.. وبدلا من رميها.. أعطيتها للخادمة دون اهتمام.. ففرص الفوز باليانصيب شبه معدومة كحال جميع

---

* اليانصيب -كما هو معروف- مسابقة يشتري فيها الناس تذاكر مرقّمة من بائعين معتمدين أو من آلات بيع التذاكر.. أو حتى من خلال مواقع الإنترنت.. وتقوم دول كثيرة بالسماح للشركات بتنظيم اليانصيب كوسيلة لزيادة دخل الدولة من خلال بيع التذاكر.. حيث يذهب جزء من قيمة التذاكر لخزينة الدولة كضريبة.. وجزء آخر تحصل عليه الشركة المنظمة.. ليحصل الفائز في النهاية على مبلغ هائل يتجاوز عشرات الملايين من الدولارات في سحب عام يتم بطريقة عشوائية.

السحوبات على الجوائز الكبرى.. خاصة لو علمنا أن الناس يتسابقون لشراء تلك التذاكر عبر شبكة المعلومات أو من خلال الباعة المعتمدين.. حتى لتصل عملية البيع أحيانا إلى 300 تذكرة في الثانية الواحدة فقط* كما علمت فيما بعد.. المهم أن الخادمة احتفظت بالتذكرة كونها لم تشارك بشيء كهذا من قبل وظنت أن الحظ ربما سيبتسم لها.. فشاهدت عملية السحب عبر إحدى تطبيقات التلفاز في هاتفها النقال.. ليتحقق ما ظنناه مستحيلا.. وتفوز باليانصيب!!!.

ويبدو أن الخادمة شعرت بالمأزق الذي وضعت نفسها فيه حين كشفت لزوجي كل شيء في لحظة الفرحة الهستيرية التي عاشتها.. فتنحنحت وهي تقول له:

- المعذرة يا سيدي.. الجائزة من نصيبي أنا.. صحيح أنك اشتريت تذكرة اليانصيب هذه.. لكن زوجتك منحتني إياها برضاها دون أن أطلب منها.. بل ولا أظن أنكما كنتما ستعرفان شيئا عن موعد السحب لو لم أتابعه بنفسي.

كانت تتحدث بحماس وحزم وبشيء من الصرامة كما يقول زوجي.. فتركها دون أن يرد وعاد إلى الغرفة واجما مقهورا

---

* حقيقة

ليوقظني من النوم ويخبرني بما حدث.. ولكم أن تتخيلوا وقع الصدمة علي!!!.. إذ تطلب الأمر وقتا كي أستوعب القصة كاملة.. لم أكن أصدق أن فرصة الثراء وصلت إلينا على طبق من ذهب.. لكنها ذهبت بهذه السهولة.

وبعد امتصاص الصدمة.. راح كل منا يستجمع أفكاره محاولين فعل شيء.. أي شيء.. زوجي ينظر إلى الفراغ بقهر.. ثم.. وكأنه تذكر شيئا.. إذ أمسك هاتفه وراح يبحث باهتمام عن شيء ما عبر شبكة المعلومات دون أن يرد على تساؤلاتي.. ليصيح بأمل وهو يضع شاشة الهاتف أمام وجهي:

- يا إلهي.. لم أكن متأكدا في البداية.. انظري.. تذاكر اليانصيب هذه بدون اسم.

نظرت إليه دون فهم.. ليكمل بانتصار:

- ألم تفهمي بعد؟!.. كل تذاكر اليانصيب تحوي أرقاما فقط.. وليست مسجلة باسم أحد.. أي نستطيع أن نأخذ تذكرتنا الفائزة ونذهب بها إلى (لندن) لنحصل على الجائزة دون أن تجرؤ الخادمة على الاعتراض.. لدينا متسع من الوقت لإقناع الخادمة بمنحنا التذكرة أو باقتسام المبلغ معنا على الأقل!!!.

قلت بسخرية مريرة:

- إقناعها بماذا بالضبط؟!.. بالتنازل عن الملايين لصالحنا؟!.. وحتى لو حاولت إقناعها باقتسام المبلغ كما تقول؟!.. كيف تثق أنها ستلتزم بالاتفاق بعد سفرها لتحصيل الجائزة؟!.. هل ستوقع معها عقدا بذلك ثم تسافر إلى بلدها لتقاضيها كونها لم تلتزم به؟!.. عزيزي.. ستسافر الخادمة لتحصيل الجائزة ولن يلزمها أي شيء لتوفي بأي اتفاق.. بل ستكون غبية لو فعلت.. وسنكون أغبياء لو صدقناها.. فهي لن تثق بنا كي نسافر نحن لتحصيل الجائزة ومن ثم اقتسامها معها.

سكتنا للحظة.. لأقول مفكرة:

- مهلا.. ماذا لو قمنا بإبرام عقد رسمي معها باقتسام المبلغ بالفعل ثم نسافر معا لتحصيله واقتسامه؟!.. بهذه الطريقة لن يغيب أي منا عن عين الآخر.

رد بحنق:

- وكيف ستسير الأمور بعد ذلك؟!.. فحتى لو سافرنا معا.. لن نثق ببعض.. وكل طرف سيريد أن تكون

التذكرة معه وقت تحصيل الجائزة.. حينها يستطيع ادعاء ملكيته لها أمام الشركة المنظمة دون أن يتمكن الطرف الآخر من إثبات العكس.. بل ربما تتهمنا الخادمة هناك أننا أجبرناها على توقيع العقد مما سيضعنا في مساءلات قانونية أمام شرطة (لندن).. دعك من أن سفرها معنا بحد ذاته سيكون مخاطرة كبرى إذا طلبت اللجوء مثلا واتهمتنا أننا نسيء معاملتها.. خاصة وأن قانون الكفيل المعمول به في دول الخليج للعمالة والخدم غير مسموح به في الغرب ويخالف قوانين العمل لديهم*.. عزيزتي.. لنصارح أنفسنا.. لا توجد أي حلول وسط.. يجب أن نأخذ منها التذكرة قسرا ونتركها لتضرب رأسها في الحائط.. هذا هو الحل الوحيد المضمون.

قلت بألم شاعرة أننا سنضيع فرصة العمر:

- لقد تصرفت بغباء حين منحتها التذكرة بكل بساطة ودون تفكير!!.

رد بلوعة:

- وهل كان أي منا يتوقع أن أمرا كهذا سيحدث؟!.

---

* حقيقة.

الصمت يسود غرفتنا وكل منا غارق في أفكاره يحاول العثور على حل لهذه المعضلة.. نسمع طرقا خفيفا على الباب.. إنها الخادمة!!!.. صاح بها زوجي أن تدخل.. لتفتح الباب بهدوء وتقف أمامنا بثبات وهي تطلب منا أن تأخذ جواز سفرها كي تنهي عملها هنا وتسافر خلال يومين.. بالفعل.. نسيت أن زوجي يحتفظ بجواز سفرها كما يفعل رب الأسرة عادة في دول الخليج.. أنظر إلى زوجي مستنجدة.. فينظر إلي بالمقابل.. ثم يلتفت إليها ويرجوها أن تتمهل قليلا وتمنحنا فترة أسبوع على الأقل كي نأتي بخادمة جديدة لتسد مكانها.

بالطبع بدا واضحا عدم اقتناعها بالرد.. فهي غير مستعدة أن تعيش حياة الخدم دقيقة واحدة بعد أن دخلت فجأة عالم الأثرياء!!.. لكنها التزمت الصمت ولم تعلق.. لتعود إلى غرفتها وقد شعرنا أنها لا تريد الدخول بصدام معنا كونها لا تستطيع السفر إلا في حالة الحصول على جواز سفرها.. مما أشعرني ببعض الارتياح.. إلا أن زوجي أعاد إلي توتري حين أخبرني بقلق أنها قد تهرب من الشقة وبحوزتها التذكرة في أي لحظة.. ثم تدّعي لرجال الشرطة أنها هربت بسبب سوء معاملتنا لها مثلا وأنها لا ترغب بالعمل لدينا.. عندها قد يتم إجبارنا على تسفيرها

لبلدها.. ربما هي لم تفكر بهذه الوسيلة بعد.. لكنها قد تتوصل إليها في أي لحظة.. وسنخسر حينها التذكرة إلى الأبد.

كنا في ورطة حقيقية.. فنحن لا نملك الوقت الكافي حتى للتفكير.. لذا قررنا المواجهة المباشرة.. إذ قمت مع زوجي ليلتها وفي وقت متأخر بطرق باب غرفتها أكثر من مرة.. قبل أن تفتح لنا بتوجس.. ليدفع زوجي الباب بقوة ويقتحم المكان باحثا عن التذكرة في كل ركن من غرفتها الصغيرة بعملية تفتيش جنونية.. أما أنا فرحت أساعده تلقائيا دون تفكير.. الخادمة منكمشة في مكانها وهي تنظر إلينا بذعر.. كل هذا يحدث وطفلي نائم في فراشه كالملاك لا يعي ما يحدث حوله وكيف ستتغير حياته في المستقبل بسبب تلك الحادثة.

المهم أننا في النهاية.. لم نعثر على شيء!!.. فقلت لزوجي وأنا ألهث:

- التذكرة بدون اسم كما تقول.. ولا يمكن لأحد ادعاء ملكيته لها إلا لمن تكون بحوزته.. لذا لا أظن أنها ستترك التذكرة تغيب عن عينيها لحظة واحدة.. أعتقد أنني أعرف أين تحتفظ بها.. على الأرجح بين طيات ثيابها.. تماما كما تخفي النساء أموالهن في الأفلام العربية القديمة.

ويبدو أنني كنت محقة.. فقد اتسعت عيناها رعبا.. وتحفزت للدفاع عن نفسها وهي ممسكة بتحفة زجاجية صغيرة ستستخدمها كسلاح لو حاولنا مهاجمتها.. عندها أدرك زوجي أن المواجهة لن تكون في صالحنا.. فلوح لها بكفيه وكأنه يريد تهدئتها.. واعتذر منها مدعيا أننا تصرفنا بجشع وغباء.. ثم أمسك بيدي لنخرج من غرفتها وأنا أنظر إليه مستفهمة.. لكنه قال مفسرا حال خروجنا:

- عزيزتي.. نستطيع تكبيلها والتفتيش بين طيات ثيابها.. لكنها ستقاوم بشراسة.. وهذا سيعني أنه ستكون هناك إصابات.. حتى لو كانت مجرد خدوش بسيطة.. فقد تتقدم بشكوى ضدي وتتهمني رسميا بمحاولة الاعتداء عليها.. سأكون متهما حينها بجريمة اعتداء جنسي!!.

سكتّ بحنق لمنطقية كلامه.. فأكمل بحدة هامسة حال دخولنا غرفتنا:

- يبدو أن الحل الوحيد هو قتلها!!.

بالطبع لم آخذ كلامه بجدية.. لكن.. يبدو أن فكرة القتل استحوذت على تفكيره ليلتها حين انتبه إلى أنها الحل الوحيد

ربما.. فبدأ يفكر بالتفاصيل ويحاول إقناعي بخطته.. وهو ما بدأت به القصة.. حدث كل هذا في غضون 3 أيام لم تؤدِ فيها الخادمة أي عمل كما هو متوقع.. ولم تتوقف فيها عن طلب جواز سفرها.. لحسن الحظ أنها لم تتوصل إلى فكرة الهرب ووضعنا أمام الأمر الواقع.. خاصة بعد أن قررنا ونفذنا خطتنا في زمن قياسي.

وقد يتساءل البعض.. لماذا لم نضع للخادمة منوما قويا بدلا من قتلها.. ومن ثم نخرج التذكرة من بين طيات ثيابها ببساطة ودون مقاومة.. لقد طرحت الفكرة على زوجي.. لكنه رفضها.. إذ قال بعد تفكير أن هناك احتمالا لا بأس به أن تقوم الخادمة حينها بتقديم شكوى ضدنا وربما اتهامه شخصيا أنه فعل هذا تمهيدا للتحرش الجنسي مثلا.. حينها قد تقوم الشرطة بفحص دمها للتأكد من كلامها.. دعكم من أنه ليس من السهل العثور على منوم -بهذه القوة- يسمح لنا أن نقوم بتفتيش الخادمة دون أن تستيقظ.. هذا إذا وجدنا الفرصة لوضع المنوم في طعامها أو شرابها أصلا.. كما ترون.. الوقت كان ضيقا جدا لا يسمح لنا حتى بالتفكير.. فرأى زوجي أن الحل الأمثل يكمن في قتلها كما عرفنا من سياق القصة.. حيث نفذنا بعدها خطتنا بنجاح دون أن نثير الشبهات.

بعد أسابيع من تلك الحادثة.. سافرت مع زوجي إلى (لندن).. وأبرزنا التذكرة للشركة المنظمة هناك.. ثم حصلنا على الجائزة دون مشاكل.. لينقلب سلمنا الاجتماعي رأسا على عقب.. فها نحن الآن ننعم بالثراء في الفيلا الجديدة الفاخرة التي اشتريناها في أرقى مناطق الكويت.. حيث نعيش حياة مليئة بالرفاهية تركنا وظائفنا على إثرها.. وقد قام زوجي باستثمار جزء من الثروة.. حيث أسس شركة عقارية يبشر مستقبلها بالخير.. ولا أنسى كلمات الأقارب والأهل وتبريكاتهم.. وحديث أمي المستمر أن الله عوضنا خيرا بعد الجريمة المخيفة التي حدثت في شقتنا.. دون أن تعلم -أو يعلم أي مخلوق- بحقيقة الأمر.

لقد قمنا بالكثير من الأعمال الخيرة بعد حصولنا على المال.. فتصدقنا على الفقراء آملين أن نكفر عن جريمتنا.. مع تذكير أنفسنا باستمرار أننا ربما قتلنا نفسا بريئة.. لكنا أنقذنا بالمقابل عشرات النفوس الأخرى بالأموال التي نتبرع بها.. كما أرسلنا مبلغا كبيرا لأهل الخادمة.. دون أن نعلم في الواقع إن كان عندهم علم بأمر التذكرة.. فلم نهتم كثيرا لذلك.. كنا نعلم أن أحدا منهم لن يتكبد عناء ومصاريف السفر لتتبع قضية مقتلها.. خاصة بعد المبلغ الكبير الذي أرسلناه لهم.. والذي

سينتشلهم من الفقر قياسا لعملة بلدهم.. كما مرت ترتيبات تسليم جثمان الخادمة لسفارة بلدها بسلام أيضا.. كي تقوم بتسليمها إلى عائلتها حيث ستدفن هناك.

هذه هي قصتي.. غريبة وغير متوقعة.. ولا أظن أن أحدا تمكن من تخمين الدافع وراء رغبتنا بقتل الخادمة إلا حين كشفت كل شيء بنفسي.. أعلم أن البعض سيراني شريرة.. وأن زوجي وغد قاتل.. نعم.. ربما نحن كذلك.. لكنا نحاول أن نكفر عن فعلتنا.. فنتصدق بالمال بسخاء ونساعد المحتاجين باستمرار.. هذا أفضل ما نستطيع فعله تكفيرا عن جريمتنا التي ارتكبناها بعد أن وجدنا أمامنا فرصة ذهبية لا تعوض.. ومعضلة شائكة لم يكن لدينا الكثير من الوقت للتفكير بحل لها سوى ارتكاب جريمة قتل فلتنا منها بكل سهولة.. بسبب الدافع وراء ارتكابها.. والذي لا يمكن أن يخطر ببال أحد.. أبدا!!!!.

الانتهازي

أسامة المسلم

1982

ورق رسمي مختوم

نُسخ بحبر آلة كاتبة

أدراج مغلقة مخصصة للتقارير السرية لمكتب المباحث

طرق على الباب.. استئذان بالدخول.. شخص يتقدم داخل مكتب مديره حاملاً ملفاً أصفر.. يجلس أمامه ويمد له الملف..

(المدير) وهو يأخذ الملف: ماهذا؟

(الضابط): ملف القضية الخاص باليخت الذي فُقد في عرض البحر قبل عدة أسابيع ووجده خفر السواحل قبل أيام

(المدير) وهو يفتح الملف ويلقي نظرة على محتواه: هل نجا صاحب اليخت؟

(الضابط): لم ينجُ سوى شخص واحد ولم تتعرف عليه زوجة صاحب اليخت عندما عرضنا عليها صورته.. يبدو أنه أحد أصحابه الذين كانوا برفقته في رحلة بحرية

(المدير): ألا تعرف الزوجة أشكال أصحاب زوجها؟

(الضابط): تقول بأنها لم تلتقِ بهم من قبل

(المدير): ماذا عن البقية؟

(الضابط): لا أثر لهم

(المدير) وهو يطلع على آخر ورقة بالملف: هل قتلهم؟

(الضابط): الرجل لا يريد الحديث

(المدير) وهو يضع الملف على الطاولة: لماذا؟

(الضابط): يقول بأن قصته لن يصدقها أحد

(المدير): يبدو أنه قتلهم ويريد إيهامنا بأنه مجنون للحصول على حكم مخفف عندما تعرض القضية على المحكمة

(الضابط): نعم يبدو ذلك

(المدير): لن نسمح له بذلك فواجبنا يحتم علينا استخراج الحقيقة منه بأي طريقة

(الضابط): لا تقلق يا سيدي لقد أوكلت هذه المهمة لأكثر المحققين كفاءة وسوف نعرف ما حصل على ذلك اليخت بالتفصيل

(المدير): كم كان عددهم؟

(الضابط): أربعة وصاحب اليخت خامسهم وحسب إفادة زوجته أنهم خرجوا في رحلة بحرية قبل ثلاثة أسابيع تقريباً

(المدير): الزوجة تعرف عدد من ذهبوا مع زوجها والغرض من الرحلة ولا تعرف أشكالهم.. إفادتها غريبة

(الضابط): هل ترغب أن نستدعيها للتحقيق؟

(المدير): لا.. هل تحدثت الزوجة مع هذا الناجي؟

(الضابط): لا فقد نُقل فوراً للمستشفى ومنعنا الزيارة عنه للتحقيق معه في ملابسات الحادث ولم ترَ سوى صورته التي التقطناها على عُجالة كي تتعرف عليه قبل أن يقدم إفادته

(المدير): لقد قلت للتو أنه غير متعاون

(الضابط): لم يتعاون مع تحقيق الشرطة وهذا أحد الأسباب التي دفعتهم للاتصال بنا

(المدير): ماذا عن اليخت؟

(الضابط): ماذا عنه؟

(المدير): هل قام أحد برفع البصمات وجرد الموجودات والبحث عن أدلة مادية قد تقودنا للحقيقة؟

(الضابط): لا.. خفر السواحل اكتفوا بحجز اليخت مع الناجي الوحيد وتحويل القضية للشرطة والتي بدورها أعدت تقريراً مبسطاً وحولت القضية إلينا مباشرة دون تفتيش اليخت

(المدير): لماذا؟ ليس من عادة الشرطة تحويل قضايا القتل إلينا بهذه السرعة دون وجود مبرر

(الضابط): يقولون بأن القضية تتعدى اختصاصهم وأنهم لا يريدون إفسادها لقلة الأدلة.. أعتقد أنهم يتهربون منها لأن القضية تبدو كبيرة ومعقدة وتحتاج عملاً كثيراً

(المدير): إذاً فاليخت لم يفتش بالكامل؟

(الضابط): لا.. اليخت محجوزٌ لدينا وننتظر الأذن برفع البصمات وتفتيشه بالكامل

(المدير): سوف أحرر لك إذن التفتيش وخلال ذلك حققوا مع الناجي واعرفوا من هو

(الضابط): أمرك يا سيدي

(المدير): حاول أن تحصل على إفادته حتى لو اضطررت لإيهامه بعقد اتفاق معه

(الضابط): اتفاق من أي نوع؟

(المدير) وهو يفتح الملف: بأنه سوف يبرأ من كل التهم لو كان صريحاً معنا

(الضابط): لكن..

(المدير): نحن لسنا الشرطة.. أريد تقريراً بحقيقة ما حدث خلال 24 ساعة

(الضابط) وهو يأخذ الملف ويهم بالنهوض: أمرك

في نفس اليوم توجه الضابط وحرر تكليفاً رسمياً لأحد المحققين بتولي القضية ونقل حرص المدير إليه بأن يتعامل مع الموضوع بجدية شديدة وأن يحصل على الحقيقة خلال يوم واحد.

(المحقق): لا تقلق يا سيدي سوف تجد التقرير بين يديك قبل نهاية اليوم

(الضابط): لقد اخترتك أنت بالذات من بين زملائك الآخرين لثقتي بقدرتك ولمعرفتي المسبقة بمهارتك في استخلاص الحقائق من أكثر المجرمين تمنعاً

(المحقق): لن أخذلك..

(الضابط) وهو يمد الملف الخاص بالقضية للمحقق: ستجد كل ما يتعلق بالقضية هنا وكذلك تقرير خفر السواحل والتقرير المبدئي المقدم من الشرطة

(المحقق) وهو يأخذ الملف ويفتحه ويتصفحه: ألم يقدم المشتبه به أي إفادات؟

(الضابط): لا شيء سوى ما قاله للشرطة وهو أن لا أحد سيصدقه وأنه لن يتكلم كي لا يقال عنه مجنون

(المحقق) وعينه لاتزال تنظر إلى إحدى صفحات الملف: مكتوب هنا أنه كان مفقوداً في البحر لأكثر من ثلاثة أسابيع

(الضابط): نعم

(المحقق) وهو سارح في الصفحة: غريب..

(الضابط): ما الغريب في الأمر؟

(المحقق): دوّن في محضر الشرطة أنهم أخذوه للمستشفى وأن الفحص المبدئي لم يسفر عن إصابته بأي علة ولا حتى جفاف أو تقشر لجلده من حر الشمس

(الضابط): اليخت الذي كانوا به فخم جداً ومزود بالمُؤَن ولعله لم يصل لمرحلة الجوع والعطش وبالنسبة للشمس فاليخت يضم ثلاث غرف ومطبخ فهو كالمنزل العائم

(المحقق): معك حق يا سيدي لكن الشك من طبعي

(الضابط): لهذا اخترتك.. أريدك أن تستمع لقصته وتتأكد من صحتها وتتعرف على هويته كي نعرض تقريرنا النهائي على النيابة العامة

(المحقق): أين هو الآن؟

(الضابط): محتجز عندنا منذ الأمس بعدما استلمناه من الشرطة

(المحقق): هل حقق معه أحد؟

(الضابط): أنت ستكون الأول بعد الشرطة فهو لم يتعاون مع محققهم.. لِم تسأل؟

(المحقق): هذا سيفيدني عند التحقيق معه

(الضابط): ماذا تنتظر إذاً؟

قدم المحقق التحية لرئيسه وخرج متوجهاً إلى مكان احتجاز المتهم..

وصل المحقق للزنزانة التي كان يحتجز فيها المتهم وطلب من الحارس فتح الباب. دخل ليجد رجُلاً منزوياً في إحدى الزوايا بدت عليه معالم الإرهاق والتعب فقال موجهاً كلامه للحارس:

ألم تقدموا له ماء أو طعاماً؟

(الحارس): لا أعرف يا سيدي؟

(المحقق) بتجهم: كيف لا تعرف؟!.. هذا الرجل مر بالكثير ويجب أن تكون أكثر حرصاً من ذلك!

(الحارس) بارتباك: أمرك سيدي

(المحقق) موجهاً كلامه للرجل: أعتذر عن غباء العاملين هنا فأنت لست متهماً بشيء

(الرجل) من زاويته المظلمة: لِم أنا محتجز إذاً؟.. أطلقوا سراحي

(المحقق) مبتسماً: سنفعل لكن بعد أخذ إفادتك

(الرجل): ليس لدي ما أقوله

(المحقق): لا بأس سنكتب ذلك في المحضر لتوقع عليه بشكل رسمي

هم المحقق بالخروج وعند مروره بالحارس الذي أدى التحية له قال بصوتٍ خافت: أحضره لغرفة التحقيق مكبلاً وعامله بعنف

(الحارس) وهو يدخل الزنزانة: أمرك

بعد دقائق دخل الحارس وهو يدفع الرجل المكبل ويجلسه بعنف أمام المحقق الذي نهره وقال: ماذا تفعل أيها الأحمق؟!

(الحارس): أنا..

(المحقق) بسخط وصوت مرتفع: فك قيوده ولا تعامله بقسوة هكذا، فهو ليس مجرماً!

(الحارس): لكن..

(المحقق) وهو يصرخ: نفذ ما أمرتك به دون نقاش!

(الحارس) وهو يفك قيود الرجل: حاضر يا سيدي

خلال فك الحارس لقيود الرجل مد المحقق سيجارة له وقال: تفضل

(الرجل): لا.. شكراً

(المحقق) وهو يعيدها لجيبه: حمداً لله على سلامتك

لم يرد الرجل وبقي صامتاً محدقاً أمامه..

أشار المحقق بصمت للحارس بأن يخرج..

(الضابط) مبتسماً: هل أنت مستعد لتقديم إفادتك؟

(الرجل): إفادتي لن تغير شيئاً وأُفضل الصمت..

(المحقق): الصمت لن يفيدك.. كل متهم يتكلم ويدافع عن نفسه

(الرجل): العاقل هو من يقدم التفكير على الكلام والأحمق هو من يتحدث فقط لأن الجميع أرادوا منه الحديث..

(المحقق) وهو يلقي نظرة على ملف القضية: أصحابك المفقودين لهم أهل يسألون عنهم ويجب أن يعرفوا مصيرهم وأنت الشخص الوحيد الذي يمكنه أن يقدم لهم تلك المعلومة

(الرجل) وهو لا يزال سارحاً أمامه: لقد ماتوا جميعاً

(المحقق) وهو يرفع نظره للرجل: نعم ولكن كيف؟

(الرجل): ومالفرق.. لقد ماتوا وأنا متأكد من ذلك

(المحقق) وهو يُغلق الملف: لنبدأ بصاحب اليخت..

(الرجل) مديراً رأسه تجاه المحقق: تقصد (فارس)؟

(المحقق): نعم السيد (فارس).. كيف مات؟

(الرجل): ومالذي ستستفيدون من معرفة طريقة موته؟

(المحقق): نريد أن نعرف عمّا إذا كان موته مجرد حادث عرضي أم مفتعل والأمر ذاته مع كل من كانوا معك على اليخت

(الرجل) بتجهم: مفتعل؟

(المحقق) محاولاً تدارك الموقف بابتسامة: لا أقصد اتهامك بشيء لكننا لا نعرف تفاصيل الحادث وكيف انتهى بك المطاف لوحدك على اليخت وبقية من كانوا معك ماتوا جميعاً حسب ما تقول

(الرجل) وهو يعود بنظره للأمام: كنا ذاهبين في رحلة بحرية وساءت الأمور فجأة

(الضابط): هل يمكن أن تدلي بتفاصيل أكثر؟

(الرجل): لا أريد تذكر ماحدث

(المحقق): هل يمكنك أن تكرمني باسمك؟

(الرجل) بشيء من التردد:.. (منصور)..

(المحقق) مبتسماً: تشرفنا أستاذ (منصور).. تصريح خفر السواحل الذي حصلنا عليه لتلك الرحلة أفاد بأنكم كنتم

خمسة.. أنت و(فارس) و(حمزة) و(حسن) و..

(منصور):.. (عبدالرحمن)..

(المحقق): نعم صحيح (عبدالرحمن)..

(الرجل): هل يمكن أن تناولني تلك السيجارة التي عرضتها علي سابقاً؟

(المحقق) وهو يخرج علبة السجائر من جيبه ويمدها لـ(منصور): تعاون معنا وسوف نعمل كل ما في وسعنا كي تعامل كشاهد فقط وسوف نعين لك محامياً ليدافع عنك إذا وجهت لك أي تهمة رسمية

(منصور): ولِم تفعلون ذلك؟ ما مصلحتكم من مساعدتي؟ أنتم هنا للبحث عن الجاني ولا يوجد غيري يمكنكم إلصاق التهمة به

(المحقق): مساعدتنا لك مرهونة بمساعدتك لنا.. إذا كان هناك مجرم سادس أخبرنا عنه وسوف نحقق معه

(منصور) وهو يسحب نفساً من السيجارة التي أشعلها له المحقق: هذه هي المشكلة.. لا يوجد شخص سادس

(المحقق): فقط أخبرني بما حدث وسوف نقرر

(منصور) وهو يزفر: لن تصدقني..

(المحقق): جرب

(منصور): كنا خمسة.. أنا و(فارس) و(حمزة) وأخيه (حسين) وخامسنا والأكبر سناً (عبدالرحمن).

(المحقق) وهو يفتح الملف وينظر إليه:.. (حسن) أم (حسين)..

(منصور): لا (حسن)..

(المحقق): لقد قلت للتو (حسين)

(منصور): لازلت متوتراً بسبب ما مررت به.. هل ستقف عند حرفٍ سقط مني سهواً؟

(المحقق) يغلق الملف: لا تفضل..

(منصور) مستأنفاً حديثه: لم يكن أمراً خارجاً عن المألوف أن نخرج في رحلة مدفوعة التكاليف على نفقة (فارس) فقد كان الأغنى بيننا ولا يريد منا سوى أن نصاحبه في رحلاته حتى أنه كان يُلح علينا دائماً أن نكون نحن الخمسة متواجدين في أي رحلة يقوم بها سواءً في البر أو البحر وكان يستطيع تحمل

نفقات أي خسائر قد نتعرض لها من ترك أعمالنا أو منازلنا.

(المحقق): ألهذه الدرجة كان متمسكاً بكم؟

(منصور) وهو ينفث سحابة من الدخان: نحن أصدقاؤه من قبل أن يصبح ثرياً لذلك يثق بأننا لا نتقرب منه لمصالح شخصية كما يفعل الكثير ممن حوله بعد أن أصبح غنياً

(المحقق): وما سبب ثرائه؟

(منصور): هل هذا جزء مهم في التحقيق؟

(المحقق) مبتسماً: لا لا أكمل..

(منصور): أبلغنا (فارس) ذات يوم في أحد تجمعاتنا في مزرعته أن الأجواء مناسبة لرحلة بحرية فقد كان مولعاً بالصيد وبعضنا كان يشاركه ذلك الشغف خصوصا (حمزة) فقررنا أن نخرج فجر الخميس في رحلة تدوم أسبوعاً تقريباً

(المحقق): ماذا عن أعمالكم؟.. هل كنتم تأخذون إجازة؟

(منصور): بعضنا لم يكن يستطيع أخذ إجازة لذا كان (فارس) يعوضنا عن أُجرة كل يوم يخصم من رواتبنا وبالرغم من أننا كنا نرفض إلا أنه لم يكن يستشيرنا ونجد المبالغ في حساباتنا

قبل ان ننطلق

(المحقق): علاقتكم معه مادية إذاً؟

(منصور): هل أكمل القصة أم أنك تريد الخوض في ذمم أشخاص ماتوا؟

(المحقق) وهو يشعل سيجارة: لا أبداً تفضل أكمل..

(منصور): اليخت الذي كان يملكه (فارس) كبير جداً وبه غرفة معيشة وثلاث غرف نوم بالإضافة لدورة مياه ومقصورة للقيادة في الأعلى وسطح اليخت يتسع لعشرين شخص وبه مخزن في الأسفل امتلأ بأدوات الصيد والطعام والشراب ما يكفينا لعدة أسابيع وكذلك غرفة صغيرة لمحرك اليخت

(المحقق): نعم تفاصيل اليخت مسجلة بالتفصيل في تقرير الشرطة

(منصور): انطلقنا فجر الخميس في عرض البحر واستمر (فارس) بقيادة اليخت لساعات بينما كنا نعد العدة ونقوم بتجهيز ما نحتاجه.. كان (عبدالرحمن) المسؤول عن الطعام وتحضيره و(حمزة) مسؤولاً عن تجهيز أدوات الصيد وتحضير الطعم اللازم

(المحقق): ماذا عنك و(حسن)؟

(منصور): لم يكن مطلوباً منا شيء محدد في ذلك الوقت لكن (حسن) يأتي دوره عندما نقرر أن نغوص

(المحقق): تغوصون؟

(منصور): نعم فـ(فارس) يحب الغوص في قاع البحر ويشاركه تلك الهواية (حسن) وأنا

(المحقق): ماذا عن البقية؟

(منصور): (حمزة) يفضل الصيد فقط والجلوس أمام سنارته وهو يحتسي مشروباً بارداً و(عبدالرحمن) مشغول معظم الوقت في إعداد الوجبات وهو لا يتقن السباحة من الأساس

(المحقق): أين كانت وجهتكم؟

(منصور): بصراحة لا أعرف فـ(فارس) هو من يجيد الملاحة بيننا وقد قال أنه يريد الذهاب لمكان بعيد به سلسلة من الشعب المرجانية يريد الغوص في منطقتها

(المحقق): ومتى وصلتم؟

(منصور) قبل العصر تقريباً

(المحقق) بتعجب: لقد قطعتم مسافة طويلة

(منصور): نعم لكننا كنا مستمتعين جداً وتوقفنا مرتين بعد الظهيرة.. مرة لتناول الغداء ومرة لاصطياد بعض الأسماك

(المحقق): وماذا فعلتم بعد وصولكم للمكان المنشود؟

(منصور): أنزلنا المرساة وبدأ كل منا يمارس عملاً ما

(المحقق): هل غاص (فارس) في ذلك الوقت؟

(منصور): نعم.. غاص مع (حسن) لكنهما تأخرا في النزول بسبب انشغالهما معنا في ترتيب المكان وإعداد العدة

(المحقق): ماذا عنك أنت؟

(منصور): بقيت مع (عبدالرحمن) أساعده في بعض الأمور

(المحقق): ألا تعتقد أن (فارس) خاطر بحياته عندما غاص في ذلك الوقت المتأخر من النهار؟

(منصور) باستنكار: ماذا تقصد؟.. (فارس) غواص متمرس ويحمل شهادة في الغوص

(المحقق) وهو ينفث سحابة من الدخان: سنرى.. أكمل

بقي (منصور) سارحاً في المحقق بوجهٍ متوجس بصمت وعلى

وجهه ظهرت معالم التوتر والقلق بوضوح..

(المحقق) مطمئناً (منصور): لا تقلق لن يخرج هذا التحقيق لأحد..

(منصور): لا أراك تدون شيئاً مما أقول

(المحقق): هدفي معرفة الحقيقة الآن

(منصور): لا أريد أن أُتهم بشيء

(المحقق): كما قلت لك سابقاً أنت لست متهماً بشيء وسوف أساعدك لكن الآن نريد أن نعرف الحقيقة أولاً ثم..

(منصور): ثم ماذا؟

(المحقق): اسمع يا سيد (منصور) أنا لا يهمني لوكنت قد قتلتهم جميعاً بدمٍ بارد فعملي ليس إدانتك بل معرفة ملابسات وفاتهم.. الإدانة هي مهمة قاضي المحكمة فقط

(منصور) بعصبية: أنا لم أقتل أحداً!

(المحقق): ممتاز.. لا مشكلة إذاً من سرد تفاصيل ما حدث معكم في عرض البحر

(منصور): المشكلة كما أخبرتك أنك لن تصدقني.. أنا شخصياً لم أصدق ما حدث

(المحقق): اسرد ما حدث دون أن تُخفي شيئاً وأعدك بأنني لن أقدم للشرطة أي إفادة قد تدينك أو حتى تثير الشكوك حولك

(منصور): هل تظنني أحمق؟

(الضابط): يمكنك التراجع عن أقوالك لاحقاً ولا توقع على المحضر النهائي..

سرد (منصور) بقية القصة بعد وصولهم قبل الغروب للمنطقة المرجانية التي غاص بها (فارس) و(حسن) عدة مرات دون أن يقاطعه المحقق:

(فارس) وهو يُخرج رأسه من الماء ويرفع نظارات الغوص منادياً من كانوا على سطح اليخت: لِم لا تغوصون معنا فالمكان جميل جداً!

(عبدالرحمن) وهو ممسك بسكين ويقطع بعض البصل ويطل من حافة اليخت مبتسماً: بالطبع أنت لا تقصدني بهذا الكلام!

(فارس) وهو يضحك: لا بالطبع!

(عبدالرحمن) وهو يغسل بعض الأرز والشمس قد أوشكت على المغيب وبصوتٍ مرتفع ومسموع لـ(فارس): كيف تستطيع أن ترى شيئاً تحت الماء في هذا الوقت؟!

(حمزة) وهو جالس على كرسي عند مقدمة اليخت ممسكاً بسنارة ويحتسي بعض الشراب المثلج: ألم تسمع بالمصابيح من قبل يا (عبدالرحمن)؟

(عبدالرحمن) وهو يصب ماء الأرز في البحر: بلى لكن أعتقد أن البحر مخيف هذا الوقت

(منصور): خوفك من البحر غير مبرر

(عبدالرحمن) وهو يعود للمطبخ: البحر مخيف في كل وقت

(فارس) بصوت مرتفع: عن ماذا تتحدثون؟! لا يمكنني سماعكم!

(منصور) وهو يُطل على (فارس) من حافة اليخت: لا شيء فقط لا تتأخرا أنت و(حسن) فالطعام سيجهز بعد قليل!

(فارس) وهو يغطس للقاع: حسناً! ستكون هذه غطستنا الأخيرة

بعد غروب الشمس حل الليل بستاره المظلم ولم يكن القمر حاضراً تلك الليلة..

(عبدالرحمن) وهو يحمل طبقاً كبيراً من السلطة: ألم يعد (فارس) و(حسن) من غوصهم تحت الماء بعد؟

(حمزة) وهو يطوي سنارته لتجديد الطعم: لا.. لقد نزلوا في جولة غوصهم الثالثة

(عبدالرحمن) يضع الطبق على الطاولة عند مقدمة اليخت: غريب.. لقد تأخروا

(منصور) وهو يلتقط قطعة من الطماطم من وسط الطبق ويتناولها: ليست هذه أول مرة يتأخر فيها (فارس)

(عبدالرحمن) يمسح يده بمنشفة ويطل من طرف اليخت للبحر المظلم بقلق: لا أعرف لِم أنا قلق

(حمزة) وهو ينهض من كرسيه ويتوجه نحو طبق السلطة: لا تقلق وأخبرنا ماذا أعددت للعشاء؟

(عبدالرحمن) وهو يلتفت باسماً: أعددت أرز باللحم

(حمزة) بغضب وهو ينظر إلى طبق السلطة: لماذا؟!

(منصور) بتعجب: ما بك؟ ألا تحب اللحم بالأرز؟

(حمزة) بتجهم وعينه على طبق السلطة: بل لا أحب الطماطم!.. لِم أضفت الطماطم للسلطة يا (عبدالرحمن)؟!

(عبدالرحمن) وهو يضحك: هل هناك أحد لا يحب الطماطم؟.. ثم أن الطماطم عنصر رئيسي في أي طبق سلطة

(حمزة) وهو يعود غاضباً تجاه الكرسي عند مقدمة اليخت: أنت لا تضيف الملح في السلطة لأجل (فارس)!

(عبدالرحمن) وهو يتذوق السلطة باسماً: الملح اختياري لكن الطماطم شيء أساسي

(حمزة) وهو يركب قطعة من الحبار على خطاف سنارته بتجهم: لا أريد سلطتك!

(منصور) وهو يضحك: لأول مرة أرى شخصاً يغضب بسبب طبق سلطة

(حمزة) وهو يلقي بسنارته في الماء ويثبت قصبتها في المكان المخصص بعبوس: ومتى سنأكل؟

(منصور) وهو يلقي نظرة للأفق: عندما يعود الشباب من غوصهم

(عبدالرحمن) وهو يهم بالعودة للمطبخ مبتسماً: ريثما يعودان سأعد لكاره الطماطم طبق سلطة آخر خاصاً به

(حمزة): لا داعي لذلك لا أريد

(عبدالرحمن) وهو ينزل إلى طابق السفينة السفلي: لا تقلق إعداد الطعام متعتي مثلما الصيد متعتك

(منصور) لـ(حمزة) وهو يراقب (عبدالرحمن) مبتسماً: لم أرَ هذا الرجل يغضب أو يستاء من شيء من قبل

(حمزة): أعتقد أنه قرر أن يقاطع الحزن بعد وفاة ابنه

(منصور) متعجباً: هل (عبدالرحمن) له أبناء؟.. كنت أظنه لم ينجب أولاداً

(حمزة) وهو يشعل سيجارة: ابن واحد فقط.. هذه المعلومة لا يعرفها سواي أنا و(فارس) وهو لم يحدثنا بها من قبل وعلمنا بها صدفة من أحد أصحابه القدامى.. (عبدالرحمن) أكبرنا سناً ولم نتعرف عليه إلا قبل عشر سنوات.. هل نسيت؟

(منصور): وكيف مات؟

(حمزة) ينفث سحابة من الدخان: مرض مجهول أصابه وخطفه بسرعة كما قال صاحبه

(منصور): وهل هذا سبب للابتهاج في كل وقت؟

(حمزة) وهو سارح في البحر ويدخن: الحزن والفرح اختيار..

(منصور): غير صحيح: لا أحد يختار الحزن على الفرح

(حمزة) وهو يلقي بعقب السيجارة في البحر ويعود لسنارته: إذا لم تختر الفرح سيختارك الحزن..

(منصور) بوجه متسائل: ماذا تعني بهذه الهرطقات؟

(صوت آتٍ من البحر): أنزلوا السلم!

هرع (منصور) و(حمزة) إلى حافة اليخت وأطلوا برأسيهما في البحر..

(فارس) من العتمة: إلامَ تنظرون؟! أنزلوا السلم!

بادر (حمزة) وأنزل السلم وبعد دقائق صعد (فارس) ومن خلفه (حسن) إلى السطح وجلسا على الأرض وخلعا أقنعتهما وعلى وجوههم بدا التوتر والتعب.

(منصور) بقلق: ما بكما؟.. لِم تأخرتما كل هذا الوقت؟

(فارس) وهو ينهض ويبدأ في خلع ملابس الغوص: لا شيء

(حمزة) وهو يشاركهم الحديث: لا شيء؟.. وجوهكما لا تدل على ذلك

(منصور) وهو يلتفت إلى (حسن) الذي لا يزال جالساً على

الأرض ويحدق أمامه سارحاً: مالذي حدث يا (حسن)؟

(فارس) وهو يقاطع (منصور) بتجهم: أخبرتك بأنه لم يحدث شيء!

(منصور) وعينيه على (حسن): لم أوجه السؤال لك يا (فارس)

(حمزة) وهو يتوجه نحو (حسن) وينزل على ركبتيه أمامه ويضع كفيه على أكتاف أخيه ويقول بقلق: ما بك؟.. مالذي حدث لكما؟ ولِم تأخرتما كل هذا الوقت؟

(حسن) وهو يرفع رأسه ويوجه نظره لـ(فارس) الذي كان يحدق به بحدة: لا شيء.. لم يحدث شيء

(عبدالرحمن) وهو عائد من المطبخ حاملاً طبق السلطة الخالي من الطماطم ويقول مبتهجاً: لقد عدتما أخيراً.. هيا لنتناول العشاء قبل أن يبرد!

(فارس) وهو يرمق (منصور) بنظرة ويوجه كلامه لـ(عبدالرحمن): أنا جائع جداً.. ماذا أعددت لنا؟

(عبدالرحمن) وهو يضع طبق السلطة على المائدة: الأرز باللحم

(فارس) متوجها نحو المائدة المعدة على مقدمة اليخت: سلمت يداك يا (عبدالرحمن)

بقي (منصور) يراقب (فارس) بتوجس من طريقة كلامه لكنه لم يجادل ولحق به نحو المائدة.

(حمزة) وهو يساعد أخيه على النهوض: هيا يا (حسن) لتتناول بعض الطعام

(حسن) وهو يقف ويبدأ بخلع بقية ملابس الغوص: لست جائعاً

(حمزة) وهو يساعده في خلع ملابسه ويقول مازحاً: عندما تجلس أمام الطعام ستعود لك شهيتك فلا أحد يستطيع مقاومة طهي (عبدالرحمن)

(حسن) وهو يضع يده على رأسه: أحس بالصداع وأريد أن أنام

(حمزة) وهو يلمح جرحاً صغيراً عند عنق (حسن): ما هذا الجرح؟

(حسن) يغطي الجرح بيده ويسير تجاه المائدة: هيا لنتناول العشاء؟

(حمزة) يمسك ذراع أخيه ويشد عليها قائلاً: أخبرني ما سبب تلك الإصابة؟!

(حسن) وهو يبتسم بتوتر: لا تقلق أنه مجرد جرح بسيط

(حمزة): أنت أخي الأصغر ويجب أن أقلق.. أخبرني الآن ما سبب تلك الإصابة؟

(فارس) وهو جالس إلى المائدة مع البقية وبصوت مرتفع لـ(حسن): هيا يا (حسن) فالطعام سيبرد!

(حسن) وهو يهم بالتوجه للمائدة ويقول لـ(حمزة): سنتحدث لاحقاً

سار الاثنان وجلسا على المائدة وبدأ الجميع بتناول الطعام لكن الأجواء كانت متوترة ولم يكن سوى (عبدالرحمن) يحاول تجاذب أطراف الحديث مع المجموعة لكن البقية كانوا إما صامتين أو يردون بردودٍ باردة ومقتضبة.

(عبدالرحمن) وقد ضاق ذرعاً بما يحدث: ما بكم؟!.. لِم التجهم والصمت؟!

(منصور) وهو يعبث بشوكته في طبقه وعينه تحدق بـ(فارس): اسأل صاحب الأسرار

(فارس) بتجهم: ماذا تقصد؟!.. أي أسرار؟!

(حمزة) بعصبية: أنت و(حسن) تتصرفون بغرابة منذ عودتكما من الغوص!

(فارس) بغضب: أنتم من تتصرفون بغرابة!

(عبدالرحمن) وهو متعجب مما يحدث أمامه: ما بكم؟.. هذه أول مرة أراكم بهذه الحالة.. نحن هنا كي نستمتع لا أن نتشاجر

(حسن) وهو يقف ويده على رأسه: سأذهب للفراش..

(حمزة) بغضب: لن يتحرك أحد حتى نعرف ما حدث!

(فارس) بصوت مرتفع: عن ماذا تتحدث؟!

(حمزة) وهو يقف ويضع كفاً على أذن (حسن) والكف الآخر على كتفه ويباعد بينهما ليكشف عن الجرح: انظر!

نظر الجميع إلى عنق (حسن) لثوانٍ ثم قال (فارس) بسخرية: ننظر لماذا؟

(حمزة) وهو يدير نظره لعنق أخيه: للجر..

تفاجأ (حمزة) عندما لم يشاهد الجرح الذي رآه سابقاً على عنق أخيه وقال بتعجب: أين الجرح؟

(حسن) وهو يبعد كفوف أخيه عنه ويقول وهو في حالة من الدوخان: هل يمكن أن أذهب للفراش الآن؟

(فارس) وهو يشير بيده لـ(حسن): اذهب يا حسن ونل قسطاً من الراحة

سار (حسن) وهو يترنح وكأنه مخمور نحو مدخل السطح السفلي للسفينة تاركاً البقية يحققون مع (فارس).

(حمزة) يجلس وعينه على أخيه وهو يسير بخطوات غير متزنة نحو المدخل: ألن تخبرنا بما حدث يا (فارس)؟ من الواضح أنكما تعرضتما لشيء ولا تريدان الحديث عنه

(منصور) بتهكم: لا تحاول فلن يتحدث

(فارس): بل سأتحدث.. لم أكن أريد التحدث أمام (حسن) فقط

(عبدالرحمن) وهو يبدأ برفع الأطباق: سأعد الشاي

(حمزة) لـ(فارس) بقلق شديد: ما الذي حدث؟

(فارس) وهو يتأكد بنظره من أن (حسن) قد نزل لغرفته: لقد تعرض (حسن) لحادث بسيط

(حمزة) بقلق: ماذا؟!.. حادث؟!.. حادث من أي نوع؟!

(منصور): اهدأ يا (حمزة) ودعه يكمل

(فارس): خلال عودتنا نحو اليخت كان (حسن) يعوم أمامي وفجأة توقف وبدأ يتقلب مكانه وكأنه قد أصيب بنوبة صرع

(منصور): هل تعطلت اسطوانة الهواء الخاصة به؟

(فارس): هذا ما ظننته في بادئ الأمر لأن حركاته كانت تشير بأنه يبحث عن النفس لكني لم أعرف السبب الحقيقي إلا عندما وصلت إليه ورأيت ذلك الشيء ملتف على عنقه

(حمزة): شيء؟.. هل علق بخيط سنارة أو حبل أو ماذا؟

(فارس): لا.. كان كائن غريب كالأخطبوط لكنه لم يكن أخطبوط.. كان أصفر اللون بثلاث مجسات حمراء طويلة لفها حول عنق (حسن) ورأسه الكبير التصق بنظاراته وحجب رؤيته.

(حمزة): لا بد أن ذلك الكائن هو من تسبب بالجرح بعنقه

(منصور): أي جرح؟ لم نرَ بعنقه شيئاً

(حمزة) بغضب: لقد كان عنقه مجروحاً أنا متأكد!

(منصور) بتهكم: الجروح لا تلتئم بهذه السرعة

(فارس): هل أكمل الحديث أم أنتظر حتى تنتهوا من الجدال؟

(حمزة) وهو يلتفت إلى (فارس): وماذا تبقى؟.. لقد خلصته من ذلك المخلوق وعدتما لليخت أليس كذلك؟

(فارس): ليس تماماً

(منصور) باستغراب: ماذا إذا؟

(عبدالرحمن) وهو يضع صينية الشاي أمام الجميع مبتسماً: لقد صنعت لكم شاياً بالنعناع كي تهدؤوا قليلاً

(حمزة) وتركيزه منصب على (فارس): أكمل.. ماذا حدث؟

(فارس): لنحتسي بعض الشاي أولاً

(حمزة) وهو يقلب الصينية بيده بغضب ويلقي بها على الأرض: أكمل!.. ماذا حدث لأخي؟!

(عبدالرحمن) بغضب: ما بك؟!

(منصور) بصوت مرتفع: اهدأ يا (حمزة) !.. الرجل لم يقترف أي خطأ!

(حمزة) بغضب: ألا ترى كيف يحاول التملص من الحديث؟!

(فارس) كاظماً غيظه: حسناً!.. تريد أن تعرف ما حدث؟.. لقد سحب ذلك الشيء أخاك بعيداً ولم ألحق أن أساعده!

(حمزة) بتعجب شديد: ماذا؟.. كيف وجدته إذاً؟

(فارس): بحثت عنه لفترة في الاتجاه الذي سحبه إليه ذلك الشيء حتى وجدته فاقداً للوعي لوحده وذلك الشيء لم يكن بالجوار فأخذته للسطح وخلعت قناعه وبدأت أحاول إسعافه حتى استرد وعيه وعدنا سباحة نحو اليخت

(منصور): ولِم لم تكن تريد الحديث أمامه؟

(فارس): لأني عندما سألته عن الأمر لم يتذكر شيئاً مما حدث ولم أرد أن أتحدث أمامه كي لا يفزع.. من الجيد أنه لا يذكر شيئاً

(عبدالرحمن): الحمد لله.. الأمر انتهى الآن!

(حمزة) وهو ينهض: سوف أبات بجانبه الليلة

لم يرد أحد على (حمزة) الذي سار نحو المدخل المؤدي للطابق السفلي لليخت..

(منصور) لـ(فارس): لا تتضايق من (حمزة) هو مستاء فقط مما حدث لأخيه

(فارس) وهو يشعل سيجارة: ليس لي ذنب فيما حدث..

(منصور): أعرف والحمد لله أن الأمر لم يتطور لشيء أسوأ

(عبدالرحمن) وهو ينهض مبتسماً: لقد اكتفيت من الحماس الليل سوف أذهب للفراش

(منصور) مبتسماً: شكراً يا (عبدالرحمن) لقد أتعبناك الليلة

(عبدالرحمن) وهو يتوجه لمدخل الطابق السفلي مبتسماً: لا بأس

بعد رحيل (عبدالرحمن) أشعل (فارس) سيجارة أخرى وبدأ يدخنها و(منصور) يحدق به بصمت. خرج (منصور) عن صمته عندما رأى أن (فارس) يدخن بشراهة وتوتر وقال: ما بك؟

(فارس) وهو ينفث الدخان بقوة: عندما وجدت (حسن).. لم يكن يتنفس.. كان ميتاً..

(منصور) وهو مصدوم: ماذا؟!.. ميت؟!

(فارس) وهو يطفئ السيجارة على الطاولة: نعم.. عندما كنت عائداً لليخت كنت أسحب جثته معي لكن عندما ناديت عليكم لإنزال السلم استيقظ فجأة وأفزعني

(منصور): ربما كان فاقداً للوعي فقط كما قلت سابقاً

(فارس) وهو يشعل سيجارة أخرى ويده ترتجف: مستحيل..

(منصور): لما أنت واثق هكذا؟

(فارس) وهو ينفث سحابة كبيرة من الدخان: لقد فحصت كل مؤشرات الحياة عنده عندما أخذته للسطح.. قلبه لم يكن ينبض.. نبضه توقف.. الماء كان يخرج من فمه وأنفه.. لقد غرق.. أنا متأكد من ذلك

(منصور) بتوتر: ماذا تريد أن تقول؟

(فارس) وهو ينهض: لا أعرف.. أنا ذاهب للنوم.. هل ستبقى هنا؟

(منصور): نعم قليلاً فقط ثم سأخلد للنوم

(فارس) وهو يتوجه إلى مدخل الطابق السفلي: حسناً تصبح على خير

بقي (منصور) على سطح مقدمة اليخت بعدما أغلق جميع الأنوار وظل يراقب نجوم السماء منصتاً لصوت الأمواج يفكر لوحده. بعد أقل من ساعة سمع صوتاً آتياً من مؤخرة اليخت. كان الصوت أشبه بشيءٍ يتفتق يصاحبه بعض الدبيب

الخفيف على الأرض فنهض وبدأ بالسير بحذر نحو مصدر الصوت. كانت الرؤية شبه معدومة بالرغم من أن السماء اكتظت بالنجوم إلا أن ضوئها لم يكن كافياً لإظهار التفاصيل الدقيقة. وصل (منصور) إلى مؤخرة اليخت وحيث أن الصوت توقف قبل وصوله بدأ بالبحث في أرجاء المكان عن مصدره وخلال بحثه لمح هيئة رجل يقف عند طرف اليخت موجهاً نظره للبحر وعندما رآه نادى عليه قائلاً: من هناك؟!

التفت ذلك الشيء ذو الجسد البشري إلى (منصور) بأعين لمعت كأعين القطط قبل أن يقفز للماء من أعلى اليخت. جرى (منصور) وألقى بنظره في البحر لكنه لم يرَ شيئاً أو أثراً له. عاد جرياً وهو متوتر وتوجه مباشرة للغرفة التي كان ينام فيها (حمزة) و(حسن) وفتح الباب بقوة وأشعل النور فلم يجد سوى (حسن) في فراشه نائماً ولم يستيقظ إلا عندما أيقظه (منصور) على عجالة وهو يقول أين (حمزة)؟!

(حسن) وهو ينهض بتثاقل: ماذا؟.. عن ماذا تتحدث؟

(منصور) وهو يشير إلى فراش (حمزة): أخوك!.. أين هو؟!

(حسن) وهو يستيقظ بالكامل ويجلس على طرف السرير: لا أدري لقد نمت قبل أن يأتي

خرج (منصور) من الغرفة بسرعة وعند عتبة الباب اصطدم بـ(حمزة) الذي قال: ما بك؟!

(منصور) وهو يتنفس بثقل: أين كنت؟!

(حمزة) باستغراب: في دورة المياه.. لِم أنت متوتر هكذا؟.. ما الذي حدث؟

(منصور) وهو يمعن النظر بـ(حمزة) بتوجس: لِم جسدك مبتل هكذا؟.. هل كنت تستحم؟

(حمزة) وهو يضع يده على صدره ويتحسس ملابسه المبتلة ويقول بتوتر: نعم.. لا.. لقد فار الصنبور فجأة في وجهي وبللت ملابسي

(منصور) وهو ينظر لـ(حمزة) بنظرة شك: هل صعدت للسطح؟

(حمزة): السطح؟.. لا.. لقد كنت هنا

(حسن) وهو يستلقي: هل يمكنكما إطفاء الأنوار والحديث في الخارج أريد أن أنام

(حمزة) وهو يدخل الغرفة متجاوزاً (منصور): كلانا يريد النوم.. والحديث انتهى

استلقى (حمزة) على فراشه وحدق بالسقف وهو يقول: أغلق الأنوار وأخرج يا (منصور)

(منصور) بتهكم: ألن تغير ملابسك المبتلة؟

(حمزة) وهو مستلقٍ ويحدق بالسقف: لا

وجه (منصور) نظره نحو (حسن) ورأى بأنه مستلقٍ بنفس الطريقة الغريبة التي كان (حمزة) مستلقياً بها وكان أيضاً يحدق بالسقف بصمت. أغلق (منصور) الأنوار والباب وخرج متوجهاً لغرفته. دخل إليها ولم يشعل الأنوار وتوجه لسريره مباشرة ليفاجأ بـ(عبدالرحمن) مستلقياً فيه فهز كتفه وأيقظه قائلاً: ماذا تفعل هنا يا (عبدالرحمن)؟

(عبدالرحمن) وهو ينهض من فراشه بسرعة غريبة: ماذا تقصد؟!

(منصور) وهو متعجب ومرتاب من طريقة حديث (عبدالرحمن) ونهوضه السريعة: أنت بفراشي؟.. فراشك في الجهة الأخرى

(عبدالرحمن) ينهض بصمت ويستلقي في الفراش الآخر..

وقف (منصور) يراقب ما حدث بتعجب شديد لكنه لم يجد تفسيراً سوى أن الجميع مرهقون ومتوترون بسبب ما حدث على العشاء وأن تصرفاتهم طبيعية وهم بحاجة لبعض الراحة فقط. استلقى في فراشه وأغمض عينيه وخلد للنوم.

في الرحلات البحرية السابقة اعتاد الجميع على الاستيقاظ على صوت (عبدالرحمن) صباحاً وهو يوقظهم بطريقة مزعجة لتناول الإفطار فمرة يوقظهم بالطرق على قدر معدني كبير بالمقلاة ومرة أخرى برش الماء البارد على وجوههم خلال نومهم ولم يكن يُسمح أبداً لأحد بأن يفوت وجبة الإفطار حتى وإن عاد بعضهم للنوم بعدها، لذا عندما استيقظ (منصور) عند الظهيرة ورأى بأن (عبدالرحمن) لايزال نائماً بجانبه استغرب كثيراً وظن أنه مريض فنهض من فراشه وتوجه إليه وأيقظه وقال بتعجب: ما بك يا (عبدالرحمن)؟ لِم لم توقظنا لتناول الإفطار كعادتك؟

نهض (عبدالرحمن) من فراشه بصمت وحدق قليلاً أمامه ثم قال: كم الساعة الآن؟

(منصور): قرابة الواحدة ظهراً.. ما بك هل أنت مريض؟

(عبدالرحمن) وهو يحك رأسه: لا لكن لا أعرف لِم لم أستطع الاستيقاظ.. كنت متعباً جداً

(منصور) مبتسماً: لا بأس المهم أنك بخير

نهض (عبدالرحمن) من الفراش وسار نحو باب الخروج فناداه (منصور) قائلاً: إلى أين؟

(عبدالرحمن): لإعداد الإفطار

(منصور) ضاحكاً: تقصد الغداء

(عبدالرحمن) وهو يخرج من الغرفة مبتسماً: نعم نعم أقصد الغداء

زادت حيرة وتعجب (منصور) عندما صعد للسطح ووجد (حسن) جالساً على طاولة الطعام يحدق بالبحر بصمت تحت حر الشمس المحرقة بلا مظلة أو غطاء للرأس من أي نوع. اقترب منه وسأله: كيف حالك اليوم يا (حسن)؟

(حسن) وهو يرفع نظره بتثاقل ويوجهه نحو (منصور) قائلاً: الحمد لله أفضل بكثير

(منصور): هل تناولت بعض الطعام؟

(حسن) وهو يعيد نظره للبحر: لا أشعر بالجوع

(حمزة) يصعد إلى سطح اليخت وهو يتثاءب ويدعك خلف رأسه ويقاطع حديثهما قائلاً: لِم لم يوقظنا (عبدالرحمن)؟

(منصور) ملتفتاً إلى (حمزة) وهو يبتسم: لِمَ لم تسأله بنفسك؟ ألم تمر عبر المطبخ خلال صعودك؟

(حمزة) وهو يجلس بجانب أخيه على الطاولة: بلى لكني لم أره

(منصور) باستغراب: ماذا؟.. لقد قال أنه سيعد وجبة الغداء؟

(حمزة) يضع يده على كتف (حسن) ويقول: هل أنت بخير اليوم؟

(حسن): نعم.. وتوقفوا عن سؤالي أنا بخير

(حمزة) وهو يبتسم: حسناً

(منصور): سأذهب للبحث عن (عبدالرحمن)

(حمزة) وهو ينهض ويتوجه لمقدمة اليخت حيث كانت سنارته: ربما ذهب لدورة المياه لا تضخم الموضوع

(منصور) وهو يسير تجاه مدخل الطابق السفلي لليخت: أريد الاطمئنان عليه فقط

قبل أن يصل (منصور) للمدخل و(حمزة) لسنارته بدأ (حسن) يسعل بشدة فعاد الاثنان جرياً نحوه وعند وصولهما له رأيا بقعة من الدم على الطاولة أمامه.

(حمزة) بقلق شديد: ما بك يا (حسن)؟!

لم يرد (حسن) واستمر بالسعال بصوت مختنق وكأنه لا يستطيع التنفس..

(منصور) وهو يحاول رفعه: لنأخذه لغرفته

دفعه (حسن) بقوة إلى الأرض وبدأ يصرخ بقوة ويده على صدره..

(حمزة) بتوتر كبير: ما بك؟!

بدأت الدماء تتفجر وتنبع بغزارة من فم (حسن) وهو يصرخ ويغرغر بها حتى سقط على الأرض. في تلك الأثناء صعد (فارس) لسطح اليخت وهو يجري بعدما استيقظ من صراخ (حسن) قائلاً: ما الذي يحدث؟!

دنا (حمزة) من أخيه وبدأ يحاول إنعاشه لكنه فارق الحياة..

بدأ بالبكاء و(فارس) يقف بجانبه ينظر لذلك المشهد بفزع و(منصور) جالس على الأرض يراقب ما يحدث بخليط من الحزن والتوتر.

(فارس) وهو ينزل على ركبتيه أمام جثة (حسن) الملطخة بالدماء: أخبروني.. ما الذي حدث؟

(حمزة) وهو يصرخ في وجه (فارس): كل هذا بسببك!!

(فارس): بسببي؟!

(حمزة) بصوت مرتفع يخالطه الدموع: نعم فأنت من أجبره على الغوص معك!

(فارس) بتجهم: أنا لم أجبره على شيء!

(حمزة): ألم تكن فكرتك بالغوص حتى وقت متأخر؟!.. لو لم يفعل لِم هاجمه ذلك الكائن وتسبب بمرضه!

(منصور): كفى يا (حمزة) نحن لسنا متأكدين من ذلك

(حمزة) يصرخ في وجه (منصور): بل أنا متأكد أن ما حدث له هو بسبب ذلك المخلوق !

(فارس) وهو ينهض: أنت تهذي

(منصور): يجب أن نعود للساحل

لم يرد (حمزة) وأنزل رأسه على صدر أخيه الدامي وبدأ بالبكاء..

نهض (منصور) وهمس في أذن (فارس): اترك (حمزة) لي واذهب أنت لقمرة القيادة وأدر المحرك وعد بنا فوراً!

(فارس) وهو يسير متجهماً نحو السلم المؤدي لقمرة القيادة بالأعلى: حسناً

أدار (فارس) محرك اليخت وبدأ بالتحرك نحو الساحل الذي كانوا يبعدون عنه مسافة نصف يوم تقريباً لكن وبعد دقائق قليلة من المسير تعطل المحرك وتباطأت حركة اليخت حتى توقف.

(منصور) من الأسفل بصوت مرتفع لـ(فارس): لِم توقفت؟!

(فارس) من الأعلى: لا أعرف!.. لقد تعطل المحرك فجأة.. سوف أنزل للطابق السفلي لأفحصه

(منصور): هل تحتاج مساعدة؟!

(فارس) وهو ينزل من القمرة للتوجه إلى مدخل الطابق السفلي: لا

(منصور) موجهاً كلامه لـ(حمزة) الذي كان لايزال منكباً بوجهه على صدر أخيه ويبكي: (حمزة).. لنأخذ (حسن) للغرفة ونلفه بغطاء حتى نصل للساحل لا يجب أن نتركه هكذا

(حمزة) وهو يرفع رأسه والدموع على وجنتيه: حسناً

حمل الاثنان جثة (حسن) ونزلا بها للطابق السفلي..

بعدما وضعاه في فراشه وغطياه بلحافٍ أبيض قرر (منصور) الذهاب لغرفة المحرك وترك (حمزة) بجانب جثة أخيه وعند وصوله إلى مدخل الغرفة وجد (فارس) يقف خارجها يفكر والحيرة تعتلي وجهه فسأله: هل اكتشفت مصدر الخلل؟

(فارس) وهو يشير إلى مدخل غرفة المحرك بإحباط: انظر بنفسك

ألقى (منصور) نظرة داخل الغرفة وصعق عندما رأى أن المحرك محطم بالكامل وكأن أحداً قد فعل ذلك عمداً وقال وهو مصدوم: ما هذا؟

(فارس) وهو يشاركه النظر للمحرك: يبدو أن هناك من يريد أن لا نعود للساحل

(منصور) وهو يلتفت إلى (فارس): ماذا تقصد؟

(فارس): أين (عبدالرحمن)؟

(منصور): لا أعرف فأنا لم أره منذ أن استيقظت قبل نصف ساعة تقريباً

(فارس): أنا لم أحطم المحرك ولا أشك بك..

(منصور): هل تعتقد أن (عبدالرحمن) هو من حطم المحرك؟. ولكن لماذا؟

(فارس): ليس (عبدالرحمن) فقط.. (حمزة) و(حسن) مصدر شك أيضاً

(منصور): لكن (حسن) مات وقد كان هو مع (حمزة) على سطح اليخت معي عندما تعطل المحرك

(فارس): إذاً فالفاعل هو (عبدالرحمن).. يجب أن نجده قبل أن يقوم بشيء آخر يقود لهلاكنا

(منصور) بتعجب شديد: لكن لِم يفعل شيئاً كهذا؟

(فارس) وهو يتوجه إلى غرفة (حمزة) و(حسن): لا تهمنا الآن دوافعه المهم أن نجده بأسرع وقت

وقف (منصور) أمام غرفة المحرك في حالة من الاستغراب الشديد وخلال وقوفه ظهر (عبدالرحمن) من خلفه وقال: لِم تقف هنا يا (منصور)؟

فزع (منصور) من ظهور (عبدالرحمن) المفاجئ خلفه وقال دون تفكير: لِم فعلت ذلك؟!

(عبدالرحمن) باستغراب: فعلت ماذا؟

(منصور) وهو يشير إلى مدخل غرفة المحرك بتجهم: لِم دمرت محرك اليخت؟!

(عبدالرحمن) وهو يلقي نظرة داخل غرفة المحرك: ما هذا؟.. من حطم المحرك بهذا الشكل؟

(منصور) بغضب: لا تتظاهر بالغباء!

(عبدالرحمن) ملتفتاً إلى (منصور) بوجه ساخط: هل تتهمني أنا بالقيام بذلك؟!

(منصور) بصوت مرتفع: ومن غيرك قام بذلك إذاً؟!

وقبل أن يرد (عبدالرحمن) انقض عليه (حمزة) وثبته على الأرض بعد صراعٍ قصير معه.

(منصور) وهو يراقب المشهد بتوتر: ماذا تفعل يا (حمزة)؟!

(فارس) من خلف (منصور) وهو يرمي ببعض الحبال بينه وبين (حمزة): ماذا تظنه فاعلاً؟.. لقد أخبرته بكل شيء.. قيدوه وخذوه للسطح كي نعرف سبب قيامه بتدمير المحرك

(منصور) وهو يمسك بالحبل: لكن يا (فارس)..

(حمزة) ينهر (منصور) قائلاً: هيا أحضر الحبل بسرعة وساعدني بتقييده!

قيد الاثنان (عبدالرحمن) بعد مقاومة قوية منه وساقاه لسطح اليخت وأجلساه على أحد كراسي طاولة الطعام وجلسوا جميعاً أمامه وبدأوا بالتحقيق معه.

(فارس) بتجهم: لِم حطمت محرك اليخت؟!

(عبدالرحمن) بغضب: هل أنت مجنون يا (فارس)؟! أنا لم أفعل شيئاً!

(حمزة) بعصبية: لا فائدة من الإنكار لقد حكى لنا (فارس) كل شيء!

(عبدالرحمن): حكى لكم ماذا؟! ما هو دليله على ما يقول؟!

(منصور): أنت الوحيد الذي كان يمكنه الوصول للمحرك عندما تعطل فكلنا كنا موجودين على السطح

(عبدالرحمن) بغضب: غير صحيح!.. عندما تحرك اليخت كنت في المطبخ وبعدها بدقائق عندما توقف خرجت كي أرى ما

حدث ورأيت (حمزة) يقف عند غرفته! حتى أني ناديت عليه ولم يجبني بل اكتفى بالنظر إلي لثوانٍ ثم دخل بعدها للغرفة!

(حمزة) وهو يضحك متهكماً: لا تظن أن أكاذيبك هذه ستنطلي علينا

(عبدالرحمن) وهو يصرخ بغضب: أنا أقول الحقيقة!

(منصور) بحزن: لا يمكن أن يكون كلامك صحيحاً يا (عبدالرحمن) فجميعنا كنا على السطح عندما تعطل المحرك

(عبدالرحمن): ماذا تريدون مني الآن؟!

(فارس): لا نريد منك شيئاً.. ستبقى مقيداً حتى نعود للساحل ونسلمك للشرطة

(منصور) لـ(فارس): وكيف سنعود بدون محرك؟

(فارس) وهو يحدق بغضب بـ(عبدالرحمن): هذا الأحمق قد يكون قد عطل المحرك لكنه لم يعطل جهاز الإرسال ويمكننا إرسال نداء استغاثة ليتم إنقاذنا

(حمزة): وأين هذا الجهاز؟



(فارس) وهو يشير لقمرة القيادة فوق سطح اليخت: هناك

(منصور): الحمد لله.. ابدأ بإرسال الإشارة إذاً

(فارس) وهو ينهض: سأفعل.. راقبوه كي لا يحاول تحرير نفسه

توجه (فارس) لقمرة القيادة وبقي (منصور) و(حمزة) أمام (عبدالرحمن) يراقبانه وخلال مراقبتهما قال (حمزة) لـ(منصور): كم تظن سيمضي من الوقت حتى يلتقط أحد إشارتنا؟

(حمزة): الله أعلم لكن بإذن الله لن يطول الأمر

بقي الجميع ذلك اليوم في حالة من التوتر والقلق ولم يتحدثوا كثيراً خاصة مع (عبدالرحمن) الذي لم يتواصلوا معه إلا لإطعامه بعض الخضار والفاكهة النيئة لأن لا أحد كان يجيد الطبخ غيره. في اليوم التالي استيقظ (منصور) في غرفته لوحده لأن الجميع قرروا ترك (عبدالرحمن) يبات ليلته على السطح مقيداً. نهض من فراشه بكسل وسار متوجهاً للسطح ليجد (حمزة) جالساً أمام (عبدالرحمن) بهدوء دون أن يتحدث معه. دنا منه (منصور) وقال: كيف حالك يا (حمزة) اليوم

نهض (حمزة) وبدأ بالسير تجاه مقدمة اليخت حيث كانت سنارته..

(منصور) لـ(حمزة): إلى أين؟

(حمزة) وهو مستمر بالسير بهدوء نحو مقدمة اليخت: لألقي بالسنارة

(منصور) باستغراب (حمزة): هل ستصطاد في مثل هذه الظروف؟

لم يرد (حمزة) على (منصور) فقرر التوجه للطابق السفلي من اليخت متوجها لغرفة (فارس) لأنه لم يره على السطح أو في المطبخ خلال صعوده. فتح الباب دون أن يطرقه ودخل الغرفة ليرى (فارس) نائماً ويشخر. أيقظه وقال: (فارس)!.. (فارس)!.. انهض أريد الحديث معك!

(فارس) وهو يفتح عينيه بكسل: ماذا؟.. ما بك توقظني هكذا؟!

(منصور): (حمزة) يتصرف بغرابة

(فارس) وهو ينهض: ماذا تقصد؟

(منصور): لا أعرف اذهب وشاهد بنفسك

صعد (فارس) للطابق العلوي ولحق به (منصور) وعندما

وصلا للسطح قال له: ما الغريب في الأمر؟.. (حمزة) يصطاد كعادته و(عبدالرحمن) مقيد مكانه

(منصور) وهو يتحدث بصوت مسموع لـ(فارس) فقط: ربما أنا أتوهم.. هل حصلت على أي استجابة من جهاز الإرسال؟

(فارس): أمضيت معظم الليل في محاولة لإيجاد إشارة ما لكن دون فائدة

(منصور): وما العمل الآن؟.. الماء والطعام سينفذان في وقت قريب ولا تنسَ جثة (حسن) لا يمكننا إبقاءه هكذا فسوف يتعفن

(فارس): من المفترض أن يبدأ خفر السواحل بالبحث عنا بعد أسبوع من اختفائنا أما بالنسبة لـ(حسن) فالتصرف المنطقي هو أن نلقي بجثته في البحر لكن لا أظن أن (حمزة) سيرضى بذلك؟

(منصور): ولا أنا سأرضى بذلك ما هذا الاقتراح الغريب؟

(فارس): جثته لو بدأت بالتحلل سنواجه مشكلة أكبر من مجرد رائحة كريهة

(منصور): ماذا تقصد؟

(فارس) متجاهلاً سؤال (منصور) وممعناً النظر بـ(حمزة): انظر لـ(حمزة)

(منصور) وهو يوجه نظره تجاه (حمزة): ماذا؟ مالأمر؟

(فارس) وعينه على (حمزة): إنه يرمي سنارته دون أن يضع طعماً عليها

(منصور): صحيح.. أمر غريب فعلاً

(عبدالرحمن) بغضب وصوت مرتفع: إلى متى تنوون تركي مقيداً هكذا؟!

(فارس) وهو يلتفت إلى (عبدالرحمن) بغضب: إلى أن نعود للساحل!

(عبدالرحمن) وهو يضحك بسخرية: وهل تظن أنكم ستعودون للساحل..؟ ستموتون جميعاً هنا!

(منصور): وأنت؟.. ألا تظن أنك ستموت معنا؟

(عبدالرحمن) يضحك بقوة وبصوت عالٍ..

(فارس): ما الذي يضحكك؟!

استمر (عبدالرحمن) بالضحك حتى سكت فجأة وسقط رأسه على سطح الطاولة..

(منصور) وهو يرفع رأس (عبدالرحمن) بقلق: ما بك؟!

(فارس) بتجهم: لا تصدقه إنها حيلة منه كي نحل وثاقه

(منصور) وهو يضع أصبعه تحت أنف (عبدالرحمن): أنه لا يتنفس!

(فارس): لا تفكر بفك قيوده أبداً

(منصور) وهو يبدأ بحل القيود: يجب أن نسعفه!

(فارس) يدفع (منصور) جانباً: إياك!

سقط (منصور) على الأرض وبمجرد أن رفع رأسه وجد (حمزة) ممسكاً (بفارس) من الخلف وهو يصرخ: فك قيوده وقم بإسعافه!

(فارس) وهو يحاول التفلت من قبضة (حمزة) ويوجه كلامه لـ(منصور): لا تكن أحمق!

لم ينصت (منصور) لكلامه وحل وثاق (عبدالرحمن) الذي خر على الأرض وهو لا يزال غائباً عن الوعي وبدأ بمحاولة إنعاشه.

لم يستجب (عبدالرحمن) لمحاولات (منصور) المتكررة لكنه وبالرغم من ذلك لم يتوقف واستمر بالمحاولة حتى سمع صوت شيءٍ يسقط خلفه فالتفت خلفه ليرى (فارس) على الأرض مغشياً عليه هو الآخر و(حمزة) يقف فوقه يحدق به.

(منصور) وهو يصرخ في (حمزة): ماذا فعلت؟!

(حمزة): أنا لم أفعل شيئاً هو من فقد الوعي فجأة

ترك (منصور) ما كان يقوم به وسار حبواً تجاه (فارس) وبدأ يحاول إنعاشه هو الاخر. بعد دقائق نهض (منصور) وهو في حالة من الذهول والصدمة وقال: لقد مات هو الآخر

(حمزة) بتعجب: ماذا؟.. هل أنت متأكد؟

(منصور) وقد بدأ يدمع في حالة من التوتر الشديد: نعم.. تأكد بنفسك

جثا (حمزة) على ركبتيه أمام جسد (فارس) وبدأ يتحسس نبضه وأنفاسه وقال بعد ثوانٍ من الفحص: صحيح.. لقد مات

(منصور) بصوت عالٍ: مالذي يحدث؟!

(حمزة) وهو ينهض ويمسك بـ(منصور): هذا ليس وقت

فقدان أعصابك وتركيزك!

(منصور) وهو في حالة عصبية سيئة: ما الذي أصابهم؟!.. مالذي تسبب بكل هذا؟!

(حمزة) وهو لا يزال ممسكاً بأكتاف (منصور) ويشد عليها كي يحافظ على رباطة جأشه: يبدو أنهم أصيبوا بنفس المرض الذي أصاب (حسن)

(منصور) وهو يبكي بشكل هستيري: مرض؟.. أي مرض؟

(حمزة): لا أعرف لكن يجب علينا أن نتخلص من جثثهم فوراً قبل أن نصاب نحن كذلك بذات المرض

(منصور) وهو يستعيد بعضاً من تركيزه: وماذا تقترح أن نفعل؟

(حمزة) وهو يدير نظره لجثة (فارس) ومن ثم جثة (عبدالرحمن): لا خيار أمامنا سوى أن نلقي بهم في البحر

(منصور) وهو يمسح دموعه: هل ستلقي بجثة (حسن) أيضاً

(حمزة) وهو يعيد نظره نحو (منصور) وبوجه صارم وواثق: بالطبع

(منصور): ألن يعرضنا ذلك للمساءلة القانونية؟

(حمزة): إذا كان توقعنا في محله وأنهم مصابون بمرض معدٍ وخطير فلا خيار أمامنا

(منصور) بتردد: حسناً..

تعاون الاثنان على إلقاء جميع الجثث في البحر ومع اقتراب الليل بدآ بجمع وحصر ما تبقى من الطعام والماء ووضعوه على طاولة الطعام على السطح وجلسا يراقبان الغروب بصمت حتى تحدث (منصور) وقال: ما العمل الآن؟

(حمزة) ونظره منصب على الغروب المتوهج: ننتظر..

(منصور): أنا لا أجيد استخدام جهاز الإرسال لكن يمكنني المحاولة

(حمزة) وهو يدير نظره نحو (منصور): لا تقلق أنا سأتولى هذه المهمة

(منصور): وإذا لم نجد أي استجابة؟

(حمزة) وهو يبتسم ويعيد نظره نحو الغروب: لا تقلق كل شيء سيكون على ما يرام

حل الليل ونهض (حمزة) وتوجه نحو قمرة القيادة لإرسال إشارات الاستغاثة بواسطة جهاز الإرسال وبقي (منصور) لوحده على سطح اليخت يجلس عند طاولة الطعام وأمامه الأطعمة التي جمعاها وبعد أقل من ساعة نزل (حمزة) وجلس معه وقال: لا يوجد استجابة

(منصور): هل تظن أن التيار يمكنه مع مرور الوقت أن يأخذنا لمكان مأهول؟

(حمزة): لا أعرف ربما

(منصور) بحزن: كيف تحولت هذه الرحلة إلى جحيم بهذه السرعة

(حمزة): لنركز فقط على الوضع الحالي

(منصور): هل أنت متأكد بأنك استخدمت جهاز الإرسال بشكلٍ صحيح

(حمزة): ماذا تقصد؟

(منصور) وهو يهم بالنهوض: لا شيء

(حمزة): إلى أين؟

(منصور): للمطبخ

(حمزة): لماذا؟ لقد أحضرنا كل الأطعمة هنا

(منصور) وهو يسير تجاه مدخل النزول للطابق السفلي: لقد نسيت شيئاً

سار (منصور) بضع خطواتٍ تجاه المدخل وقبل أن ينزل التفت إلى (حمزة) ورآه سارحاً في الأفق فغير من وجهته وصعد لقمرة القيادة مستعيناً بالسلم الجانبي. عندما وصل للأعلى ودخل صُعق عندما رأى أن المكان مقلوباً رأساً على عقب وجهاز الإرسال على الأرض محطم. أخذ (منصور) نفساً عميقاً وعاد نزولاً لسطح اليخت حيث كان (حمزة) جالساً وسحب كرسياً وجلس أمامه.

(حمزة) بهدوء ونظره للأفق: هل وجدت ما كنت تبحث عنه؟

(منصور) وهو يحدق به: نعم

(حمزة) ملتفتاً إلى (منصور): لا أرى شيئاً معك

(منصور): لقد وجدت جهاز إرسال آخر في المطبخ واستخدمته لإطلاق إشارة استغاثة ويبدو أن أحداً قد سمعها

(حمزة) بتوتر ووجه قلق: ماذا؟

(منصور): ما بك؟ لا تبدو سعيداً بهذا الخبر

(حمزة) بابتسامة مصطنعة: لا بالعكس هذا خبر جميل.. متى سيصلون؟

(منصور): لا أعرف لكنهم في الطريق إلينا

بدأ التوتر يزداد على ملامح (حمزة) وبعد فترة من الصمت قال: أين هذا الجهاز الآخر؟

(منصور): لِم تسأل؟

(حمزة): أريد أن أستخدمه مرة أخرى كي نتأكد من أنهم سمعوا النداء

(منصور) بتجهم: أم تريد تحطيمه كما حطمت الآخر؟

(حمزة) بنظرة تعجب يخالطها الارتباك: ماذا؟ أحطمه؟

(منصور): لماذا يا (حمزة)؟.. لماذا فعلت ذلك؟

(حمزة) وهو يبتسم بتوتر: فعلت ماذا؟ عن ماذا تتحدث؟

(منصور) يضرب بقبضته على الطاولة: أريد أن أعرف الحقيقة!

(حمزة): أي حقيقة؟!

(منصور) بحدة: حقيقة ما حدث لنا والسبب؟!

(حمزة) بهدوء غريب: لا تشغل بالك بهذا الأمر الآن.. ركز فقط في الطريقة التي سنعود بها للساحل

(منصور) بصوتٍ مرتفع: أنت لا تريد العودة للساحل لكن ما يحيرني هو لماذا؟!

(حمزة) وهو ينهض مبتسماً: لننتظر فقط وسنرى ما يحدث

(منصور): إلى أين أنت ذاهب؟

(حمزة) وهو يبتسم ويلتقط ثمرة طماطم من أمامه ويأخذ قضمة منها: سأحاول أخذ قسطاً من الراحة وأنصحك أنت أيضاً بذلك

تغيرت معالم وجه (منصور) للرهبة والخوف عندما شاهد (حمزة) يقضم من الثمرة التي يمقتها ويمقت طعمها وعندما لاحظ (حمزة) التغير الواضح على معالمه قال: ما بك؟

(منصور) وهو مصدوم ويتمتم مع نفسه:.. (حمزة) لا يحب الطماطم..

(حمزة) مبتسماً بتعجب: ماذا؟.. ماذا قلت؟

(منصور) وهو يقف بتوتر محدقاً بقلق شديد بـ(حمزة): من أنت؟!

(حمزة) وهو يضحك: ما بك؟.. هل أصبت بالمرض أنت أيضاً؟

(منصور) وهو يصرخ: كف عن التظاهر! أخبرني من أنت!

ذابت الابتسامة عن وجه (حمزة) وتحول وجهه لحجرٍ مصمت بلا ملامح أو تعابير وقال: لن أسمح لك بأخذي للساحل..

(منصور) وهو يتراجع للخلف بخطواتٍ حذرة: هل أنت من قتلهم؟

(حمزة) وهو يبتسم بسخرية: أجسادكم لم تكن سوى مخبأ لي حتى أقضي عليكم جميعاً..

(منصور) مبتعداً بحذر للخلف: مخبأ؟!

(حمزة) وهو يلقي بثمرة الطماطم على الأرض: إلى أين تظن أنك ذاهب؟.. سوف تلحق بأصحابك قريباً

(منصور) وهو يلتقط منجلاً لمحه بجانبه كان يُستخدم لرفع الأسماك الكبيرة: لو اقتربت مني سوف أمزقك!

(حمزة) وهو يأخذ بضع خطوات نحو (منصور): سنرى..

توقف (منصور) عن سرد القصة عند هذا الحد..

(المحقق): وماذا حدث بعد ذلك؟

(منصور) وهو سارح أمامه ويدخن بتوتر: قتلته ورميت بجثته من فوق سطح اليخت..

(المحقق): بهذه السهولة؟

(منصور): نعم..

(المحقق): وبقيت في اليخت حتى وجدك خفر السواحل..

(منصور) وهو يطفئ السيجارة: نعم..

(المحقق): قصة غريبة..

(منصور): أخبرتك بأنك لن تصدقني

(المحقق): لا أبداً أنا أصدقك.. لكن..

(منصور): لكن ماذا؟

(المحقق): كم أمضيت من الوقت بعد قتل (حمزة) حتى تم إنقاذك؟

(منصور) بعصبية: ذلك الشيء لم يكن (حمزة)!

(المحقق): حسناً حسناً.. كم أمضيت من الوقت بعد قتل ذلك الشيء؟

(منصور): لا أعرف.. أيام..

(المحقق): حاول أن تحدد

(منصور): لا أعرف.. ربما أسبوع أو أكثر بقليل..

(المحقق): خفر السواحل وجدوا اليخت على بعد خمسة أيام من الساحل وليس نصف يوم كما قلت

(منصور): ربما جرف التيار اليخت.. لا أعرف..

(المحقق): وهل كان الطعام والماء كافياً كي تبقى كل هذه المدة؟

(منصور) بتوتر: نعم

(المحقق) وهو يفتح ملف القضية: الفترة الزمنية بين خروجكم للبحر واليوم الذي وجد فيه خفر السواحل اليخت هي 23 يوماً

(منصور) بقلق: نعم ربما

(المحقق) وهو يغلق الملف: قصتك حسب إفادتك دارت خلال 3 أيام كحد أقصى

(منصور):...

(المحقق): معنى ذلك أنك بقيت على ظهر ذلك اليخت 20 يوماً مع أطعمة تفسد خلال أيام

(منصور): كان هناك معلبات

(المحقق): ماذا عن الماء؟

(منصور) بتوتر: لقد كان كافياً

(المحقق): هل تعرف بأن كل شيء وجدناه على سطح اليخت مجرود هنا بالتفصيل؟

(منصور) والعرق بدأ يتصبب من جبينه: ماذا تقصد؟

(المحقق): أقصد بأن خفر السواحل الذين أعدوا تقرير الموجودات على اليخت ذكروا بأنهم لم يجدوا أي طعام أو ماء في أي مكان

(منصور): نعم فقد نفدت كل المُؤَن قبلها بيوم

(المحقق): ألا تجد أن تلك مصادفة غريبة؟

(منصور) بغضب: ماذا تريد مني؟!.. لقد أخبرتك بما حدث!

(المحقق) بهدوء: نعم.. وأنا أشكرك على ذلك وأشكرك على كشف الحقيقة التي كنت أبحث عنها

(منصور): أي حقيقة؟

(المحقق): بأنك قتلت أصدقاءك وتخلصت من جثثهم واختلقت هذه القصة كي تحصل على حكم مخفف بدعوى الجنون

(منصور) وهو يصرخ في المحقق: لا تلفق الحقائق! ولن أوقع على هذا الكلام

(المحقق) وهو يُخرج جهاز تسجيل من درج مكتبه: لا أحتاج توقيعك على أي إفادة فهذا التسجيل كافٍ لإدانتك

فقد (منصور) أعصابه واندفع نحو المحقق وبدأ بالعراك معه لكن سرعان ما دخل اثنان من الحراس وأمسكا به وابعداه.

(المحقق) وهو يرتب هندامه بتجهم: أعيدوه للحجز حتى نعد التقرير كي يحال للنيابة بتهم القتل المتعمد

خرج الحارسان وهم ممسكون بـ(منصور) الذي كان يصرخ ويقول: لقد خدعتني!.. لقد خدعتني!

جلس المحقق على مكتبه وأعاد جهاز التسجيل للدرج ورفع سماعة الهاتف واتصل بالضابط الذي أوكل له القضية وأخبره بأنه قد انتهى من التحقيق وحصل على دليل الإدانة الذي يدين المشتبه به (منصور) وهو أحد الركاب الخمسة لكن رد الضابط كان غريباً حيث قال:

"غريب.. لقد بلغني منذ قليل بأن فريقنا الخاص برفع البصمات وتفتيش اليخت قد وجد جثة في مراحلها الأولى من التحلل والكشف المبدئي أفاد بأنها تعود لأحد الركاب باسم (منصور).."

فوبيا

م. عبدالوهاب السيد الرفاعي

أجلس لوحدي في المقعد الخلفي أثناء قيادة أبي للسيارة.. يدور بينه وبين أمي حوارا هادئا لم أعره أي اهتمام ونحن متجهون جميعا لزيارة عمتي في مساء ذلك اليوم.. إذ كنت منشغلة بعروستي الصغيرة.. فأقوم بتسريح شعرها بحنان وأخبرها بأسرار يراها الكبار مضحكة.. لكنها جادة جدا بالنسبة لي كطفلة في السادسة من العمر.. بالطبع.. نحن نتحدث عن عام 1955.. حين كانت العرائس والدمى اللعب الوحيدة المتاحة للفتيات في مثل سني.

أختلس النظر إلى الطريق من خلال النافذة نصف المفتوحة.. شعري يتطاير بسبب الهواء شاعرة بشيء من الاستمتاع.. قبل أن تنفتح أبواب الجحيم فجأة!!!.. إذ راح جسدي الصغير يتقاذف في السيارة مع صرخات أمي وهي تلتفت وتحاول أن تمد جسدها إلى الوراء لحمايتي.. لكنها عجزت بسبب انحراف السيارة عن مسارها وانقلابها أكثر من مرة.. أما أبي فقد لمحته بنظرة خاطفة وهو يحاول بيأس أن يسيطر على المقوَد دون جدوى.. ثم.. آلام مبرحة تلف جسدي بأكمله.. إلى أن فقدت إحساسي بالزمان والمكان!!.

لم يتعرض والديّ لإصابات بليغة جراء الحادث.. سوى بعض

الكسور والرضوض التي تعافيا منها مع مرور الأيام.. أما أنا.. فالأمر كان مختلفا معي!!.. أعلم أن قليلين جدا من جربوا سريان الكهرباء في أجسادهم ليتم إنعاشهم وإنقاذهم من الموت.. لذا لا أظن أن أحدا منكم يعرف ذلك الشعور الغريب الذي لا توجد مفردات بكل لغات العالم قادرة على وصفه!!!.. كيف أكون قريبة جدا من الموت وقد توقف قلبي عن العمل لكني -في نفس الوقت- أشعر بالكهرباء تسري في جسدي؟!.. إنه لغز لا أملك إجابة له!!.. الكهرباء تسري في جسدي مرة ثانية.. وثالثة.. ورابعة.. الغرفة تتحول إلى خلية نحل لا يتوقف فيها أحد عن الحركة لإنقاذي من الموت.

لقد علمت فيما بعد أن هذه السرعة لإنعاش قلبي ضرورية للغاية بسبب خلايا الدماغ التي تموت عادة بعد دقائق قليلة من توقف القلب.. فحينها يتم الإعلان رسميا عن وفاة المريض أو المصاب*.. لكن جهود الأطباء نجحت أخيرا.. فقلبي عاد لينبض من جديد.. وخط الموت الرتيب على شاشة جهاز رسّام القلب يعاود التعرّج**.. لأتجاوز أخطر لحظات حياتي وأنجو.

---

* حقيقة.

** للعلم فقط فإن جهاز رسّام القلب تم اختراعه عام 1901 بواسطة الطبيب الهولندي (فيليم آينثوفين) (Willem Einthoven).. لكن الجهاز كان بدائي بالطبع وكبير الحجم قياسا بالأجهزة الحالية.. فأدخلت عليه تعديلات كثيرة مع مرور السنوات.. إلى أن أصبح كما نراه الآن في المستشفيات.

إنها حوادث تتكرر يوميا رغم قسوتها ومرارتها.. وربما كنت سأنسى الأمر برمته وأعيش حياتي بصورة طبيعية بعد شفائي من إصاباتي وعودتي إلى البيت.. لولا ما حدث أثناء لحظات احتضاري هذه!!!.. لقد كنت فاقدة الوعي بطبيعة الحال.. لكني -وفي نفس الوقت- وجدت نفسي على اتصال بواقع آخر مختلف بعيد عن عالمنا.. لا أعرف كيف أصف الأمر.. هل يحلم الإنسان في لحظات احتضاره؟!.. وهل تكون أحلامه شديدة الوضوح بهذه الصورة؟!.. لا أعتقد.. ربما التيار الكهربائي الذي سرى في جسدي جعل عقلي يبصر فجأة.. وساعدني لأرى لمحة واضحة جدا من المستقبل.. وكأنني أرى المشهد عبر شاشة عرض بالغة الوضوح!!!.

لقد رأيت نفسي ممددة على الأرض خالية من الحياة وقد صعقتني الكهرباء حتى الموت بعد أن عبثت في قابس الكهرباء في البيت!!!.. لا أذكر بالضبط إن كان هذا في غرفة المعيشة أم غرفة النوم.. فقد كان تركيز المشهد بأكمله على نفسي.. ولم يكن هناك شيء آخر سوى صرخات أمي التي كانت تنادي باسمي وتبكي بانهيار على فقدي.

وقد أخبرت والديّ بتلك الحادثة الغريبة بعد نجاتي من الموت.. لكنهما لم يأخذا كلامي بجدية بسبب صغر سني أولا.. ولأنهما ظنا أنها مجرد هلوسات إنسان يحتضر.. وإحدى ألاعيب العقل الباطن كوني كنت شبه ميتة ويفترض ألا أرى أو أعي ما يدور حولي.. هذا ما حاولا إقناعي به باستخدام مفردات يفهمها عقلي الصغير.. إلا أنني لم أقتنع بكلامهما إطلاقا.. أنا وحدي رأيت ما رأيت وأدرك مدى دقة وواقعية المشهد جيدا.. فقد كنت واثقة أنني رأيت -بطريقة غامضة- لمحة من المستقبل القريب.. ربما أسابيع أو شهور قليلة من الآن.. وقد علمت بعد سنوات أن ما حصل لي أمر نادر جدا.. إلا أنه معروف في علوم ما وراء الطبيعة.. إذ يطلق عليه اسم (التحذير السبْقي)*.. المهم.. وبسبب تلك التجربة غير المفهومة.. تولدت في أعماقي فوبيا الكهرباء** منذ الصغر.

لقد ظنها والداي مشكلة بسيطة في بادئ الأمر.. لكنهما أدركا

* (التحذير السبْقي) (Premonition) أحد فروع علم (الباراسيكولوجي) -(علم نفس الخوارق) باللغة العربية- وهو عبارة عن رؤية أحداث مستقبلية تحت ظروف غير عادية.. تماما كما حدث مع بطلة قصتنا.. ويعتبر (التحذير السبْقي) محل جدل مستمر في الأوساط العلمية.. فرغم الدراسات الكثيرة التي أجريت حوله.. إلا أنها لم تأتِ بأي نتائج مؤكدة.. والسبب على الأرجح يكمن في المخ البشري الذي لم يفهم العلماء طريقة عمله بصورة كاملة حتى الآن.

** يطلق على فوبيا الكهرباء اسم (إليكتروفوبيا) (Electrophobia).

حجمها حين خرجْت من المستشفى وعدت إلى البيت بعد أسابيع طويلة من تلقي العلاج.. فقد صرت أخشى التعامل مع الكهرباء وأتحاشاها تماما.. حتى الضغط على زر الإنارة في غرفة النوم بدا أمرا شاقا وعسيرا للغاية بالنسبة لي.. فذلك المشهد المخيف الذي رأيته بكل وضوح أثناء عملية إنعاشي بدا لي بمثابة حادثة مستقبلية ستتحقق لا محالة.. إلا إذا تجنبت التعامل مع الكهرباء.. حتى باتت حياتي جحيما لا يطاق.. إننا نتعامل مع الكهرباء في كل لحظة من حياتنا.. وبطريقة تلقائية دون تفكير.. فكيف أتجنبها؟!.

لا أنكر أن أبي حاول كثيرا أن يساعدني بنفسه كي أتغلب على الفوبيا.. فوصل به الأمر ذات مرة بمحاولة إجباري على لمس مفتاح الكهرباء.. لكني صرخت بجنون وبكيت بحرقة وأنا أرجوه أن يرحمني لأنني سأموت وسيتحقق ما رأيته.. فكان يشفق لحالي ويحتضنني بحنان معتذرا عن تصرفه.. ثم يقرر مرة أخرى بعد أسابيع أن يفعل الشيء ذاته وتكون ردود أفعالي أكثر حدة وقسوة.. فأصبت بالإغماء ذات مرة من شدة الرعب.. لأستيقظ على صراخ أمي وهي تبكي وتعاتب أبي على ما فعله.

لذا -وبعد شهور قليلة- قرر أبي أن يأخذني إلى المستشفى لعل أحد الأطباء يتمكن من إقناعي أن المنظر الذي رأيته أثناء عملية إنعاشي ليس حقيقيا.. لكن دون جدوى.. إذ ظللت أقول للطبيب -وبعناد طفولي- أنني واثقة مما رأيت.. وأنني سأموت قريبا لا محالة.. إلا إذا تجنبت الكهرباء.. عندها طلب الطبيب من أبي أن يترك معظم غرف البيت مضاءة كي لا أضطر للتعامل مع الكهرباء.. على أمل أن أكبر وتموت تلك الفوبيا مع مرور الأيام.. لكنه كان مخطئا مع الأسف.

فقد بدا علاجي من حالة الفوبيا هذه مستحيلا.. حتى بعد أن أنجبت أمي شقيقين لي في السنوات التالية حيث ملأا أسرتنا الصغيرة بهجة.. ومرورا بفترة مراهقتي ثم تجاوزي المراحل الدراسية ودخولي الجامعة.. تخيلوا أنني تجنبت التعامل المباشر مع الكهرباء طوال هذه السنوات.. إذ لم أضغط يوما على زر إنارة أي غرفة أو حتى زر تشغيل مجفف الشعر!!.

أعلم أنه سيتبادر إلى أذهانكم تساؤل بديهي للغاية سمعته من أقاربي وصديقاتي كثيرا.. فالزمن أثبت لي أن (التحذير السبْقي) المزعوم هذا كان مجرد هلوسة طفلة صغيرة تحتضر.. إذ كان يفترض أن أموت في طفولتي بسبب المس الكهربائي كما رأيت

أثناء فقدان الوعي.. لكني كبرت الآن وكبرت معي أمي -أطال الله بعمرها- دون أن يحدث شيء.. لماذا إذا ما زلت أعاني من فوبيا الكهرباء؟!!.. ربما لأن الفوبيا غالبا ما تكون لأسباب غير عقلانية أصلا.. فصورتي وأنا جثة هامدة ظلت ملتصقة في مخيلتي رغم كل شيء ورغم علمي التام أن خوفي هذا بلا معنى.

أما بخصوص الزواج.. فقد رفضت بإصرار كل من تقدموا لخطبتي.. وذلك لقناعتي التامة أن من يرغب بالزواج مني سيواجه صعوبات كثيرة في تعامله اليومي معي.. لذا ظللت مصرة على رأيي.. إلى أن بلغت الـ 25 من العمر عام 1973.. ففي ذلك العام تحديدا رضخت وانهارت مقاومتي.. بسبب قريبي الذي أحبني بصدق وظل فترة طويلة يتصل بي ويحاول إقناعي بالزواج منه.. وأن الفوبيا المزمنة هذه لن تؤثر أبدا على حياتنا الزوجية.

كانت هذه نقطة التحول الجديدة في حياتي.. إذ لم أكن أدرك أن كل مخاوفي من الكهرباء ستنهار في لحظة واحدة!!!.. فبعد حفل الزفاف المبهر الذي أقيم في أحد الفنادق الفخمة.. ومع اقتراب تلك الليلة الرائعة من نهايتها.. نهضت مع زوجي

من على الكرسي وسط تصفيق واحتفال المدعوين متجهين إلى غرفة الفندق حيث سنبيت ليلتنا على أن نذهب لعش الزوجية غدا.

كنت أسير مع زوجي بفخر إلى الغرفة وأنا أنظر إلى الجميع مبتسمة.. إحدى قريباتي تحمل فستاني من الخلف كي لا يزحف على الأرض كما يحدث دوما في حفلات الزفاف.. أمي تطلق زغرودة وتلحقها زغاريد أخرى من قريباتي.. ثم.. زوجي يتوقف عند باب غرفتنا وهو يمسك بيدي وينظر إلي بحنان جارف.. قبل أن نودع أقرباءنا وندخل الغرفة.

إضاءة الغرفة خافتة حتى لتظن أنك تعيش حلما جميلا.. زوجي يقف مقابلا لي وينحني ليهمس في أذني بسر ظل يحتفظ به لتلك اللحظة تحديدا على حد قوله.. يخبرني أنه أحبني منذ زمن طويل.. منذ سن المراهقة ربما حين كان يراني في الزيارات العائلية.. وقد أقسم لنفسه أن يتزوجني وأن أكون سعيدة معه إلى الأبد.. فدمعت عيناي تأثرا.. ليمسح دموعي بيد وهو يمسك بيدي الأخرى بحنان.. إنارة الغرفة الخافتة تزداد فجأة وتضيء كل ركن فيها.. ألتفت حولي دون فهم.. ليقول مبتسما:

- لقد فعلتها يا حبيبتي وتغلبت على مخاوفك أخيرا!!!.

لم أفهم.. فنظر إلي مبتسما بهيام ليكمل:

- ألم تشعري بما فعلته للتو؟!.. لقد أمسكت بيدك ومددتها لتضغطي على زر الإنارة الإضافية للغرفة!!.

وقفت مشدوهة لفترة طويلة وأنا أحدق به بذهول.. لا أصدق أنني -وبمنتهى البساطة- فعلت شيئا عجزت عنه سنوات طويلة.. لقد حاول أبي خداعي ذات مرة وجعلني أضغط على زر الكهرباء بطريقة مشابهة.. لكني أدركت خدعته بسرعة وملأت الدنيا صراخا وبكيت وانتحبت و و.. إلخ.. أما الآن فأجد نفسي مستسلمة لزوجي!!!.

ضحكته تتسع وهو يقول:

- كنت على يقين أنني سأنجح بمساعدتك يا حبيبتي.. وها قد جاءت اللحظة التي استعددت لها وتدربت عليها أياما طويلة قبل زفافنا.

ظللت متسمرة في مكاني وأنا أنظر إليه وأنقل بصري إلى زر إنارة الغرفة غير مصدقة.. ليكمل بحنان:

- ما رأيك أن نكرر الأمر؟!.. سنضغط على زر الإنارة سويا مرة أخرى.. وأخرى.. إلى أن تتعودي على ذلك وتنتهي الفوبيا من حياتك.

بدأت أتوتر رغم كل شيء.. لكن نظراته العاشقة بدت وكأنها خير علاج لتوتري.. يبدو أن الحب هو علاج الفوبيا الحقيقي!!.. إذ وجدت نفسي أنجرف لإرادته دون وعي.. هل يعقل أن أقع في غرام زوجي منذ يوم زفافنا؟!.. لا تنسوا أنني أتحدث عن فترة السبعينيات قبل انتشار وسائل التواصل الاجتماعي.. حين كانت العلاقات بين الجنسين مقطوعة تماما.. لذا كان من السهل آنذاك أن تقع الفتاة بغرام أي شاب يتقرب لها.. ربما ليس حبا بالمعنى المعروف.. بل حب الحب!!.. تمثيل الحب الذي كنا نراه في المسلسلات العربية ونحلم أن نعيشه.. لكن.. أظن أنني أحببت زوجي بالفعل.

المهم.. وبعيدا عن تبرير ارتباطي العاطفي السريع هذا.. وجدت نفسي أمتلك شيئا من الجرأة.. فمددت يدي إلى زوجي.. ليمسكها مبتسما.. ويقرب إصبعي من زر الإنارة.. أشعر بتوتر.. لكنه أقل بكثير مما كنت أشعر به تجاه الكهرباء منذ دقائق قليلة فحسب.. ها هي يدي المبللة بالعرق تضغط

على زر الإنارة.. مرة.. مرتين.. إلى أن شعرت أن سدا هائلا انهار فجأة أمام تيار جارف من الحب حطم كل حواجز الخوف أمامه.. حقا أن النفس البشرية لغز لا يمكن أن نفهمه!!.

كانت هذه البداية.. ثم أصبحت أكثر جرأة تدريجيا.. حتى بت كأي إنسان عادي يضغط على زر إنارة الكهرباء ومجفف الشعر ويستخدم الكهرباء عموما بآلية دون تفكير.. لتعود حياتي إلى طبيعتها بعد سنوات طويلة من المعاناة.. ولكم أن تتخيلوا فرحة أهلي وأقاربي جراء هذا التغيير الذي حدث في حياتي.. وهذا العلاج الذي بحثوا عنه طويلا .. ليأتيهم على طبق من ذهب.. وعلى يد زوجي الحبيب.

كم مضى على هذه القصة؟!.. أكثر من 40 عاما!!.. فها نحن في عام 2017 وقد تجاوزت أعمارنا السبعين.. حيث أستذكر سنوات عمري شاعرة أنني حققت فيها كل ما تحلم به أي امرأة.. إذ تقاعدت من عملي منذ فترة طويلة بعد أن حققت الكثير من النجاحات.. وقد رزقني الله بثلاثة أولاد حققوا بدورهم نجاحات كبيرة في حياتهم لم تشغلهم عن الاهتمام بوالديهم.. وها أنا أعيش مع زوجي الذي أحبني بصدق ولم يبخل علي يوما بحنانه واهتمامه.

ورغم ذلك.. ما زلت أستذكر مع زوجي بين الحين والآخر تفاصيل الفوبيا التي غمرت حياتي بالسواد وعانيت منها لسنوات طويلة.. فها نحن نتحدث في تلك الليلة عن محاولات والديّ -رحمهما الله- والطب النفسي بأكمله لإيجاد علاج لي دون جدوى.. وأن زوجي وحده ساعدني على التخلص من مخاوفي هذه بواسطة الحب فقط.. فيمسك بيدي بحنان ويرد بكلمات عميقة أدركت الآن معناها:

- لهذا يقال أن الحب يصنع المعجزات يا حبيبتي.

فأرد مستذكرة الماضي:

- يظهر أن كل ما رأيته أثناء عملية إنقاذي بالكهرباء مجرد هلوسة بالفعل كما ظل يردد أبي رحمه الله.. تخيل أنني أضعت حوالي 21 عاما من عمري في فوبيا أعاقت حياتي كثيرا.. ثم اتضح أنها هراء.

ينظر إلي مبتسما ليقول:

- لا تلومي نفسك يا حبيبتي.. فالأمر لم يكن متعلقا بالفوبيا وحدها كما كنت تقولين دوما.. بل بمسبّب الفوبيا.. (التحذير السبْقي) الذي أخبرتني به مرارا.

تنهدت وأنا أقول:

- صدقني.. هذا (التحذير السبْقي) المزعوم لغز لن أعرف إجابته أبدا.. فقد كان المشهد الذي رأيته في لحظات احتضاري واضحا يستحيل أن يكون وهما أو هلوسة رغم ثبوت بطلانه الآن!!.

يبتسم بحنان وهو يهم بقول شيء ما.. لكن.. صرخة مدوية انطلقت فجأة من الصالة:

- سااااااررااااااا

ثم صراخ وبكاء جعلني أنهض من مكاني بسرعة وخفة رغم كبر سني بسبب تدفق الإدرينالين في دمي.. زوجي يتبعني ملتاعا ليستوضح الأمر.. لأجد.. يا إلهي.. لأجد المشهد الذي التصق بذاكرتي منذ طفولتي!!!.. (التحذير السبْقي) الذي رأيته في لحظات احتضاري وتسبب بفوبيا الكهرباء.. إنني أراه واقعا الآن.. (سارة).. حفيدتي الصغيرة التي تحمل اسمي.. لقد صعقتها الكهرباء أثناء عبثها بالقابس في لحظة غفل عنها أبواها!!!!.

أنظر إلى حفيدتي مشدوهة وهي واقعة على الأرض خالية من

الحياة!!!.. الدنيا تدور بي وأنا أنظر حولي بذهول.. الحقيقة كاملة ومضت في عقلي فجأة بعد أن وجدت نفسي في هذا المشهد المألوف.. لقد فهمت أخيرا.. لقد عشت (التحذير السبْقي) بالفعل أثناء احتضاري.. لكني لم أرَ مستقبلي أنا.. بل مستقبل حفيدتي!!!.. نعم.. الفتاة الميتة التي رأيتها أثناء احتضاري كانت حفيدتي (سارة) التي تحمل اسمي.. وليست أنا!!.

الآن فهمت كل شيء.. لكن ما الفائدة من اكتشاف الحقيقة بعد أن حدث ما حدث وتوفيت حفيدتي؟!!.. زوجي يهرع لإنعاشها.. ولدي يتصل بالإسعاف على أمل أن يفعلوا شيئا لإنقاذها.. زوجة ولدي تصرخ وتنتحب.. أعلم أن كل محاولاتهم ستفشل.. فقد رأيت هذا المشهد أثناء احتضاري.. رأيت المستقبل منذ طفولتي وقد فهمته بطريقة خاطئة!!.

وفي غمرة يأسي.. أطلقت صرخة مدوية عبرت فيها عن كل ما شعرت به:

- ساااارااااا.. ساااراااا

الأمور واضحة الآن.. المرأة التي سمعتها تصرخ ملتاعة ظننا مني أنها والدتي هي في واقع الأمر أنا!!!.. فأنا من أصرخ بلوعة

وأنادي باسم (سارة) دون توقف وأنا أدفن وجهي بكلتا يدي.. وأجهش بالبكاء ندما على سوء فهمي لـ(التحذير السبْقي) الذي رأيته بطريقة غامضة منذ سنوات طويلة.. لكن فسره الجميع -بمن فيهم أنا- بطريقة خاطئة.. لتموت حفيدتي دون أن نتمكن من إنقاذها.. كم ألوم نفسي.. كم ألوم أهلي وأقاربي.. كل هذا لا يهم الآن.. لقد فات الأوان.. فات الأوان!!!.



النداء

أسامة المسلم

القرن الواحد والعشرون

نقط الاستلام 1

منطقة 44

مربع 211

هاتف نقال ينير على منضدة متزامناً مع صوت تنبيه ورود رسالة نصية جديدة في صندوق الرسائل. يفتح (يوسف) عينيه وهو مستلقٍ على سريره ويمد يده ويتناول هاتفه وينظر للشاشة المنيرة بكلمة "رسالة جديدة". يفتح الهاتف بإبهامه ليقرأ محتوى تلك الرسالة التي وصلته قبل الفجر بدقائق. كانت رسالة من مصدر مجهول فقد كُتب في خانة المُرسل "بدون رقم" ولم تحتوِ الرسالة سوى على مجموعة من الأرقام دون نص مرافق لها. أمعن (يوسف) النظر لثوانٍ لتلك الأرقام (21.666666, 15.666666) ولم يعرها بالاً وعاد للنوم بعد تحويل الهاتف للوضع الصامت. استيقظ (يوسف) مرة أخرى على صوت هاتف منبه الرسائل ليجد نفس الرسالة بنفس النص. نهض من فراشه مستغرباً وزاد استغرابه عندما وجد أن الوضع الصامت قد تبدل للوضع العادي وقال في نفسه "يبدو أن الهاتف به خلل ما". وضع هاتفه على المنضدة بجانب

سريره واستلقى بفراشه محاولاً العودة للنوم لكن ماهي إلا ثوانٍ معدودة حتى استلم رسالة ثالثة بنفس المحتوى. هذه المرة نهض (يوسف) من فراشه حاملاً معه الهاتف لغرفة المعيشة وبدأ بتقليب صندوق الرسائل الواردة باستغراب.

لم ينتج عن ذلك البحث شيء ولم يجد تفسيراً لتلك الرسائل الغريبة التي استلمها. لم يعد (يوسف) للنوم وبقي مستيقظاً يشاهد التلفاز حتى موعد عمله في الصباح. عندما وصل لمقر عمله وهي شركة لتوزيع المواد الغذائية. بدأ بممارسة عمله بشكل طبيعي حتى آخر دوامه وخلال عودته للمنزل وتوقفه عند إحدى الإشارات الضوئية تلقى رسالة رابعة بنفس المحتوى. بقي (يوسف) يحدق بالأرقام في تلك الرسالة يحاول جاهداً إيجاد تفسير أو تبرير لها وعن من كان يرسلها له لكن تركيزه انقطع عندما قامت سيارة خلفه بإطلاق بوقها كي ينتبه للإشارة التي اخضرت أمامه. وضع (يوسف) هاتفه على المقعد بجانبه وتحرك عائداً لمنزله حتى تلقى رسالتين متتابعتين ولم يستطع فتحهما مباشرة لأنه كان يقود في شارع مزدحم مما تسبب في تشتت ذهنه خلال القيادة وكاد أن يتسبب في حادث بسبب ذلك. أوقف السيارة جانباً وتناول هاتفه وفتح الرسالتين اللتين لم تكونا سوى نسخة مطابقة للرسائل التي استلمها سابقاً. في

تلك اللحظة قرر (يوسف) تقصي حقيقة تلك الرسائل ومصدرها فتوجه لأقرب فرع لمزود خدمة الهاتف وجلس مع أحد موظفيها وشرح له رغبته في معرفة معنى ومصدر تلك الرسائل.

(موظف الاتصالات) وهو يتفحص الرسالة بعينيه: لا يمكننا تحديد مصدر الرسالة

(يوسف): كيف لا تستطيعون؟ ألستم شركة متخصصة في هذه الأمور؟

(موظف الاتصالات) وهو يعيد الهاتف لـ(يوسف): نعم ولكن مرسل الرسالة يستخدم نوعاً من برامج التخفي ومعرفة مصدرها شبه مستحيل

(يوسف) بتجهم: ما فائدتكم إذاً؟!.. ألا تجيدون شيئاً سوى تحصيل الفواتير؟!

(موظف الاتصالات) بهدوء: هل تحتاج خدمة أخرى؟

(يوسف) وهو ينهض بغضب: لا

لفت نظر أحد موظفي خدمة العملاء ارتفاع صوت (يوسف) مع موظف الخدمات فتقدم نحوه مبتسماً وقال: هل يمكنني أن أخدمك بشيء يا سيدي؟

(يوسف) بتجهم: لا!

(موظف خدمة العملاء): اشرح لي المشكلة فقد أتمكن من خدمتك

(يوسف) وهو يزفر بعصبية ويفتح هاتفه: هذه الرسالة!.. أريد معرفة من أرسلها لي!

ألقى موظف خدمة العملاء نظرة على الرسالة ومحتواها ثم تبسم وقال: للأسف لا يمكننا ذلك لأن المرسل غير ظاهر

(يوسف) وهو ينتزع هاتفه من يد الموظف بغضب: شكراً على المعلومة القيمة!

(موظف خدمة العملاء) مبتسماً: لكن يمكنني أن أخبرك بمحتوى الرسالة لو رغبت

(يوسف) وهو يهدأ قليلاً: تقصد تلك الأرقام العشوائية؟

(موظف خدمة العملاء): هذه ليست أرقام عشوائية بل إحداثيات

(يوسف) بتعجب: إحداثيات؟

(موظف خدمة العملاء): نعم.. إحداثيات لموقع ما

(يوسف): أين؟

(موظف خدمة العملاء): لا أعرف لكن يمكنك إدخال تلك الإحداثيات في أي محرك بحث على الإنترنت أو جهاز ملاحة وسيتم تحديد الموقع لك

(يوسف) وهو ينظر لشاشة هاتفه: لِم يرسل أحدهم إحداثيات لي؟

(موظف خدمة العملاء) مبتسماً: ربما أحد أصدقائك يريد اللقاء بك في مكان ما.. هل تحتاج أي خدمة أخرى يا سيدي؟

(يوسف) وهو يسير مبتعداً عن الموظف دون النظر إليه: لا شكراً

ركب (يوسف) سيارته وأدخل تلك الأرقام في محرك بحث في الإنترنت كي تنتهي حيرته لكنها تضاعفت عندما أظهرت الإحداثيات موقعاً في الصحراء على بعد 500 كلم من مدينته تقريباً. لم تكن مدينة أو قرية مجرد بقعة خاوية وسط الصحراء الشاسعة. بقي (يوسف) في سيارته يحدق بشاشة هاتفه وبتلك النقطة المحددة له في وسط الصحراء وانقطع تركيزه بها عندما رن هاتفه ليظهر له "لا يوجد رقم" في الشاشة

فقام بالرد عليه: مرحباً؟

لم يتلقَ (يوسف) رد لكن تملكه شعور قوي بأن هناك من ينصت له على الطرف الآخر..

(يوسف) بعصبية: من يتحدث معي؟!

أغلق المتصل الخط فتعجب (يوسف) ولم يستطع معاودة الاتصال لأن الرقم لم يظهر له.. أدار محرك سيارته وقادها عائداً لمنزله..

عندما دخل البيت توجه مباشرة إلى غرفة النوم لأنه كان مرهقاً بسبب استيقاظه أول الفجر وخلد للنوم مباشرة. فتح عينيه ورأى بأن الوقت كان ليلاً ولم يعرف الساعة التي استيقظ فيها إلا عندما نظر في هاتفه ليكتشف بأن الوقت شارف على منتصف الليل. وقف (يوسف) وهو قابض على هاتفه وعلى وجهه تجلت ملامح الفزع الشديد عندما شاهد أن لديه 713 رسالة واردة وزاد خوفه ورهبته عندما فتح الرسائل ووجدها جميعا متطابقة المحتوى وهي تلك الإحداثيات الغريبة. في تلك اللحظة اتخذ (يوسف) قراره بالذهاب للشرطة والإبلاغ عن هذه الرسائل لكن بعد مقابلته للضابط المناوب أصيب بخيبة أمل فقد أفاده بأن الشرطة لا يمكنها التدخل بما أن محتوى الرسائل لا يتضمن أي تهديد

ونصحه بمراجعة مزود الخدمة الخاص به أو فني لإصلاح الهواتف لعله خلل في هاتفه ومهما حاول (يوسف) مع ذلك الضابط لم يستطع اتخاذ أي إجراء قانوني بحق مرسل تلك الرسائل. خرج من القسم قرابة الثانية صباحاً وسار بخطى بطيئة نحو سيارته المركونة وعندما أمسك بمقبض بابها رن الهاتف فتوقع أنه ذلك الرقم المخفي يتصل به مرة أخرى لكن المتصل كان رقماً غير مخزن في قائمة الأسماء لديه ففتح الخط وقال: نعم؟

(المتصل): صباح الخير

(يوسف): أهلاً.. من معي؟

(المتصل): عذراً يبدو أني قد أخطأت في الاتصال

(يوسف) وهو يصرخ في المتصل: ماذا تريد مني؟!

(المتصل) بنبرة خوف: ما بك؟ أنا لا أريد منك شيئاً كنت فقط أريد الاتصال بزوجتي

أغلق (يوسف) الخط وركب سيارته وبدأ يضرب المقود بقبضته سخطاً..

مضت الأيام واستمرت الرسائل تنهمر على هاتف (يوسف) وبالرغم من أنه قام بتغيير جهازه وشريحته إلا أن ذلك لم يُغير

شيئاً وكانت أعداد الرسائل تزداد يوماً بعد يوم. في أحد الأيام وخلال جلسة لتناول الشاي حكى (يوسف) معاناته لـ(عزيز) وهو أحد أصدقائه المقربين وتربطه به علاقة وطيدة منذ الصغر والذي اقترح عليه اقتراح غريب.

(عزيز): لِم لا تذهب؟

(يوسف): أذهب إلى أين؟

(عزيز): للموقع الذي تشير له تلك الإحداثيات

(يوسف): المكان في وسط صحراء خاوية

(عزيز) وهو يقرب كوب الشاي من فمه: لعلك تجد جواباً يريحك

صوت رسالة واردة في هاتف (يوسف)..

(يوسف) وهو يتجاهل هاتفه: وكيف أصل إلى مكان ناءٍ مثل هذا؟

صوت رسالة أخرى واردة في هاتف (يوسف)..

(عزيز): ألن تجيب على هاتفك؟

(يوسف) بحسرة: ومالفائدة أنها نفس الرسالة يوم بعد يوم..

(عزيز): لن ينال أحدٌ منك إذا لم يجد مكاناً في تفكيرك..

(يوسف): ماذا تقصد؟

(عزيز): تجاهل تلك الرسائل فقط ولا تجعلها تأخذ أكبر من حقها

(يوسف): الكلام أسهل من الفعل.. هذه الرسائل تثير أعصابي

(عزيز): وماذا تنوي أن تفعل؟

(يوسف): لا أعرف لكن لابد أن أقوم بشيء

(عزيز): يمكنني مرافقتك لو رغبت

(يوسف): إلى أين؟

(عزيز): إلى موقع تلك الإحداثيات

(يوسف): ومن قال لك أني ذاهب؟

(عزيز): ماذا تنوي أن تفعل إذاً؟

(يوسف) بحزن: لا أعرف..

صوت رسالة أخرى واردة إلى هاتف (يوسف)..

نظر (يوسف) بوجه مهموم لهاتفه على الطاولة أمامه وبقي صامتاً وسارحاً في شاشته المضيئة..

(عزيز): سوف أذهب أنا.. زودني فقط بالإحداثيات

(يوسف) وسرحانه ينقطع: لا لا.. هذه مشكلتي لوحدي ولا أريد إقحامك فيها

(عزيز) وهو يلتقط هاتف (يوسف) ويحاول فتحه: ما هو الرقم السري لهاتفك

(يوسف) منتزعاً الهاتف من يد (عزيز): لا! سوف أتخلص من الهاتف!

(عزيز): وهل ستبقى بلا هاتف؟

(يوسف): الهواتف ليست من أساسيات الحياة ويمكنني العيش بدونها

(عزيز): كما تشاء.. سوف أتواصل معك بالحمام الزاجل إذاً

(يوسف) وهو يبتسم: أعتقد أن هناك وسائل أقل مشقة من ذلك

تخلص (يوسف) من هاتفه وبالرغم من أنه واجه صعوبة في التأقلم بالبداية إلا أنه اعتاد الأمر مع مرور الأيام. خلال تلك الفترة تعرض (يوسف) لكوابيس مرعبة كلها تمحورت حول تلك الأرقام ولم يكن يستطيع النوم لعشر دقائق متواصلة دون أن يستيقظ مفزوعاً من نومه. كانت أيام عصيبة لم يخرج خلالها من المنزل حتى للذهاب لعمله أو التسوق أو للقيام بأي شيء فقد كان منهكاً طيلة الوقت ويسرق الدقائق للنوم وللحصول على بعض الراحة والتي كانت تُعكر دائماً بتلك الكوابيس.

استيقظ (يوسف) يوماً عندما سمع صوت بابه يُطرق وبدأ بالسير نحو الباب وفتحه دون أن يسأل من الطارق. كان خلف الباب (عزيز) الذي دخل لغرفة المعيشة مباشرة دون السلام على (يوسف) وجلس فيها. سار (يوسف) عائداً لغرفة المعيشة بعدما أغلق الباب ثم جلس أمام (عزيز) واضعاً قدماً على قدم بصمت.

(عزيز): يبدو أن حالتك تسوء يوماً بعد يوم

(يوسف) بوجه مكتئب يحدق بالنافذة: ماذا تريد؟.. لِم أتيت؟

(عزيز): أتيت للاطمئنان عليك

(يوسف) وهو يحك ذقنه الشائك بأظافره: وهل اطمأننت الآن؟

(عزيز): هل لازلت ترى تلك الإحداثيات؟

(يوسف): لقد أصبحت تظهر لي في منامي ويقظتي ولا مهرب منها في أي مكان

(عزيز): ماذا عن عملك؟

(يوسف): توقفت عن الذهاب.. لا أستطيع ممارسة عملي وأنا بهذه الحالة

صمت (عزيز) لثوانٍ ثم قال: هل ترغب بمرافقتي غداً؟

(يوسف): أرافقك إلى أين؟

(عزيز): هل يهم إلى أين؟.. المهم أن تخرج قليلاً وتستنشق بعض الهواء

(يوسف): لا أشعر برغبة في ذلك

(عزيز) وهو ينهض ويهم بالسير نحو باب الخروج: سأعرج عليك غداً صباحاً كن مستعداً

(يوسف) بإحباط: صباحاً أو مساءً أنا لا أهنأ بنومٍ أصلاً

(عزيز) وهو يغلق الباب خلال خروجه: كن جاهزاً إذاً

عاد (عزيز) في صباح اليوم التالي في وقتٍ مبكر وبدأ بطرق الباب حتى فتح له (يوسف) بنفس الهيئة والملابس التي قابله بها بالأمس فقال له (عزيز) بتعجب: ألم تبدل ملابسك؟

(يوسف) وهو يشد لباسه ويشتمه: لباسي لا بأس به..

(عزيز): لا يهم.. هيا بنا

(يوسف): ألن تخبرني إلى أين نحن ذاهبون؟

(عزيز): ستعرف في الطريق

خرج الاثنان وركبا سيارة دفع رباعي كبيرة كانت في انتظارهما يقف خلف مقودها رجل غريب لم يعرفه (يوسف) الذي ركب في المقعد الخلفي وتبعه (عزيز) بالركوب في المقعد الأمامي طالباً من السائق الانطلاق

تحركت السيارة وبقي الثلاثة صامتين لفترة لكن (يوسف) خرج عن صمته عندما بدأ يلاحظ ابتعادهم عن وسط المدينة وسلوكهم طريقاً نحو مدينة أخرى.

(يوسف) وهو يراقب الرمال التي أحاطت بالطريق من الجهتين: هل ستخبرني الآن أين نحن ذاهبون؟

(عزيز) وهو يلتفت إلى (يوسف) ويشير للسائق: هذا (عبد الكريم) مرشدنا

(يوسف): مرشدنا؟

(عزيز): نعم فهو خبير في كل ما يختص بالصحراء ومخاطرها وكذلك مُلم بأجهزة الملاحة الحديثة

(يوسف) بتجهم: هل نحن ذاهبون..

(عزيز) مقاطعاً (يوسف): نعم ذاهبون لموقع الإحداثيات.. هل كنت تظن أني سأتركك تضمحل هكذا يوماً بعد يوم حتى تنتهي؟

(يوسف): وكيف سنجد المكان؟

(عبد الكريم) وهو يشير لشاشة مثبتة أمامه: الأمر ليس بتلك الصعوبة لقد أدخلت الإحداثيات في جهاز الملاحة وخلال ساعات سنكون عند تلك النقطة في وسط الصحراء.

(عزيز): هل سنصل قبل الليل؟

(عبد الكريم): معظم الطريق غير معبد ورملي والمسافة ليست بسيطة فهي تتجاوز الـ 500 كلم فلا شك أننا لن نصل إلا بعد غروب الشمس

(يوسف): ماذا تتوقع أن نجد هناك؟

(عبد الكريم) ضاحكاً: رمال وعقارب الصحراء

(عزيز) لـ(يوسف): حاول أن تأخذ قسطاً من النوم قبل أن نصل

(يوسف): الكوابيس تمنعني

(عزيز): لدي احساس بأنك لن تعاني منها الآن

(يوسف) وهو يستلقي في المقعد الخلفي: حسناً كما تشاء سأحاول النوم

غط (يوسف) في نومٍ عميق ولم يتعكر نومه بالرغم من وعورة الطريق الذي سلكوه بعد ساعة تقريباً من السير في الطريق المعبد وساعات من المسير عبر رمال الصحراء وفوق كثبانها وصل الثلاثة عند الغروب لسور شبكي من الحديد فأوقف (عبد الكريم) السيارة وقال لـ(عزيز): يبدو أن المنطقة خلف هذه النقطة محظورة على العامة

(عزيز): هل هذه منطقة خطرة؟

(عبد الكريم) وهو يطل برأسه من النافذة ويمعن النظر بالسور: ربما.. لا يوجد لوحة إرشادية تفيد بذلك.. قد تكون منطقة صناعية أو أملاكاً خاصة

(عزيز) وهو ينظر لصاحبه النائم: هل يعني ذلك بأننا سنعود؟

(عبد الكريم): لقد استأجرت خدماتي كي أخذك لتلك الإحداثيات وسوف أفعل ذلك لكن أحتاج موافقتك

(عزيز): موافقتي على ماذا؟

(عبد الكريم): على تجاوز هذه النقطة.. أنا لن أخرق القانون إلا إذا رغبت أنت؟

(عزيز): وكيف ستتجاوز هذا الشبك الحديدي؟ لا أرى بوابة يمكن تجاوزها

(عبد الكريم): أترك ذلك لي.. أحتاج فقط إذنك بتجاوزها كي لا أُلام على أي مشاكل قانونية قد نقع فيها

(عزيز): حسناً.. افعل ما تريد لتجاوز هذه النقطة وأي مسؤولية سأتحملها أنا

(عبد الكريم): هذا ما أردت سماعه منك فقط

ترجل (عبد الكريم) من السيارة وأخرج قاطعاً كبيراً من مؤخرتها وبدأ بقطع الأسلاك الحديدية في السور وأحدث فتحة مرت من خلالها سيارتهم بسهولة وأكملوا الطريق. لم يحاول (عزيز) إيقاظ (يوسف) خلال سيرهم حتى وصلوا للموقع منتصف الليل.

(عزيز) لـ(يوسف): انهض!.. انهض!

(يوسف) وهو يفتح عينيه بكسل: ماذا؟.. أين أنا؟

(عزيز) مبتسماً: لقد وصلنا

(يوسف) ينهض بثقل: وصلنا إلى أين؟

(عزيز) وهو يفتح باب السيارة ويترجل منها: هيا لترى بنفسك

(يوسف): أين نحن؟

خرج الاثنان من السيارة وسارا بضع خطوات نحو (عبد الكريم) الواقف تحت النجوم ممسكاً بجهاز بيده ويراقب شاشته بتمعن ويقول: نحن الآن عند الإحداثيات تماماً

(عزيز) وهو ينظر حوله: لا يوجد شيء

(يوسف): مجرد رمال على مد البصر

(عبد الكريم): ماذا كنتم تتوقعون أن تجدوا؟

(عزيز): بعض الإجابات ربما

(عبد الكريم) إجابات على ماذا؟

(يوسف): هل أنت متأكد من أننا في المكان الصحيح؟

(عبد الكريم) وهو يمد الجهاز لـ(يوسف): انظر بنفسك

(يوسف): أنا لا أجيد قراءة تلك الأجهزة

(عبد الكريم): نحن عند الإحداثية (21.666666, 15.666666) أليست هذه وجهتكم؟

(عزيز) وهو لا يزال ينظر حوله: نعم

(عبد الكريم): ماذا الآن؟

(يوسف): نعود

(عزيز): هل أنت متأكد؟

(يوسف): نعم.. لقد نمت بلا كوابيس خلال الطريق.. يبدو أن الأمر انتهى

(عبد الكريم): أي أمر؟

(عزيز) مبتسماً: لا يهم الآن المهم أن الكوابيس توقفت

(عبد الكريم) وهو يسير عائداً نحو السيارة: كما تشاؤون

(عزيز) وهو يضع يده على كتف (يوسف): هيا لنعد

(يوسف) وهو يحدق بالأفق: حسناً

ركب الثلاثة السيارة وأدار (عبد الكريم) المحرك لكنه لم يعمل فحاول عدة مرات ولم يستطع تشغيله فقال بتعجب: ما الحكاية؟

(عزيز): مالأمر؟

(عبد الكريم): يبدو أن البطارية تعطلت

(يوسف) بقلق: ومالعمل؟

(عبد الكريم) وهو يترجل من السيارة: لا تقلقوا لدي بطارية احتياطية في مؤخرة السيارة

أحضر (عبد الكريم) البطارية الاحتياطية وقام بتركيبها وعاد وأدار المحرك مرة أخرى لكن السيارة لم تعمل أيضاً.

(عبد الكريم) وهو يدير المفتاح للمرة الخامسة: أمر غريب

(عزيز): ربما العطل من شيء آخر

(عبد الكريم) وهو يسحب المفاتيح ويضعها أمامه: سنبقى هنا حتى أكتشف سبب العطل

(يوسف): وكم سيستغرق ذلك من وقت؟

(عبد الكريم) مبتسماً: لدي كافة الأدوات اللازمة للتخييم هنا ونحن على أي حال لم نتناول شيئاً سوى الشاي والقهوة طيلة الرحلة ولابد أنكم جائعون

(عزيز): سوف نشعل أنا و(يوسف) ناراً ونعد بعض الطعام ريثما تنتهي من إصلاح السيارة

(عبد الكريم) مبتسماً: حسناً لن يطول الأمر بإذن الله

قام (عزيز) و(يوسف) بإخراج الأدوات اللازمة لتهيئة مكان الجلوس وساروا بضعة أمتار عن السيارة وجلسوا تحت ضوء القمر بعدما أشعلوا النار.

(يوسف) لـ(عزيز) وهو يتناول فطيرة من الفطائر التي أحضرها (عبد الكريم) معه: أين وجدت هذا الشخص؟

(عزيز) وهو يحتسي بعض الشاي وينظر لـ(عبد الكريم) البعيد عنهم قليلاً خلال تفحصه لمحرك السيارة: تقصد (عبد الكريم)؟

(يوسف): نعم

(عزيز): ذهبت لمحل لبيع لوازم الرحلات الخلوية لشراء جهاز ملاحة لأني كنت أنوي القدوم هنا لوحدي وكان (عبد الكريم) صاحب المحل وتحدثت معه عن رغبتي تلك فعرض علي خدماته بمقابل مادي حيث أنه كان يقوم بتنظيم رحلات خلوية للصحراء ويملك خبرة في هذه الأمور

(يوسف) وهو يلقي نظرة على (عبد الكريم) المنهمك في إصلاح السيارة: لا يبدو أن سيارته معدة لمثل هذه الرحلات

(عزيز) وهو يتفحص هاتفه: المهم أننا تأكدنا

(يوسف): تأكدنا من ماذا؟

(عزيز) وهو لا يزال يتفحص هاتفه: لا يوجد أبراج تغطية هنا

(يوسف): أجبني.. تأكدنا من ماذا؟

(عزيز) وهو يضع هاتفه على الأرض بجانبه: من أن تلك الإحداثيات لا تعني شيئاً

(يوسف) بسخرية: ماذا كنت تتوقع أن نجد هنا؟

(عزيز): لا أعرف لكن الأمر كان يعكر صفو حياتك وكان لابد من أن ترى بعينك أن المسألة مجرد أرقام لا معنى لها وجدت طريقها إلى هاتفك

(يوسف): تلك الأرقام لم تطاردني من خلال هاتفي فقط

(عزيز): ماذا تقصد؟

في تلك اللحظة هبت نسمة باردة..

(يوسف): الجو يزداد برودة.. هل أحضرتما معكما بعض الأغطية

(عزيز) وهو ينادي على (عبد الكريم) بصوتٍ مرتفع: هل معك شيء يمكننا أن نستخدمه للتدفئة عدا هذه النار

لم يرد (عبد الكريم) على (عزيز)..

كرر (عزيز) النداء وخلال ذلك التفت (يوسف) نحو السيارة وقال: أين صاحبك؟ لا أراه

(عزيز) وهو يحرك رأسه ونظره متفحصاً السيارة وما حولها: ربما ذهب لقضاء حاجته

(يوسف) يقف ويقول بقلق: هيا لنتأكد

سار الاثنان نحو السيارة وعندما وصلا إليها بدأوا بالدوران حولها والمناداة على (عبدالكريم) لكنهما لم يجدا إجابة وخلال ذلك انطفأت النار المشتعلة على بعد منهما فجأة فقال (يوسف) بتوتر: ماذا يحدث؟ هل صاحبك يتلاعب بنا؟

(عزيز) وهو ينظر لمكان جلوسهما السابق: لا أعتقد

(يوسف): مالذي يحدث إذاً؟!

(عزيز): حاول تشغيل السيارة

(يوسف): المفتاح مع صاحبك وليس معي

(عزيز): لقد وضعها أمام المقود ستجدها عند ركوبك وأنا سوف أحضر هاتفي لقد تركته عند مكان جلوسنا

(يوسف): سوف آتي معك

(عزيز) يسير لمكان جلوسهم السابق: لا لا داعي لذلك فقط حاول تشغيل السيارة

ركب (يوسف) السيارة وحاول إدارة المحرك لكن دون فائدة فأخرج رأسه من النافذة وقال بصوت مرتفع: السيارة لا تزال معطلة!

لم يرد أحد..

نزل (يوسف) من السيارة وتوتره تحول لخوف عندما لم يرد عليه (عزيز) ومشى حتى وصل لمكان جلوسهم ولم يجد سوى النار الخامدة وأكياس الفطائر التي تناولاها سابقاً والريح تلعب بها. وقف لدقائق متسمراً مكانه ينظر حوله وأمامه في حيرة من أمره والخوف قابضٌ على صدره لكن ذلك الخوف تحول لرعب عندما شاهد في الأفق أمامه شيئاً يسير نحوه. لم تكن الرؤية واضحة بالرغم من اكتمال القمر تلك الليلة لكن ما كان واضحاً أن شيئاً ما كان يقترب منه. في لحظة من الخوف الشديد لم يجد (يوسف) أي ردة فعل يقوم بها سوى الجلوس مكانه ومراقبة ذلك الشيء يدنو منه أكثر وأكثر.

بدأت معالم ذلك الشيء تظهر تدريجياً مع تقلص المسافة بينهما ولم يتعرف (يوسف) على هوية ذلك الشيء المقترب إلا عندما أصبحت المسافة بينهما أمتاراً معدودة ليرى رجلاً بلباس طويل يخطو بخطواتٍ ثابتة نحوه. استقر الرجل عند طرف السجادة المفروشة وأخذ يحدق بـ(يوسف) مبتسماً لثوانٍ ثم قال: كيف حالك؟

نظر (يوسف) للرجل بتوتر دون أن يرد عليه..

(الغريب) مبتسماً: هل يمكنني الجلوس؟

(يوسف) بارتباك مشيراً بيده لمكانٍ أمامه: نــ.عم.. تفضل..

جلس الرجل الغريب أمام (يوسف) ودار بنظره حول المكان ثم قال: في كل مرة أعود لهذا المكان أراه يزداد جمالاً

(يوسف) بتوجس: من أنت؟ هل أنت من الجن؟

(الغريب) وهو يوجه نظره لـ(يوسف): لا

(يوسف) بارتياح: إذاً أنت إنسان

(الغريب): لم أقل ذلك..

(يوسف) والخوف يغزوه مرة أخرى: ما أنت إذاً؟!

(الغريب) متجاهلاً سؤال (يوسف): ألم تصلك رسالتي؟

(يوسف): أي رسالة؟

(الغريب): الرسالة التي أتت بك إلى هنا

(يوسف) بتوتر شديد: أنت من كنت ترسل تلك الإحداثيات؟!

(الغريب): نعم

(يوسف): لماذا؟ لِم كنت ترسل تلك الرسائل لي بالذات؟

(الغريب): لست الوحيد الذي تصله مثل تلك الرسائل وكان من المفترض أن تأتي لوحدك

(يوسف): أين أصدقائي؟

(الغريب): تقصد (عزيز) و(عبد الكريم)؟

(يوسف) بقلق شديد: نعم أين أخذتهما؟

(الغريب): اعتبرتهما فدية مقبولة منك

(يوسف): فدية؟!

(الغريب): نعم وأنصحك بالرحيل قبل أن يجدك أحداً من أصحابي

صمت (يوسف) ولم يستمر في الحديث مع ذلك الرجل واكتفى بمراقبته وتفحصه بنظره..

(الغريب) مبتسماً: اسمع.. أنا أعرف أن الأمر بالنسبة لك محير لكن هذا لا يعني أنك يجب أن تعرف التفاصيل

(يوسف): أخبرني على الأقل ما أنت؟

(الغريب): خلق من خلق الله..

(يوسف) بتجهم: هذه ليست إجابة!

(الغريب): نحن نزور الأرض منذ آلاف السنين لأغراض كثيرة وأنا اليوم هنا في زيارة سريعة فقط

(يوسف): أنتم؟

(الغريب): هل تظن بأني الوحيد أو الأول أو الأخير؟

(يوسف): وما غرض تلك الزيارات؟

(الغريب): نحن نجهز..

(يوسف): تجهزون ماذا؟

(الغريب) وقد بدأ بعد النجوم بسبابته: ليومٍ معلوم..

(يوسف): عن ماذا تتحدث؟.. أي يوم؟

(الغريب): يوم لن تلحق أن تراه

(يوسف): هل هو بعيد لهذا الحد؟

(الغريب): ليس بعيد لهذا الحد

صمت (يوسف) ولم يستأنف الحديث..

(الغريب): لقد سألتني سابقاً عن سبب إرسالي تلك الرسائل لك

(يوسف): نعم.. ولم أحصل على إجابة شافية.. ولِم رسائل نصية على الهاتف بالذات؟

(الغريب): الرسائل التي نرسلها أنواع.. نصية.. أحلام.. هلوسات.. أصوات.. وسائل كثيرة

(يوسف): ولِم كل ذلك؟

(الغريب): حسناً.. ماذا تفعل عندما تشعر بالجوع؟

(يوسف) مستغرباً من سؤال الرجل: آكل

(الغريب): ماذا تأكل؟

(يوسف): أي طعام متوفر.. ما هذه الأسئلة؟

(الغريب): فقط أجب وستعرف الهدف من زيارتي هذه

(يوسف): لقد أجبتك ولم أفهم شيئاً

(الغريب): ما هو طبقك المفضل؟

(يوسف) وهو منزعج من تلك الأسئلة الغريبة: لا أعرف.. الدجاج عموماً أحبه

(الغريب) مبتسماً: جميل.. ومن أين تحصل عليه؟

(يوسف): من أي محل بقالة؟

(الغريب): ومن أين تحصل محلات البقالة على الدجاج؟

(يوسف): من المزارع على ما أظن

(الغريب): بالضبط

(يوسف): بالضبط ماذا؟

(الغريب): عالمكم له أغراض كثيرة ومن ضمنها هو أنه كالمزرعة التي نحضر منها الدجاج

(يوسف) بتوجس: وما علاقة ذلك بي؟

(الغريب) ينظر في عيني (يوسف) مباشرة: أنا هنا للتسوق وأنت السلعة التي أتيت لاقتنائها لكن وجود صاحبيك أغناني عن أخذك لذا سأكتفي بهما

(يوسف) وهو مصدوم لكن يحاول أن يتماسك: ولِم لم تأتِ لمنزلي مباشرة؟ لم تستدعيني لهذا المكان النائي.. من الواضح أنك تملك قدرات تمكنك من ذلك

(الغريب): هناك قوانين لا أستطيع تجاوزها وأماكن ممنوع علينا في الوقت الحالي دخولها لكن سندخلها يوماً ما

(يوسف): تتحدث عن القانون وفي نفس الوقت تمارس الخطف

(الغريب) وهو ينهض: انتهى وقتي..

(يوسف) وهو ينهض بتوجس وارتباك: إلى أين؟

(الغريب) وهو يرفع رأسه للسماء: يجب أن أرحل الآن.. وأنت أيضاً يجب أن تعود من حيث أتيت وبسرعة

(يوسف): كيف أعود؟ السيارة معطلة ولا يوجد تغطية للهاتف هنا

(الغريب) وقد بدأ بالسير مبتعداً عن (يوسف): السيارة ستعمل الآن..

بقي (يوسف) يراقب الرجل الغريب وهو يسير في نفس الطريق الذي أتى منه وقبل أن يختفي من الأفق شاهد وميضاً قوياً يلمع حيث كان الرجل وعندما زال ذلك النور الخاطف لم يرَ له أثر.

عاد (يوسف) للسيارة وأدار المحرك الذي عمل على الفور وكأن لم يكن به خلل. أمسك بالمقود وقادها بسرعة مبتعداً عن المكان. لم يكن مع (يوسف) الكثير من الوقود فقد استهلك (عبد الكريم) كل الصفائح الاحتياطية التي أحضرها معه ولم يتبقَ في الخزان سوى كمية كافية للعودة مباشرة لكن (يوسف) لم يكن يعرف طريق العودة ولم يُجد استخدام نظام الملاحة أو حتى الاستعانة بالنجوم وظل يهيم في الصحراء ليلاً مستعيناً فقط بكشافات السيارة لرؤية الطريق أمامه والذي كان عبارة عن أفقٍ لا منتهٍ من الكثبان الرملية. خلال سيره داس (يوسف) على الفرامل فجأة وأوقف السيارة عندما ظهر أمامه شيءٌ ليس كأحد الشجيرات الصغير أو الصخور المتناثرة التي كان يتجاوزها طيلة الطريق. بدا له ذلك الشيء في بادئ الأمر وكأنه حيوان شبه متحلل لكنه قرر النزول من السيارة والتأكد بنفسه فرفع مستوى الإنارة وترجل من سيارته وبدأ بالسير نحو ذلك الشيء.

بعد عدة خطوات حذرة وصل (يوسف) لذلك الشيء المدفون جزئياً في الرمال وبعد ثوانٍ قليلة من التمعن به وضع يده على فمه عندما أدرك أنه لم تكن سوى جثتي (عزيز) و(عبد الكريم) وقد كان جسداهما في حالة بشعة وكأن سباعاً ضارية قد افترستهما فعظامهما المبتلة بالدماء شكلت أغلب الظاهر منهما وكانت جثتاهما معجونتين ببعضهما ولم يتعرف عليهما إلا من خلال خاتم كان يلبسه (عزيز) في خنصر يده الأيسر ولباس (عبد الكريم) الممزق.

هرع (يوسف) جرياً نحو السيارة وأكمل مسيره متجاوزاً جثتيهما الملقاتين على الرمال. أغلق جهاز التكييف وفتح النوافذ لتوفير الوقود واستمر بالتجوال في الصحراء على أمل أن يجد طريق العودة أو أن يرى أحداً يقدم له المساعدة. خلال ذلك بدأ (يوسف) يسمع أصواتاً آتية من الصحراء الخاوية حوله فتوقف محاولاً الإنصات إليها لكنها اختفت ولم يسمع شيئاً. أطفأ المحرك ليحصل على بعض الهدوء لعله يستطيع التقاط ذلك الصوت مرة أخرى ظناً منه أنها قد تكون أصواتاً لسيارات أخرى في المكان لكن الهدوء حوله كان تاماً ومطبقاً. أدار المحرك كي يستأنف البحث عن مخرج من متاهته لكن السيارة غرزت في الرمال ولم يتمكن من إخراجها بعد محاولات عديدة لكن دون جدوى.

نزل من السيارة وسار للعجلات المدفونة محاولاً الحفر أسفل منها وفي تلك اللحظة سمع صوتاً جمد الدم في عروقه. سمع صوتاً كصفير الطيور آتياً من عدة اتجاهات حوله. حاول تهدئة نفسه وإيعاز تلك الأصوات للكائنات الصحراوية لكن ذلك التبرير لم يصمد طويلاً عندما تحول الصفير لما يشبه الطقطقة. نهض (يوسف) وعاد بهدوء للسيارة وأغلق الباب والنوافذ والأنوار وبقي يراقب الأفق أمامه من خلف الزجاج. بالرغم من شعوره بالعطش إلا أنه لم يفكر بالنزول من السيارة. شعر بعدها بدقائق بالنعاس وبدأ رأسه يميل للأمام وأجفانه بالنزول لكن وقبل أن يغفو بهره نور قوي ظهر أمامه فجأة.

وجدت جثة (يوسف) من قِبل أحد الرعاة في تلك المنطقة وهي بحالة شبيهة بجثث صاحبيه وعُزي سبب الوفاة لافتراسهم من قبل الحيوانات الصحراوية الضارية واستندوا في استنتاجهم على الآثار المتروكة على عظامهم والتي كانت أثراً لأنياب كبيرة.

طريقة مبتكرة

م. عبدالوهاب السيد الرفاعي

اليوم الثالث والأخير لتلقّي العزاء في وفاة شقيقتي الكبرى.. وحتى الآن لم يتجاوز أي منا مرحلة الصدمة على عكس ما يحدث في معظم الأحيان.. فعادة في اليوم الأول من العزاء تجد اللوعة والحزن على وجوه أقارب الميت.. وفي اليوم الثاني تجد بملامحهم الهدوء وقبول القدر.. أما في اليوم الثالث فيضحكون ويمرحون وقد عادوا إلى طبيعتهم!!.. لكن الوضع يبدو مختلفا عندنا.. ما زلنا نبكي.. ما زلنا مصدومين.. والوجوم يخيم على وجوهنا جميعا.

أقف مع والدتي وشقيقاتي وقريباتي لتلقي واجب العزاء.. تتعالى بعض الأصوات التي تطلب منا الترحم على الفقيدة.. وأسمع همسات من هنا وهناك تتساءل باستغراب عن كيفية وفاتها.. فقد تزوجت شقيقتي الكبرى منذ أسابيع قليلة فحسب.. ليعثر عليها زوجها ميتة في سريرها فجأة دون سبب واضح!!!.. بالطبع لم تمر حالة الوفاة مرور الكرام.. بل خضع جثمانها لفحوصات دقيقة لم يتبين منها أي شيء سوى أنها ماتت بصورة طبيعية مجهولة السبب.. لا.. لم تكن شقيقتي تعاني أي مرض إن كان هذا ما سيخطر ببالكم.. إنها فقط واحدة من حالات الوفاة التي لا نفهم سببها.

أتأمل شقيقاتي ووالدتي شاعرة بحنق.. فأسرتنا تتكون من 5 شقيقات دون وجود أي رجل في حياتنا بعد وفاة والدي -رحمه الله- منذ سنوات.. فكنا نعاني كثيرا من القيام بمسؤوليات البيت التي يتطلب لها رجل في معظم الأحيان.. وربما ستتضاعف المسؤولية علي تحديدا كوني أصبحت الآن أكبر شقيقاتي وعمري لم يتجاوز الـ 23.. خاصة مع صحة والدتي التي تجبرها على ملازمة الفراش بفعل عامل السن.. لا أنكر أن خالي يساعدنا أحيانا.. بل وقد تحمل مشكورا مسؤولية تجهيز عزاء الرجال مع (وليد) -زوج شقيقتي الراحلة- لكن خالي في النهاية لا يعيش معنا.. ولديه أسرته ومسؤولياته الخاصة أيضا.

تدور تلك الخواطر في ذهني دون توقف.. حتى بعد خروج المعزّين ومن ثم الجلوس وتناول العشاء مع الأقارب كما يحدث دوما في اليوم الأخير من العزاء.. لأصعد إلى الطابق العلوي شاعرة برغبة قوية أن أقف تحت الدش الساخن كي أستعيد بعض حيويتي.. ثم أذهب إلى فراشي مباشرة.. يجب أن أستعد ذهنيا للعودة إلى حياتي الطبيعية ودراستي الجامعية بعد هذا الانقطاع القسري خلال أيام العزاء.

لتبدأ بعدها عجلة الحياة تدور من جديد.. فأذهب إلى

الكلية يوميا.. ثم أعود لأستذكر دروسي وأنا أعد الأيام انتظارا لتخرجي بعد شهور قليلة من الآن.. أحاول أيضا أن أقوم ببعض الالتزامات العائلية بمساعدة شقيقاتي.. جميعنا نبذل جهدنا لنوفر الراحة لأمي أطال الله بعمرها.. فقد ساءت حالتها مؤخرا مع الأسف حزنا على شقيقتي.. كما ضايقها كثيرا انقطاع (وليد) عنا.. إذ لم نره منذ فترة العزاء الذي مضت عليه أسابيع قليلة.. إنه زوج ابنتها الكبرى في النهاية ويفترض أنه أحد أفراد العائلة.. لكن يبدو أنه لا يرانا كذلك!!.

لقد اتصلت به والدتي ذات مرة تسأل عنه.. لتفاجأ أنه قام بتغيير رقم هاتفه.. فاتصلت بأهله الذين اعتذروا منها وأبلغوها أنه مخطئ ومقصر في حقها.. وسيبلغونه بضرورة التواصل معها.. لكنه لم يتصل أبدا رغم ذلك.. مما يعني أنه يرغب بالابتعاد عنا إلى الأبد.. والواقع أنني لم أهتم كثيرا لذلك.. فالعِشرة هي التي تخلق المشاعر.. ولا توجد عِشرة بيننا كونه تزوج شقيقتي الراحلة منذ فترة قصيرة كما ذكرت.. أردد هذا بيني وبين نفسي دون أن أعرف المفاجأة التي تنتظرني.

ففي أحد الأيام.. وبعد ساعات مرهقة من المحاضرات في الكلية.. كنت مستلقية على فراشي في فترة بعد الظهر على

أمل الحصول على قيلولة أسترجع خلالها بعض نشاطي.. حقا أن لحظة تمددك على السرير بعد يوم حافل بالمسؤوليات لحظة مقدسة لا يضاهيها شيء.. موسيقى هادئة تنبعث من هاتفي النقال وتجعلني أغمض عيني مستمتعة بكل ثانية منها.. لكنها توقفت بسبب جرس الهاتف الذي رن قاطعا تلك اللحظات الجميلة.. أنظر إلى الشاشة بكسل.. أرى رقما غريبا غير مسجل.. ضغطت على زر قبول الاتصال.. صوت رجل من جنسية عربية ألقى التحية وقال بشيء من الخجل:

- المعذرة يا سيدتي.. إنني موظف في شركة (....) للتأمين.. أريد التحدث إليك بأمر هام جدا.. أمر يخص (وليد).. زوج شقيقتك الراحلة!!.. لقد قام (وليد) بشراء بوليصة تأمين على حياة شقيقتك بعد زواجهما بأيام قليلة!!!.

نهضت من مكاني كالملسوعة وأنا أستمع إليه وأحاول أن أفهم منه المزيد.. لكنه أصر على لقائي شخصيا والتحدث معي كون القصة لها أبعاد كثيرة سيخبرني بها بالتفصيل على حد قوله!!!.. فأنهيت المكالمة مصدومة غير مصدقة على وعد بلقائه غدا.. وصورة (وليد) لا تفارق ذهني.. لماذا يشتري بوليصة تأمين على حياة شقيقتي؟!.. هذا تصرف غريب غير معتاد.. هل

كان يعلم أنها ستموت بعد الزواج بأسابيع قليلة؟!.. مستحيل بالطبع.. هل قتلها بنفسه؟!.. مستحيل أيضا.. لقد أكد الأطباء أن الوفاة طبيعية وإن كانت مجهولة السبب.. حسنا.. نحن نسمع كثيرا عن قصص شراء بوليصة تأمين على حياة شخص ثم قتله بوسيلة ما للفوز بالمبلغ.. لكنها قصص بوليسية في الغالب.. ومن المستحيل تقريبا أن يفلت منها الفائز بالتأمين كونه المتهم الأول.. إذ يقوم رجال الشرطة بالتركيز على كل شاردة وواردة في حياته إلى أن يتم كشف أمره.

و.. بدأت لا شعوريا أستذكر كل ما أعرفه عن (وليد).. إنه هادئ الطباع كما لاحظت في تلك الفترة القصيرة من ارتباطه بعائلتنا.. لكني لن أحكم عليه بالطيبة بسبب هدوئه.. فالقاتل أيضا يخطط لجرائمه بهدوء!!.. وأعرف أنه مهندس يعمل في جهة حكومية.. وينتمي لعائلة محترمة.. لم تخبرني شقيقتي كيف التقت به.. فقط أعلم أنهما عاشا قصة حب استمرت بضعة شهور قبل أن يتقدم لخطبتها رسميا.. باختصار.. هو لا يختلف عن أي شاب كويتي.. فكيف يخطر ببال شاب كهذا أن يشتري بوليصة تأمين على حياة زوجته؟!.. لا يمكن أن تكون صدفة.. أحاول أن أعثر على إجابة عن تلك التساؤلات.. إلى أن وجدت نفسي أنسحب

تدريجيا إلى النوم.. حيث استيقظت في فترة المغرب.. ليمر اليوم عاديا دون أن يحدث ما يستحق الذكر.

في اليوم التالي.. بعد ساعات قضيتها بين محاضراتي الجامعية.. وبعد عودتي إلى البيت في فترة الظهر.. كنت أعد الساعات والدقائق.. وأحاول أن أشغل نفسي بدراستي انتظارا لمرور الوقت وقد قررت عدم إخبار أحد بأمر لقائي بموظف شركة التأمين قبل أن أفهم منه القصة كاملة أولا.. إلى أن حل المساء واقترب الموعد أخيرا.. فارتديت ثيابا بسيطة ثم خرجت متجهة إلى مقهى (Brush) في منطقة (العديلية) حسب الاتفاق.

وصلت وركنت سيارتي وأنا أشعر بتوتر لا أعرف سببه.. أسير بثبات ناحية المقهى.. أحدهم يجلس وحيدا على طاولة خارجية وهو ينظر إلي بدوره.. أعتقد أنه هو.. و:

- مرحبا.. أنا شقيقة (......) رحمها الله.

نهض وهو يرحب بي بحرارة.. ثم جلسنا وطلبنا شيئا نشربه.. قبل أن يقول بجدية:

- المعذرة لهذا اللقاء ولاتصالي المفاجئ عصر أمس.. لقد عثرت على رقمك في بوليصة التأمين.. فـ (وليد) كان قد

اشترى البوليصة باسم شقيقتك كما أخبرتك.. وزودنا ببياناته الشخصية.. وزودنا أيضا ببياناتك أنتِ كثاني أقرب شخص لشقيقتك كما تنص شروط الشركة*.

لم أرد.. بل نظرت إليه وكأنني أحثه على الاستمرار بالكلام.. ليكمل:

- هل تعرفين أن (وليد) تزوج مرتين قبل زواجه من شقيقتك؟!.

اتسعت عيناي استغرابا.. فأكمل قائلا:

- نعم.. لقد أخفى ذلك عن الجميع كي لا يثير الشكوك.. ويبدو أن أفراد أسرته أنفسهم لا يعرفون بأمر زيجاته السابقة!!.

قلت بحيرة:

- إنها صدمة بالنسبة لي بالفعل.. لكن.. أنا لا أفهم.. ما علاقة زيجاته السابقة بشركة التأمين وبوفاة شقيقتي؟!.

رد موضحا:

---

* يجهل الكثيرون أن بوليصات التأمين على الحياة تتوفر في (الكويت) وفي معظم الدول العربية.. وبشروط لا تختلف كثيرا عن بوليصات التأمين في الدول الغربية.

- (وليد) تزوج مرتين في العام الماضي أثناء سفره لأوروبا.. وفي المرتين اشترى بوليصة تأمين على حياة كل زوجة.. لتموت كل زوجة أيضا بعد عقد القران بأسابيع قليلة دون سبب واضح!!!.. تماما كما حدث مع زوجته الثالثة (شقيقتك).

قلت بصوت متحشرج:

- هل تعني أن (وليد) قتل كل فتاة تزوجها؟!!.

هز كتفيه كناية عن جهله ومنطقية سؤالي بنفس الوقت.. فأكملت بحقد بالغ:

- هذا اللعين.. هل يعقل أن تمر جرائمه على رجال الشرطة مرور الكرام؟!!.

رد بأسف:

- لا يوجد لدينا دليل واحد على أن زوجاته تعرضن للقتل.. هذه هي المشكلة.. وكما تعلمين فإن المتهم بريء حتى تثبت إدانته.. قاعدة قانونية يعرفها حتى الأطفال.. لكنا نعلم جميعا أيضا أن الصدف لا يمكن أن تصل لهذا الحد!!.

سكت طويلا أمام كلامه هذا.. ليستطرد:

- دعيني أخبرك بشيء بديهي لكنه لا يطرأ عادة في أذهان الناس.. شركات التأمين لا تتردد أبدا ببيع بوليصة التأمين على حياة الفرد إذا استوفى الشروط.. أهمها أن يكون بصحة جيدة ولا يعاني من أي مرض قد يهدد حياته.. وهذه البوليصة تلغى في حالة انتحار صاحبها أو قتله بواسطة المستفيد.. لذا تعتبر بوليصات التأمين على الحياة عملية مربحة لشركات التأمين.. لكن.. هناك ثغرة ما.. شيئا يفعله زوج شقيقتك ولا نعرف ماهيته.

سألته باستغراب:

- لماذا لا تستدعيه الشرطة للتحقيق معه على الأقل؟!.. ربما يتوصلون إلى شيء إذا وضعوه تحت الضغط!!.

رد بحنق:

- لا يحق لهم أصلا وضعه تحت الضغط كما تقولين.. ولا يحق لهم حتى استدعاءه طالما تم فحص جثمان شقيقتك بدقة وتبين أن الوفاة طبيعية.. تماما كما تم فحص جثمان زوجتيه السابقتين من قبل الشرطة في أوروبا.

قلت بحزم:

- ربما علي أن أواجهه إذا بكل ما قلته لي.

رد بسخرية مريرة:

- وهل سيعترف لك لو فعلت؟!.. من الواضح أنه ابتكر طريقة جديدة للتكسب على أرواح البريئات من ضحاياه.. ويدرك جيدا أن القانون عاجز عن كشف أمره.. لهذا يتعامل مع الجميع بثقة تثير أعصابي كثيرا.

سكت وأنا أنظر إلى الفراغ.. ثم قلت:

- إنني أتساءل.. لماذا تزوج هذه المرة في (الكويت)؟!.. لماذا لم يتزوج بفتاة أوروبية أخرى كما فعل في المرتين السابقتين؟!.. أليس من المفترض أن يكون هذا أفضل له كي لا يلفت انتباه أحد؟!.

قال مصححا:

- لأن شركات التأمين الأوروبية عملاقة ولها أفرع في أماكن عديدة.. كما أنها تعمل بدقة وحذر قبل منح أي فرد بوليصة تأمين على الحياة.. وقد تتبعوا ما حدث

في الزيجتين ووجدوا أمرا مريبا بشأنهما.. فامتنعوا عن التعامل مع (وليد) وأخبروه بذلك رسميا.. ربما هذا ما جعله يمارس لعبته الحقيرة في (الكويت).. ومن يدري؟!.. قد يفعلها في دولة خليجية أو عربية في المرة القادمة!!.

سألته بحذر:

- كيف تعرف كل هذا؟!.

قال ببساطة:

- ليس الأمر مستحيلا كما تظنين.. فقد قمنا بتقصي ماضيه والتواصل مع شركات التأمين في الدول التي سافر إليها مؤخرا كوننا نملك بياناته الرسمية كاملة.. وقد واجهته بما عرفت بالطبع.. لكنه غضب وانفجر ووعدني بمقاضاة الشركة لو تدخلنا بحياته الشخصية.. وأن علينا فقط تحمل المسؤولية ومنحه مبلغ البوليصة باعتباره الوريث.

شعرت بقلة الحيلة.. فسألت الموظف بشيء من الحدة:

- واضح أن زوج شقيقتي هزم رجال الشرطة وشركات التأمين.. فلماذا اتصلت بي وطلبت لقائي أصلا؟!.. ما الذي سأستطيع فعله؟!.

قال بيأس:

- صدقيني لا أعرف.. ظننت أن عائلة زوجته قد تكون الأمل الأخير لكشف أمره قبل أن تتكبد شركتنا خسارة فادحة بمنحه مبلغ التأمين الذي لا يستحقه.. فلا عذر لنا بعدم التسديد طالما التقرير الجنائي أثبت أن الوفاة طبيعية!!!.. دعك من أرواح البريئات التي أزهقها.. فمن يدري.. قد يتزوج للمرة الرابعة ويزهق روحا أخرى.. نريد أن نوقفه عند حده.

سكت طويلا دون أن أرد.. ثم نهضت من مكاني ببطء منهية هذا اللقاء وأنا أغمغم:

- الموضوع يحتاج إلى تفكير.. سأتواصل معك قريبا.

غمغم بدوره بكلمات الوداع.. لأستدير وأعود إلى البيت.. حيث فضلت إخفاء الأمر عن شقيقاتي وأمي كي لا أشعرهن بفقدان الأمان الذي أشعر به.. المشكلة في مجتمعاتنا العربية

أنهم يبرمجون عقل البنت منذ طفولتها على أنها تحتاج الرجل دوما ولن تكون قادرة على تحمل المسؤوليات وحدها.. فلا تهمهم القيود على الأنثى.. ولا يهمهم ظلمها.. المهم أن تحيا تقاليدهم!!.. ورغم علمي بخطأ الاعتقاد.. إلا أنه من العسير التخلص منه بعد أن تم غرسه في عقولنا منذ الصغر.. هذا الشعور ينغص حياة أسرتنا كثيرا.. فلا أب ولا أخ.. دعكم من أنني شعرت أن زوج شقيقتي رجل خارق يعجز الجميع عن مواجهته رغم أنه ليس ذا سلطة أو جاه.. مما زاد من شعوري بالعجز.. وكأنني نملة بمواجهة ديناصور.

لكن.. الديناصورات هلكت.. والنمل بقى!!.. نعم.. كان هناك أيضا ذلك النداء في أعماقي الذي يطلب مني الثأر لشقيقتي كي لا يذهب دمها هدرا كوني واثقة تماما الآن أن زوجها قتلها بطريقة مجهولة.. أشعر أن هذا اللعين أخذ من أسرتنا ما يريد ثم ركلنا بقدمه بعيدا.. لا توجد طريقة أكثر لباقة لوصف ما فعله.. خاصة بعد ابتعاده عنا منذ انتهاء العزاء.

وفي خضم لحظات الغضب والاستغراب مما عرفت للتو.. واتتني فكرة غريبة وجدت أن لا ضرر منها.. أن أزور (وليد) في شقته وأواجهه بما عرفته!!!.. نعم.. لا توجد حلول أخرى..

فربما سأخرج بنتيجة ما.

لذا.. وفي اليوم التالي.. قررت طرق الحديد ساخنا.. إذ خرجت من البيت في الثامنة مساء.. واتجهت إلى شقة شقيقتي في منطقة (السلام) آملة ألا يكون (وليد) قد انتقل منها أو عاد لبيت عائلته.. لكني وجدت سيارته هناك لحسن الحظ.. فركنت سيارتي وصعدت إلى شقته وأنا أردد في قرارة نفسي وبشيء من البغض:

- أي غموض تحيط به نفسك يا (وليد)؟!!.

أضرب الجرس بترقب.. لا أسمع أي صوت.. أضرب الجرس مرة ثانية.. لأسمع أخيرا صوته الهادئ يسأل عن هوية الزائر.. تنحنحت لأجيب لكني لم أجد الوقت.. إذ شعرت بمن ينظر إليّ عبر العين السحرية ثم يفتح الباب بملامح جامدة.

قلت بتوتر:

- مرحبا (وليد).. كيف حالك؟!.. المعذرة على هذه الزيارة.. والدتي تسأل عنك.. لماذا لا تزورها؟!.. ولماذا غيرت رقم هاتفك؟!.. إنك أحد أفراد عائلتنا في النهاية.. فلماذا تحاول تجنبنا بهذه الطريقة الغريبة؟!.

أجابني بشيء من البرود:

- إنني مشغول كثيرا هذه الأيام.. ثم أن الناس تغير أرقام هواتفها طوال الوقت.. ما المانع؟!.

جواب سخيف وبرود لا يوجد ما يبرره.. لا بأس.. تجاهلت كلامه لأقول بابتسامة عريضة:

- هل أستطيع الدخول؟!.. أريد التحدث معك حول أمر ما.

أفسح لي المجال للدخول وهو يقول باقتضاب:

- المعذرة لكن زيارتك لي تثير الأقاويل.. سيفهم الناس الأمر بطريقة خاطئة.

لم ألتفت لكلامه.. بل جلست في غرفة المعيشة وقلت صراحة دون مقدمات:

- لقد زارني موظف من شركة (.....) للتأمين.. و.....

قاطعني بحدة:

- هؤلاء الحمقى.. لماذا يتدخلون في حياتي؟!.. أنا لم أرتكب أي جريمة.. إنها حالة وفاة طبيعية كما أكد تقرير الطب الشرعي.

سألته مباشرة ودون تعقيب على كلامه:

- لماذا لم تخبرنا أنك كنت متزوجا مرتين قبل شقيقتي؟!.. ثلاثة زيجات تنتهي كلها بوفاة الزوجات بطريقة صادمة مفاجِئة؟!.. هذا غير معقول.. وقد أقبل بهذه الصدفة الخارقة.. لكن أن تشتري بوليصة تأمين على حياة كل منهن بعد الزواج بأيام قليلة؟!!.. يبدو لي وكأنك وقعت على صيد ثمين لاستغلال شركات التأمين وقتل الضحايا بطريقة لا يمكن كشفها!!.

حسنا.. من الواضح أنه غضب جدا لأن موظف شركة التأمين أخبرني بتلك المعلومة.. إذ تجهم وجهه.. ونظر إلي بذهول عاجزا عن الرد.. لكنه استعاد توازنه سريعا وانفعل فجأة وكأنه ينتظر مني أي زلّة كي ينهي علاقته بنا إلى الأبد.. فنهض غاضبا وراح يتحدث عن وقاحتي وأنه لا يقبل اتهاما مبطّنا كهذا.. ثم أشار بيده إلى الباب.. إنه يطردني صراحة!!!.

المؤلم أن عصبيته أخافتني رغم يقيني أنها مصطنعة.. هذا متوقع.. فحين يرغب المرء بالرحيل يبحث عن أخطائك.. ومن يبحث عن أخطائك.. سيجدها حتى لو لم تخطئ!!.. لذا لوحت بيدي مهدئة ونهضت لأخرج من شقته وأغلق بابها خلفي

بهدوء.. أسير تجاه سيارتي وجسدي يرتجف دون توقف.. هذا اللعين.. هذا اللعين قتل شقيقتي.. لقد تأكدت الآن بعد لقائي به وتصرفه بهذه الطريقة المستفزة.. لقد بت أكرهه إلى درجة أن وجوده معي في نفس الكوكب يضايقني.

الغريب أننا تعلمنا دوما في القصص البوليسية أن نحاول معرفة هوية القاتل.. أما هنا فنحن نعرف القاتل جيدا.. إلا أننا نجهل طريقة ارتكابه لجرائمه!!!.. وهذا سبب براءته.. إلا لو.. إلا لو كشفت الأمر بنفسي.. ولكن كيف إذا كانت الشرطة نفسها فشلت في ذلك؟!.

وصلت إلى البيت وذهبت إلى غرفتي مباشرة محاولة التفكير بما حدث.. وقت طويل قضيته على فراشي أحدق بالسقف بشرود.. عشرات الأفكار تأتي وتذهب.. مواقف كثيرة تتداخل في رأسي.. ثم.. طرأت في ذهني فكرة غريبة للغاية.. لقد تذكرت أن أحدا لم يفتش شقة (وليد) حتى الآن.. نعم.. ربما يخبئ شيئا هناك سيكشف لنا أسراره!!!.. القانون يحميه لعدم وجود شبهة جنائية تستوجب التفتيش كما علمنا.. أما أنا فلا أحتاج أي تصاريح.. لكن هل أجرؤ على فعلها؟!.. هل أجرؤ على التسلل لشقته أثناء غيابه وتفتيشها؟!.

ظللت طوال يومين أفكر بالأمر.. لم يكن قرار كهذا سهلا على فتاة مثلي.. لكني كنت أرغب بشدة بالانتقام لشقيقتي.. شعرت أن موقفي من تلك القضية سيحدد إن كنت سأعيش بقية حياتي كفتاة قوية وقفت بوجه الظلم.. أم مجرد خاضعة مستسلمة.. وبسبب مشاعري المتضاربة هذه.. قررت إخبار شقيقتي التي تصغرني بعامين بالقصة كاملة علها تساعدني بشكل أو بآخر.. بالطبع تخلل الحديث شهقات ودموع وغضب وألم.. لكنها في النهاية اتفقت معي على عدم السكوت.

وحين بدأنا نفكر بطريقة لدخول شقة هذا الوغد في غيابه وتفتيشها.. برقت عينا شقيقتي فجأة وهي تقول بانتصار:

- هل تذكرين كيف كانت المرحومة منشغلة مع زوجها بالتسوق وشراء مستلزمات الشقة قبل حفل الزفاف بأيام قليلة؟!.. هل تذكرين حين منحتنا نسخة من مفتاح شقتها لنأتي بأغراضها ونقوم بترتيبها أثناء غيابها المستمر؟!.. حسنا.. استعدي للمفاجأة.. لقد نسيت أن أعيد إليها النسخة!!!.. لنأمل فقط ألا يكون ذلك الوغد قد غير قفل الشقة.

خفق قلبي بعنف أمام كلامها.. ورحنا ننظر إلى بعضنا وابتسامتنا تتسع.. لقد هبط الحل علينا من السماء.. لنبدأ مباشرة نعد العدة ونخطط لدخول شقة (وليد) أثناء غيابه.. فاتفقنا أن أدخل أنا شقته.. في حين تنتظر شقيقتي في الخارج لتراقب المكان على أن تظل متواصلة معي هاتفيا.. وحين ترى سيارته قادمة ستحذرني كي أخرج بسرعة.. ربما سيراني أثناء خروجي من البوابة الخارجية.. لكني سأخبره أنني كنت أرغب بزيارته على أمل إصلاح سوء الفهم الذي حصل في المرة السابقة.. سأدعي أنني طرقت الباب كثيرا دون رد فعدت أدراجي.. لن يعلم أبدا أنني اقتحمت شقته وخرجت منها.. خطة بسيطة لا تحتاج ذكاء.

في اليوم الموعود.. اليوم الذي ترددنا فيه مئة مرة قبل تنفيذ خطتنا.. اتجهنا إلى شقة (وليد) قبل فترة المغرب بقليل.. حيث لاحظنا وجود سيارته في الخارج.. فركنت سيارتي بمكان بعيد نسبيا يسمح لنا بالمراقبة.. وجلسنا ننتظر خروجه لفترة تجاوزت الساعتين تقريبا تخللها حديثا شائكا عن الرجال والزواج وبعض الأمور العائلية الأخرى.. آملين ألا يقضي الوغد يومه كله في الشقة كي لا ننتظر عبثا فنضطر للمجيء في وقت آخر.

لكن.. ها هو يخرج من شقته متأنقا متجها إلى سيارته.. فتحفزت حواسنا.. لحسن الحظ أن سيارتي تقليدية بماركتها ولونها ولن تلفت انتباهه على الأرجح.. لذا رحنا ننظر إليه بترقب وقد انكمشنا في مكاننا كي لا ينتبه إلينا أثناء مروره.. إلى أن غادر أخيرا.. عندها فقط ترجلت من السيارة وبدأت أسير بثبات إلى ذلك البيت وإلى الطابق الثاني حيث شقته.. أعترف أنني شعرت برعب جعلني أكاد أرمي كل شيء خلفي وأقبل بالقدَر وأعود أدراجي.. فأنا مجرد فتاة.. وسأدخل شقة قاتل.. و.. اهتز جسدي بعنف بسبب هاتفي الذي رن فجأة وأنا أوشك أن أدخل المفتاح في القفل.. إنها شقيقتي.. أجيب عليها بحدة وبصوت خافت:

- ماذا تريدين؟!.

فترد بتوتر:

- أليس من المفترض أن أتصل بك ونظل معا على الخط كي أقوم بإنذارك حال عودته؟!.

بالفعل.. لقد نسيت.. ليتني جلبت سماعة الهاتف السلكية كي أحرر كلتا يدي واستخدمهما بتفتيش شقة هذا الوغد..

مهلا.. هل يقيم (وليد) وحيدا؟!.. لم أفكر بهذا سوى الآن.. أحاول أن أتذكر.. على الأرجح نعم.. فلم يجد الوقت ليستقدم خادمة بسبب وفاة شقيقتي في بداية زواجهما كما علمتم.. لكني طرقت الباب أكثر من مرة احتياطا.. لا أحد يرد.. أمسك بالمفتاح بيد مرتجفة.. أدخله في القفل.. ترى.. هل أبدل قفل الباب؟!.. يا إلهي.. لم أظن الأمر سيكون بهذه البساطة!!!.. القفل يستجيب لي.. أدفع الباب برفق.. إضاءة الشارع الخارجية تتسلل بأريحية إلى الشقة بفضل النافذة الكبيرة الموجودة في الصالة.. ها أنا أدخل وأغلق الباب خلفي.. شقيقتي تسألني عبر الهاتف إن كانت الأمور على ما يرام فأجيب بالإيجاب بصوت لاهث وأطلب منها أن تتحدث إلي لتشعرني بالصحبة الآدمية.

فبدأت تختلق حديثا من لا شيء لم أسمع كلمة واحدة منه.. كل تركيزي ظل منصبا على البحث عن أي شيء مريب.. أتجه تلقائيا إلى غرفة النوم أولا.. أضيء الغرفة.. وأفتح الدولاب والأدراج.. لا أجد شيئا يثير الريبة.. ثم.. أقرر الذهاب إلى غرفة المكتب.. شقيقتي ما تزال تتحدث بصوت بدا قلقا للغاية وهي تسألني عن جدوى ما نفعله أصلا.. فأخبرها صراحة -وبقلق مماثل- أنني لا أعرف ما أبحث عنه حتى الآن.

أحاول أن أسيطر على أعصابي وأضيء غرفة المكتب.. عيناي تجريان مسحا شاملا لكل ركن.. و.. تسمرت في مكاني فجأة حين لمحت ذلك الشيء الملقى على المكتب بالقرب من جهاز الكمبيوتر.. إنه طوق!!!.. يشبه إلى حد كبير الطوق القماشي الذي يلبسه لاعبو التنس.. الفارق هنا أن الطوق من الجلد ويمتلئ بالدوائر الكهربائية.. اتجهت ناحيته مستغربة وأمسكت به لأتفحصه.. هناك سلك يخرج منه ويتصل بجهاز الكمبيوتر.. ما الذي يفعله هذا الطوق بالضبط؟!.. إنه لا يشبه أي جهاز أعرفه.

انتابني فضول شديد فوضعت الهاتف على المكتب وقد نسيت واجب الحذر وأن شقيقتي تراقب الطريق من أجلي ويجب أن أكون معها لحظة بلحظة.. ثم ارتديت الطوق ووضعته حول رأسي.. والآن ماذا؟!.. لا شيء.. لا بد أن هناك زر تشغيل.. أنزع الطوق وأقلبه بيدي باحثة عن زر التشغيل لكني لا أعثر عليه.. فأعيد الطوق مرة أخرى حول رأسي.. قد يكون الزر في جهاز الكمبيوتر نفسه.

أمسكت الفأرة وحركتها ببطء ليزول حافظ الشاشة وتظهر أمامي الشاشة بوضوح.. لحسن الحظ لا توجد كلمة سرية..

أرى ملفات كثيرة في ذاكرة الكمبيوتر.. استغرقت بعض الوقت وأنا أمر عليها واحدا تلو الآخر دون أن أجد شيئا يستحق الاهتمام.. ما هذا؟!.. ملف (المشاعر)؟!!.. ما الذي يعنيه؟!.. نقرت على الفأرة لأفتح الملف.. هناك ملفات داخلية عديدة بأسماء غريبة للغاية.. (مشاعر الاحتضار).. (مشاعر الاختناق).. (مشاعر النزيف الداخلي).. (مشاعر السكتة القلبية).. تقريبا كل أنواع المشاعر الإنسانية الخاصة بالأمراض.. هناك أيضا (مشاعر الاسترخاء).. هذا الاسم لا يبدو مريبا!!.

ضغطت على ملف (مشاعر الاسترخاء) هذا وانتظرت ثوان قليلة.. لأشعر بالخدر يتسرب إلى كل ذرات جسدي.. حتى فقدت إحساسي بالعالم وأغمضت عيني مجبرة.. هناك صوت معين يتدفق إلى الطوق الذي أرتديه.. صوت لا يذهب إلى مسامعي.. بل إلى رأسي مباشرة.. هل هو صوت أم ذبذبات تؤثر على الدماغ؟!.. لا أعلم.. لكني أحلق الآن في سماء صافية لها زرقة البحر ونقاء البلور.. إنه الشعور بالنشوة التي يشعر بها المدمن على الأرجح.. ولكن دون تعاطي أي مخدرات.. لقد توقف عقلي عن التفكير.. وبت لا أريد سوى الاستمتاع بتلك اللحظات.

كم استمر هذا الموقف؟!.. أكثر من نصف الساعة.. قبل أن

ينتهي كل شيء لأستيقظ من غفوتي الغريبة هذه وقد انهار حاجز الخوف فجأة بعد أن فهمت كيف يرتكب (وليد) جرائمه!!!.. الأمر واضح لا يحتاج إلى ذكاء.. فأنا أعرف أن أدمغتنا تنتج شحنات كهربائية باستمرار.. ويبدو أن (وليد) قرأ نشاط الشحنات الكهربائية التي ينتجها الدماغ أوقات الإحساس بالألم.. فتمكن من تحويلها إلى ملف رقمي (Digital) على جهاز الكمبيوتر.. ليتمكن بعدها من القيام بإجراء عكسي.. أن ينقل المشاعر التي يريدها إلى دماغ أي إنسان -من خلال الطوق- عبر ذبذبات صوتية معينة!!.. فالجسد عموما يصدق ما يخبره به الدماغ.. حتى لو كان ما يخبره به الدماغ غير صحيح*!!!.. لهذا لم يعثر الأطباء على أي سبب عضوي لوفاة شقيقتي الكبرى.. لأن الشعور بالسكتة القلبية هو الذي قتلها وليست السكتة نفسها كونها لم تحدث أصلا**.. لقد جربت على نفسي (الشعور بالاسترخاء) فكانت من أروع لحظات حياتي.. ماذا لو جربت (الشعور بالسكتة القلبية) مثلا؟!.. كنت

---

* حقيقة بالطبع وقد تطرق المؤلف إلى هذه النقطة سابقا في إصداره (حالات نادرة).

** يجب التأكيد هنا أن الشعور بالألم ليس سوى نظام تحذيرى من المخ لجسم الإنسان.. فإذا أمسكت بقضيب حديدي ساخن مثلا دون أن تنتبه لسخونته.. ستشعر بالألم في يدك التى أمسكت القضيب وسرعان ما ستتركه.. لأن أعصاب اليد تعطي إشارة سريعة جدا للمخ عبر النخاع الشوكي تخبره أن الجسم معرض للتلف فى منطقة اليد.. فيرد المخ بإشارة سريعة للعضلات كي تحرك اليد بعيدا عن الخطر بأسرع ما يمكن.. أي أن الألم ليس حقيقة فى اليد التي لا تمتلك إحساسا ذاتيا بطبيعة الحال.. بل بالمخ.. وقس على هذا سائر الجسد.

سأموت حينها بالتأكيد؟!.. وسيبحث الأطباء فيما بعد عن مسبب لموتي المفاجئ لكنهم لن يعثروا عليه أبدا.. وسيكون موتي لغزا.. تماما كما حدث مع ضحايا هذا الوغد!!!.

طرحت أفكاري جانبا.. وأمسكت بسماعة الهاتف للتواصل مع شقيقتي.. وإذ بها تصرخ بجنون تسألني عن سبب اختفائي وأنها كادت أن تتصل بالشرطة.. طمأنتها بوجوم أن الأمور بخير وأن الصورة بدأت تتضح.. وشرحت لها بكلمات سريعة ما رأيته وعشته للتو.. سأتجاوز لحظات المفاجأة والصدمة التي اعترتها وهي تستمع إلي.. لأتجه إلى أهم ما قالته:

- لكننا أمام مشكلة حقيقية هنا!!.. رجال الشرطة لن يصدقوا قصة غريبة كهذه ولن يستخرجوا إذنا من النيابة لتفتيش الشقة بناء على كلامك!!.. كما أنه يستطيع إخفاء الطوق أو حتى التخلص منه ومحو كل برامج الكمبيوتر.. ثم إنك لن تستطيعي إخبارهم أصلا أنك دخلت شقة (وليد) دون علمه.. فهذه جريمة بحد ذاتها.

قلت مدافعة:

- لقد دخلت شقة شقيقتي الراحلة بالمفتاح.. أنا لم أقتحم المكان كما تقولين.

ردت بقلق:

- لست متأكدة إن كان لك الحق بذلك.. سيجد عشرات الاتهامات ليلقيها عليك.. بل وقد يدعي أنه فقد مبلغا من المال أيضا ويتهمك بالسرقة.. صدقيني.. سنفتح على أنفسنا أبواب الجحيم.

قلت بانتصار:

- ماذا لو أخذت الطوق معي إلى الشرطة كدليل و...

ابتلعت عبارتي حين تذكرت أن الطوق لن يعني شيئا.. إذ يجب أن يكون متصلا بجهاز الكمبيوتر الذي يحمل برامج (المشاعر) هذه.. هل أسرق جهاز الكمبيوتر نفسه؟!.. لا يبدو الحل مجديا.. قد ينكر أنه جهازه أصلا.. وحتى لو قمت بتحميل الملفات على ذاكرة متنقلة (Flash Memory).. لن أتمكن أيضا من إثبات أنني أخذتها من جهازه هو تحديدا!!.. ماذا سنفعل إذا؟!.. القصة بأكملها غير منطقية وستدور في أروقة القضاء لفترة طويلة قد تمتد لسنوات.. إنني لا أملك دليلا واضحا قويا للقبض على هذا الوغد.. أحاول أن أفكر بحل مناسب.. لكن أفكاري تجمدت على صوت صراخ شقيقتي:

- إنه قادم.. إنه قادم أخرجي بسرعة أرجوك.. أخرجي بسرعة!!!.

نظرت حولي بضياع.. قلبي ترك مكانه وراح يتواثب في صدري رعبا وقد شعرت أن لا قيمة لمغامرتي لو خرجت من الشقة الآن.. إلا إذا!!!.. هل من الممكن أن تنجح تلك الخطة الجنونية التي طرقت باب عقلي فجأة؟!.. من الغريب بالفعل أن تنتاب المرء فكرة كهذه في لحظات الرعب التي يفترض أن يفقد فيها كل ذرّة من عقله.

أنهيت المكالمة الهاتفية دون إنذار.. وأرسلت رسالة صوتية إلى شقيقتي أخبرها أنني مختبئة في الشقة لسبب ستعرفه لاحقا.. وأن عليها أن تنتظرني كي أعثر على وسيلة للتسلل خارجا.. ثم وضعت هاتفي على زر الصامت خوفا أن يتصل أحد ويفضح وجودي.. وهرعت لأطفئ الإضاءة وأتجه إلى غرفة النوم كي أختبئ تحت السرير!!.

(وليد) يفتح باب الشقة بعد لحظات قليلة.. آمل ألا أكون قد نسيت شيئا يكشف وجودي.. لا أظن.. يسير بخطوات سريعة ناحية غرفة النوم.. أرى قدميه وهو يقف في مكانه يستبدل

ثيابه على ما يبدو.. ثم يستلقي على فراشه لمدة ليست بالقصيرة.. إنه يعبث في هاتفه النقال على ما أظن.. أحبس أنفاسي وأحاول أن أهدأ قليلا لأتمكن من تنظيم أفكاري رغم صعوبة الموقف.. أفكر بما حدث قبل قليل.. ترى.. هل اخترع (وليد) الجهاز بنفسه أم اشتراه؟!.. مستحيل.. أجهزة كهذه لا تباع في أي مكان.. إنني أستذكر أشياء كثيرة الآن.. فـ(وليد) مهندس مختص بهندسة التقنيات الطبية*.. وقد تخرج من (الولايات المتحدة الأمريكية) منذ بضع سنوات.. يبدو أنه يملك من الذكاء والنبوغ ما جعله يبتكر جهازا كهذا.. لكنه يستغله في الإجرام مع الأسف.

و.. أحدهم يضرب الجرس!!.. فينهض (وليد) بسرعة من على السرير ويخرج متجها إلى غرفة المعيشة.. هل هي شقيقتي؟!..

---

* هندسة التقنيات الطبية أو الهندسة الطبية الحيوية (Biomedical Engineering) هو التخصص الذي يعتبر حلقة الوصل بين الطب وعلوم الهندسة.. ويختص بتصميم وصناعة الأجهزة الطبية التي يحتاجها المريض في المستشفى.. ويعتبر هذا التخصص من أحدث العلوم الهندسية التي نشأت مع تطور الطب الحديث نظرا لوجود حاجة ماسة لتطوير الأجهزة والمعدات الطبية باستمرار بما يخدم علاج المرضى.. ففي السابق كان لا بد من تدخل المختصين في مجالات أخرى غير الطب لتصميم هذه الأجهزة.. مثل المهندس الكهربائي والميكانيكي ومهندس الكمبيوتر.. وغيرهم.. وكان على هؤلاء جميعا الإلمام بالعلوم الطبية وتشريح الجسم البشري لتسخير معرفتهم واختصاصهم بما يطور هذه الأجهزة.. وهو أمر بالغ الصعوبة بالطبع.. وبالتالي ظهرت الحاجة إلى هذا الفرع الجديد من فروع الهندسة الذي يلم جزئياً بكل هذه الاختصاصات من جهة.. ويستطيع أن يتعامل مع الأطباء من جهة أخرى.

مستحيل.. أسمعه يلقي تحية مقتضبة.. ثم يغلق الباب وصوت أكياس تفتح وأوراق تتمزق.. رائحة طعام.. إنها وجبة العشاء على ما يبدو.. إذ راح يتناولها وهو يشاهد إحدى القنوات التي تبث فيلما أجنبيا.. أنظر إلى شاشة هاتفي وأجد عشرات الرسائل من شقيقتي تسألني بقلق إن كنت بخير.. فأخبرها إنني ما زلت مختبئة ويجب أن تمنحني بعض الوقت لأفكر بما يجب فعله.. وأنني سأكون بخير طالما لم يكشف هذا الوغد وجودي حتى الآن.

نصف ساعة.. أو أكثر قليلا.. قبل أن يغلق جهاز التلفاز.. ثم أسمعه يدخل الحمام ليغتسل.. ويخرج بعد لحظات.. ليسود المكان هدوء تام!!!.. 5 دقائق.. 10 دقائق.. لماذا لا أسمع صوتا لهذا الوغد؟!.. هل يرتدي الطوق ويجرب مشاعر الاسترخاء مثلا؟!.. لا أجد سببا آخر لذلك الهدوء المريب.. هل أنفذ الفكرة الجنونية التي طرأت بذهني قبل قليل وجعلتني أتراجع عن الهروب من هنا؟!.. لا أظن أنني أملك خيارات أخرى.. إنها الحل الوحيد لكل شيء.. يجب أن أنفذ خطتي.. إنها فرصة العمر.. فنحن نحلم دوما بفرص تغير حياتنا رأسا على عقب.. وعندما نعثر عليها.. ترتجف أقدامنا ونتردد.. وكأن

التغيير مجرد حلم لا نجرؤ على تحقيقه.

في النهاية.. حسمت أمري.. وزحفت لأخرج من تحت السرير ومشيت بخطوات مرتجفة.. آمل أن أجد (وليد) جالسا أمام شاشة الكمبيوتر مرتديا الطوق غائبا عن عالمنا.. وليس في الصالة يعبث في هاتفه مثلا.. حينها لا أعرف كيف سأبرر له وجودي في شقته.. الإدرينالين يتدفق في دمي وأنا أمر على غرفة المكتب أثناء خروجي.. أختلس النظر وأنا عند عتبة الباب.. لأجده يجلس مقابلا لي.. اقشعر بدني للحظة.. لكني انتبهت أنه مغمض العينين.. ولو فتحهما سيراني مباشرة!!!.. الطوق حول رأسه.. وملامحه توحي أنه انفصل عن العالم.. ألمح ابتسامة رضا استفزتني كثيرا.. أستطيع أن أمحو تلك الابتسامة إلى الأبد.. إنها الفرصة الوحيدة ولن تتكرر.. نعم.. أعتقد أن بعضكم خمن ما سأفعله!!!.

أدخل المكتب وأسير ناحية (وليد) دون أن يشعر بي.. أقف خلفه بثبات وأنظر إلى الشاشة.. إنه برنامج (الشعور بالاسترخاء) الذي جربته بنفسي منذ قليل.. لا يزال هناك متسع من الوقت على نهاية البرنامج كما يشير العداد الزمني.. رائع.. وضعت يدي المرتجفة على الفأرة.. ونقلت السهم إلى

برنامج (الشعور بالاختناق).. فهو أول ما وقعت عليه عيناي.. ثم نقرت على الفأرة وهرعت لأقف أمام المكتب بمواجهة (وليد).. أحدق به بقلق.. أكاد أقسم أن قلبي سيتوقف في أي لحظة من شدة الخوف.. هل يعمل البرنامج؟!.. أنا لا أرى أي تغيير.. مهلا.. وجهه يزرق.. يبدو أن الجهاز يعطي إشارات الألم للدماغ.. وجهه يزداد زرقة بتسارع رهيب.. إلى أن سقط ذقنه على صدره وهمدت حركته.

لقد ارتكبت جريمة قتل!!!.. لكني قتلت قاتلا.. عموما لا وقت الآن للتفكير بكل هذا.. يجب أن أهرب.. هل أترك الأمور كما هي عليه؟!.. هذا أفضل.. لن يفهم رجال الشرطة سبب موته حتى لو رأوا الطوق متصلا برأسه.. أو ربما سيفهمون كل شيء ويظنون أنه أراد تجربة الجهاز على نفسه.

هرعت لأخرج من الشقة آملة ألا يراني أحد.. أركض إلى السيارة أمام نظرات شقيقتي المذعورة وأنا غارقة في العرق رغم الأجواء المعتدلة.. وما إن ركبت.. حتى أفرغت المسكينة كل انفعالاتها وقلقها علي.. إذ انهمرت الأسئلة على رأسي دون توقف.. لكني أخبرتها أن الأمور بخير.. وأن علينا الابتعاد سريعا.

راحت تقود السيارة مبتعدة وأنا أتحدث بكلمات سريعة عما حدث وبعينين مغرورقتين بالدموع بسبب لحظات الرعب التي عشتها.. ثم.. طلبت منها التوقف فجأة على حافة الطريق بعد أن خرجنا من المنطقة بأكملها.. وما إن فعلَت.. حتى انفجرت باكية مفرغة كل انفعالاتي التي حبستها في نفسي طوال الساعات العصيبة الماضية.. فالضحك أفضل علاج كما يقال دوما.. لكن أحيانا يكون البكاء هو العلاج.. تماما كما هو الحال معي الآن.. فاحتضنتني شقيقتي بالمقابل وغرقت معي في بكاء عنيف وبمشهد هستيري يذيب القلوب!!!.

كانت ساعات سوداء لكنها عدت على خير.. لقد ثأرت لشقيقتي الكبرى رحمها الله.. وحققت ما عجز عنه رجال الشرطة وشركات التأمين.. لأول مرة في حياتي أشعر أن عقدة عدم وجود رجل في أسرتنا انفكت إلى الأبد.. وأنه ليس علي أن أكون رجلا كي أحصل على حقي وحق عائلتي.

ولا أنسى وقع المفاجأة على الجميع أن تموت شقيقتي الكبرى دون سبب.. ليلحقها زوجها بعد فترة قصيرة ويموت بنفس الطريقة الغامضة.. فهم لا يعرفون الحقيقة.. ولن أخبرهم بها أبدا.. لأن أحدا لن يصدقني أولا.. ولأنني أنا من قتلته

ثانيا.. وعموما الحقيقة غير مهمة.. المهم ما يصدقه الناس.. كنت فقط أتبادل النظرات مع شقيقتي بين فترة وأخرى كوننا نعرف شيئا يجهله الجميع.. وقد اتفقت معها أن يبقى السر بيننا إلى الأبد.

وقد كان لا بد من التصرف على طبيعتي وأن أقوم بتقديم واجب العزاء في الأيام التالية.. فهذا المجرم زوج شقيقتي الكبرى في النهاية.. وعدم حضورنا للعزاء قد يثير الشكوك.. لا أنكر أنني تألمت كثيرا حين رأيت بكاء والدته وشقيقاته.. لكني ظللت أردد لنفسي أن موته كان حتميا.. فنحن نتحدث عن قاتل لا أحد يعرف متى كان سيكتفي بجرائمه هذه!!.. لا شك أن رصيده البنكي أصبح متخما بالمال الآن.. عموما هذا آخر اهتماماتي.

أعترف أن تلك التجربة الرهيبة جعلتني أكثر قوة وصلابة.. فلا يمكن أن تحارب القبح دون أن تتغير.. بل ولاحظ أفراد العائلة التغيير السريع الذي طرأ على حياتي دون أن يفهم أحد السبب.. كما تعلمت أيضا عبرة مهمة.. وهي أننا نقابل دوما الكثير من الأقنعة.. والقليل من الوجوه.. لكني أزلت قناع (وليد) وعرفت وجهه الحقيقي.

تتبقى بعض الأسئلة التي أجهل إجابتها.. فلماذا لم يرتكب (وليد) جريمته قبل حفل الزفاف وقبل أن يتكفل بمصاريف تجهيز الشقة؟!!.. ربما لأنه كان يرغب بالأساس أن يستقر في الشقة ليمارس إجرامه بعيدا عن أعين الناس.. فمن الصعب الاحتفاظ بسر كهذا لو كان مقيما في بيت عائلته.. أو.. ربما كان يخطط للزواج مرة أخرى من ضحية جديدة فأراد أن يكون لها مكان جاهز.. لا أظن أنه توقع أن شركة التأمين في (الكويت) ستقوم بتتبع ماضيه وتكشف أمر زيجاته السابقة في أوروبا.

لقد اتصل بي فيما بعد موظف شركة التأمين ليسألني باستغراب شديد عن سبب موت (وليد).. فأخبرته بجهلي التام بكل شيء وأن وفاته فاجأتني أيضا.. لينهي المكالمة وهو في حيرة من حالات الوفاة هذه التي تحدث دون سبب.

يجب أن أذكر هنا أنني بحثت ذات مرة بدافع الفضول عن طريقة عمل المخ البشري.. فوجدت أن ما فعله (وليد) ليس بالأمر المستحيل.. فالعلماء يجرون باستمرار تجارب تتمثل في استئصال أورام المخ.. والمرضى متنبهون يحكون ما يشعرون به.. والأغرب من ذلك أن هؤلاء العلماء تعمدوا إثارة أجزاء

معينة من المخ بأقطاب كهربائية تجعل المريض يشعر بأنه يشم رائحة لحم مشوي مثلا.. أو يركب دراجة.. أو يتلذذ بكوب عصير بارد.. وقد ساعدت هذه التجارب العلماء في رسم خرائط كثيرة لمراكز الإحساس بالمخ كان لها الأثر الأكبر في نجاح الكثير من العمليات الجراحية*.. أي أن العلم في بدايات الطريق لاكتشاف أجهزة كهذه تتحكم بعقولنا كما تشاء.. وأن (وليد) ربما سبقهم فقط بذكائه واخترع برنامجا ينقل مشاعر المرض والرضا إلى المخ البشري.

المهم أنني عاهدت نفسي على طي تلك الصفحة من حياتي إلى الأبد والمضي قدما.. صفحة تعلمت منها الكثير وأستذكر لحظاتها بين الحين والآخر.. فأحاول أن أستفيد من كل العِبر الممكنة منها.. بعد أن عرفت كيف قتل (وليد) زوجاته.. وانتقمت منه بنفس الطريقة.. الطريقة المبتكرة!!!.

---

* حقيقة.. وتوجد أفلام وثائقية كثيرة حول هذا الأمر من الممكن مشاهدتها عبر موقع (Youtube).

عصير الليمون

أسامة المسلم

1976م

السفارة الهندية في بلد خليجي

ورق رسمي مرسل من الخارجية الهندية

آلة فاكس

رجل يقف أمام جهاز الفاكس التابع للسفارة الهندية في إحدى الدول الخليجية ممسكاً بيده كاساً صغيراً من الشاي يحتسيه برشفات متقطعة بينما يستمع لطنين الجهاز ويراقب لفافات الورق وهي تُطبع وتتراكم على الأرض. توقف الجهاز ووضع الرجل كأس الشاي على الطاولة وأمسك بنهاية لفافة الورق ومزقها وبدأ بالقراءة. بعد ثوانٍ من الاطلاع على محتوى الصفحات المتصلة توجه وقدمها للسفير الذي وجهه بإرسال نسخة منها لوزارة الخارجية في ذلك البلد.

(السفير الهندي): عندما ترسل النسخة أعد خطاب إلحاقي به وأخبرهم أن الخارجية الهندية قد أغلقت التحقيق في الموضوع وأن أي رغبة في فتح القضية مرة أخرى يستلزم طلباً رسمياً يقدم من خلال السفارة.

(الموظف): حاضر.. لكن هل تسمح لي بسؤال يا معالي السفير

(السفير الهندي): ماذا تريد؟

(الموظف): أنا أتابع تطورات هذه القضية منذ أسابيع لكني لم أعرف كل تفاصيلها.. هل تسمح لي بالاطلاع على ملف القضية بالكامل؟

(السفير الهندي): يمكنني أن أخبرك أنا.. مالذي تريد معرفته بالضبط؟

(الموظف): كل الحكاية إذا سمح وقتك

(السفير الهندي): القصة بدأت مع رجل اسمه (هادي) أصيب بمرض..

(الموظف): مرض؟.. مرض من أي نوع؟

(السفير الهندي): سأخبرك..

روى السفير الهندي تفاصيل حكاية (هادي) ورحلته للبحث عن العلاج في ((الهند)) منذ بدايتها..

(هادي) وهو يستيقظ من النوم مفزوعاً بسبب زوجته التي أيقظته بشكل مفاجئ: ما لأمر؟!.. لِم توقظيني هكذا؟!

(الزوجة) وهي تشير لمخدته: انظر!

نظر (هادي) حيث كانت تشير زوجته ورأى كومة من الشعر فقشعر بدنه وقال بتوتر: ما هذا؟

(الزوجة): يبدو أنك بدأت تفقد شعرك

(هادي) وهو يزفر مبتسماً: لقد لحقت بي جينات أبي.. لا تقلقي فهذا أمر كنت أتوقع حدوثه

(الزوجة): وهل فقد أبوك شعر حاجبيه أيضاً؟

(هادي) وهو يتحسس جبينه بتوتر: ماذا؟.. حاجباي؟

(الزوجة) وهي تنظر لزوجها بنظرة خالطها القلق وعدم الارتياح: نعم وكذلك شاربك وجزءًا كبيراً من لحيتك

(هادي) ينهض على عجالة متوجهاً لدورة المياه في الغرفة: عن ماذا تتحدثين؟!

وقف (هادي) أمام مرآة الحمام مصدوماً مما يراه أمامه فقد سقط شعر رأسه بالكامل وكذلك حاجباه وشاربه ولم يتبقَ من شعر وجهه سوى شعيرات قليلة على فكه تساقط معظمها بمجرد أن مسح عليها وكل ذلك حدث في ليلة واحدة.

(هادي) وهو يحدق بشكله بتعجب وقلق شديد: ما الذي يحدث لي؟

(الزوجة) تدخل دورة المياه وتضع يدها على كتف زوجها: يجب أن تراجع الطبيب؟

(هادي) يدير صنبور الماء ليغسل وجهه: سأفعل

(الزوجة): سوف أتصل بأخي كي يقلك للطبيب

(هادي) وهو يغسل وجهه: أنا لست عاجزاً عن أخذ نفسي للطبيب

(الزوجة) وهي تخرج من دورة المياه: سوف أكون مطمئنة اكثر إذا كان (هلال) معك

(هادي) يسحب المنشفة ليجفف وجهه: لا أريد من أخيك أن يستظرف كعادته خاصة وأنا بهذا الشكل

(الزوجة) وهي ترفع سماعة الهاتف: لا تقلق فأخي جاد في الأوقات التي تستدعي ذلك

بعد أقل من ساعة حضر (هلال) وبمجرد أن فتحت أخته له الباب ودخل غرفة المعيشة ورأى (هادي) بتلك الحالة

قال ضاحكاً: لم أكن أتوقع أن الامر بهذا السوء! أنت تبدو كالسلحفاة!

نظر (هادي) إلى زوجته بنظرة لوم للاتصال بـ(هلال) لكنها تداركت الموقف وقالت: كف عن المزاح يا (هلال) فالأمر لا يحتمل ذلك ! (هادي) مريض ويحتاجك لأن تقف معه!

(هلال) وهو يمد يده مبتسماً لمساعدة (هادي) في الوقوف: حسناً حسناً.. هيا لنذهب للطبيب

(هادي) وهو يقف بتجهم: أنا لست مصاباً بالشلل كي تساعدني على الوقوف!

(هلال) وهو يضحك: شكلك مضحك وأنت غاضب بلا شعر!

(هادي) وهو يزفر بحسرة: أي تخصص من الأطباء يمكننا استشارته في مثل هذه الحالة؟

(هلال) وهو يضع يده على رأس (هادي) الأملس ضاحكاً: لنجرب طبيب الأمراض النفسية فيبدو أن عِشرة أختي قد أفقدتك الرغبة في الحياة

(الزوجة) بغضب: إذا كنت ستستمر بمضايقة زوجي فلا تذهب معه!

(هادي) وهو يبعد يد (هلال) عن رأسه بهدوء: تتحدثين وكأنك لا تعرفين أخيك.. هيا يا (هلال) لنذهب

(هلال) وهو يسبق (هادي) بالخروج: هيا بسرعة لقد تركت محرك السيارة يعمل

خرج (هلال) وهم (هادي) باللحاق به لكن زوجته استوقفته وقالت بحزن: أرجوك كن بخير..

(هادي) مبتسماً لزوجته: لا تقلقي بإذن الله الأمر بسيط

خرج (هادي) وركب سيارة (هلال) الذي توجه به إلى إحدى المستشفيات الخاصة التي اشتهرت بطبيب جلدية ذائع الصيت. بعد فترة من الانتظار الطويل بسبب الزحام على ذلك الطبيب دخل الاثنان للعيادة وعندما انتهى الطبيب من إجراء فحص سريع قال وهو يتفحص رأس (هادي): حالة "الوبيكا اريتا"

(هادي) بقلق: هل هذا مرض خطير يا دكتور؟

(الطبيب) وهو يخلع قفازاته ويتوجه لمكتبه: لا أبداً وهو ليس معدياً لكن تطوره السريع في جسمك غريب

(هلال): ماذا تقصد يا دكتور؟

(الطبيب) وهو يدون بعض الملاحظات في ملف (هادي): هذا المرض يُعرف بـ"الثعلبة" ويتسبب بتساقط الشعر تدريجياً لأسباب مجهولة لكنك فقدت أكثر من 90% من شعر جسمك وهذا شيء غير مألوف ولم أره من قبل

(هادي): وما مسببات هذا المرض؟

(الطبيب): العلم لم يكتشف الأسباب بعد لكن هناك نظريات تقول أن الأسباب قد تكون وراثية أو نفسية

(هلال): ألم أخبرك أن أختي هي السبب

(هادي) متجاهلاً تعليق (هلال) وموجهاً كلامه للطبيب: وما العلاج؟

(الطبيب): للأسف لا يوجد علاج حالياً لهذا المرض

(هادي) بقلق: هل سأبقى بهذا الشكل طيلة حياتي؟

(الطبيب): هناك أمراض أكثر خطورة واحمد الله أن هذا المرض ليس له مضاعفات صحية فهي مقتصرة على مجرد فقدان للشعر

(هلال): ألا يوجد بعض الأدوية أو المراهم التي يمكنه أخذها كي يستعيد بعضاً من شعره

(الطبيب): سأكون مخادعاً لو صرفت له أي دواء أعلم مسبقاً أنه لن يفيده

(هادي) وهو ينهض بخيبة أمل: شكراً يا دكتور

عاد الاثنان للمنزل ونقلا الخبر لزوجة (هادي) التي سعدت به وحمدت الله أن الموضوع ليس به تهديد لحياة زوجها لكن (هادي) كان مستاءً جداً وغير راضٍ عن حالته.

(هلال): احمد الله يا رجل الأمر كان من الممكن أن يكون أسوأ

(هادي) بغضب: من السهل عليك قول ذلك فأنت لست في مكاني!

(الزوجة) تشير لأخيها بالرحيل..

رحل (هلال) وبقيت الزوجة مع زوجها تواسيه لكن دون جدوى فقد كان مكتئباً جداً لذا قررت تركه حتى يخرج من تلك الحالة. مضت الأيام وزادت حالة الاكتئاب التي أصيب بها (هادي) لدرجة أنه أخذ إجازة من عمله ولم يعد يخرج من المنزل وبعد أسبوع على ذلك الوضع زارهم (هلال) ليطمئن عليه لكنه رفض مقابلته فبقي مع أخته يتحدث معها بعدما أعدت له الشاي.

(هلال): هل سيبقى زوجك بهذه الحالة طويلاً؟

(الزوجة) وهي تبكي: لا أعرف فحالته تسوء يوماً بعد يوم!

(هلال): ما رأيك أن نأخذه لشيخ يقرأ عليه؟

(الزوجة) وهي لاتزال تبكي: لقد حاولت معه لكنه يرفض الخروج من الغرفة

(هلال) وهو يزفر بخيبة: سوف يدمر نفسه بنفسه بهذه الطريقة

(الزوجة): لم أعد أعرف ما يمكنني القيام به

(هلال): هل أبلغت أهله؟

(الزوجة): يرفض إبلاغهم وحذرني من ذلك

(هلال): الناس ستعرف عاجلاً أم آجلاً

(الزوجة) وهي تغطي وجهها بكفيها: هذا ليس همي الآن

(هلال): لا تقلقي سوف أتصرف

(الزوجة) وهي تنظر لأخيها: ماذا تنوي أن تفعل؟

(هلال) وهو ينهض: أمهليني بضعة أيام فقط

خرج (هلال) وعاد بعد خمسة أيام تقريباً وعند عودته طرق باب منزل أخته وعندما فتحت له الباب بوجهها الحزين عانقها وهو سعيد ومبتهج وقال بحماس: لقد وجدت علاجاً لزوجك أخيراً!

(الزوجة) والحياة تعود لوجهها الذابل: حقاً؟! أين؟!.. في أي مستشفى؟!

(هلال) وهو يدخل للمنزل: أين (هادي)؟!

(الزوجة) تلحق بأخيها: أخبرني أولاً أين سيتعالج؟

(هلال) يطرق باب غرفة (هادي) ضاحكاً: اخرج أيها الكئيب لقد وجدت علاجاً لصلعتك!

(هادي) يفتح الباب بوجه مكتئب: لا تسخر مني..

(هلال) وهو يسحب (هادي) من يده لغرفة المعيشة ويُجلسه على إحدى الأرائك: وهل سأمزح في أمرٍ كهذا؟!

(الزوجة) وهي تجلس بجانب زوجها ونظرها المتحمس موجهاً لأخيها: هيا أخبرنا عن اسم الطبيب والمستشفى الذي يمكنهم علاج (هادي)

(هلال) يقف أمامهما باسطاً كفيه بابتسامه عريضة:.. ((الهند))..

(هادي) وهو ينهض ويهم بالعودة لغرفته: كنت أعرف أنها واحدة من مزحاتك السخيفة

(هلال) يعترض طريق (هادي) بوجه جاد: انتظر! أنا لا أمزح!

(الزوجة) بوجه متسائل: ماذا تقصد بالـ((هند))؟

(هلال) وهو يجلس بجانب أخته بحماس تاركاً (هادي) واقفاً ينظر إليهما ببرود: لقد تحدثت مع أحد أصدقائي عن حالة (هادي) وقال لي أن أحد أقربائه أصيب بنفس المرض قبل سنوات ووجد العلاج في ((الهند)) وعاد لهم معافى تماماً بل أن شعره الجديد كان أفضل من القديم وأكثر غزارة!

(الزوجة) تبتسم بحماس: وما اسم المستشفى الذي تعالج فيه؟

(هلال) ووجهه يتغير: بصراحة أخبرني بأن عمه رفض أن يخبرهم فطلبت منه الحديث معه كي أقنعه بأن يدلني على اسم الطبيب أو المستشفى فقال أن عمه توفى منذ عدة أشهر

(الزوجة) وهي مصدومة: مات؟!.. هل مات بسبب العلاج؟!

(هلال) بسخرية: الأعمار بيد الله ولا علاقة للعلاج بذلك فقد بقي على قيد الحياة بعد عودته من الهند سنواتٍ طويلة

(هادي) ببرود وتهكم: إذاً فأنت لا تملك شيئاً ومعلومتك لا فائدة منها

(هلال) وهو ينهض: ماذا تقصد؟ لقد عرفنا مكان العلاج ولو سافرنا للهند سوف نجد المكان بسهولة بمجرد السؤال؟

(الزوجة) بوجه متأمل لـ(هادي): ما رأيك يا عزيزي؟

لم يرد (هادي) واكتفى بالنظر للأرض بصمت..

(هلال) وهو يضع يده على كتف زوج أخته: صدقني أننا سنجد علاجك هناك

(الزوجة) في محاولة لإقناع زوجها: لقد أخذت إجازة شهراً من عملك لم يمضِ منها إلا أيام قليلة.. سافر لعلك تجد العلاج الذي تبحث عنه

(هادي): حسناً

خلال الأيام التي تلت هذا اللقاء قام (هلال) بحجز تذاكر السفر ((للهند)) وتحديداً لـ((مومباي)) لأن المعلومة الوحيدة

التي حصل عليها من صديقه هي بأن عمه تعالج فيها عدا ذلك لم يفصح لهم بشيء. بعد رحلة دامت ثلاث ساعات ونصف تقريباً في الجو وصل (هادي) مع زوج أخته لمطار ((مومباي)) الدولي مساءً وبمجرد نزولهم تفاجؤوا بالمطر الغزير الذي كان يهطل بشدة والذي لم يروا مثله من قبل وبعد الانتهاء من إجراءات المطار وتبديل عملاتهم للروبية استقلوا سيارة أجرة وحيث أن (هلال) كان يجيد القليل من الانجليزية حاول التواصل مع السائق كي يأخذهم إلى أي فندق ليقضوا فيه ليلتهم الأولى خاصة وأن الأجواء لم تكن تسمح لهم بالبحث الآن. بعد مسيرة نصف ساعة تقريباً في شوارع ((مومباي)) المزدحمة والتي لم يتمكن (هادي) أو (هلال) رؤية أي من معالمها بسبب قوة المطر التي صبت غشاوتها السميكة على النوافذ حولهم حتى الزجاجة الأمامية وبالرغم من أن المساحات عملت على سرعتها القصوى كانت بالكاد تظهر معالم الطريق أمام السائق.

(هادي) وهو يحاول النظر من وراء زجاج النافذة: ما هذه البلد الغريبة؟

(هلال) وهو يضحك: ألم ترَ مطراً من قبل؟

(هادي): بلى لكن ليس بهذه الغزارة السماء وكأنها سدٌ قد تحطم

(هلال) مبتسماً: يقول صاحبي أن عمه يمتدح المطاعم هنا

(هادي) وهو يلتفت إلى (هلال): عم صاحبك تحدث عن المطاعم ولم يتحدث عن مكان علاجه؟.. إنسان غريب

(هلال) ينظر أمامه في محاولة لتمييز الطريق: لا أرى شيئاً غريباً في الأمر فالحديث عن المرض أمر محبط

(هادي) يشارك (هلال) النظر أمامه: إلى ماذا تنظر؟

(هلال): إلى أين يأخذنا هذا السائق؟

(هادي): ألم تخبره بأننا نريد الإقامة بفندق؟

(هلال): بلى لكني لا أرى فنادق في الجوار.. نبدو وكأننا في حي سكني فقير

(هادي) بقلق: تحدث معه وتأكد من أنه يسير في الاتجاه الصحيح

بدأ (هلال) بالتحدث مع السائق الهزيل بإنجليزيته المتواضعة والركيكة فلم يجبه السائق إلا بهز رأسه بالطريقة المعروفة

للهنود وهو يبتسم والنقطة الحمراء على جبينه تلمع من عرق جبينه المتساقط.

(هلال) وهو يسند ظهره للمقعد: يبدو أنه يسير بالطريق الصحيح

(هادي): وكيف تأكدت؟

(هلال) وهو يشير للسائق: ألا ترى كيف كاد رأسه ينفصل من التأكيد.. لا تقلق نحن نسير في الطريق المناسب

(هادي) بتوجس: أتمنى ذلك..

(هلال) مبتسماً: ما رأيك بالبلد؟

(هادي): أي بلد؟ أنا لم أرَ شيئاً سوى المطر حتى الآن ناهيك عن الرائحة القوية التي صدمتني بمجرد نزولنا من الطائرة

(هلال) ضاحكاً: هذا عبق الهند

(هادي) بتجهم: كان أشبه برائحة الديزل المخلوط بالروث

(هلال) يضحك بقوة..

بعد ربع ساعة من هذا الحوار والسير تحت الأمطار الغزيرة توقف المطر فجأة وبدون مقدمات وبدأت معالم الرؤية تتضح

حولهما ورأوا بأنهم في منطقة بعيدة عن قلب المدينة حيث البنايات الضخمة والتي استطاعوا رؤيتها في الأفق البعيد.

(هادي) بعبوس: تحدث مع صاحبك واسأله مرة أخرى إلى أين يأخذنا؟!

أوقف السائق السيارة قبل أن يسأله (هلال) في حي مزدحم ومكتظ بالناس وأشار مبتسماً لمبنى صغير عُلق على مدخله سلسلة من الأنوار الملونة.

(هلال) ينظر حيث كان يشير السائق: ما هذا المكان؟

(هادي) بسخرية: يبدو أنها قاعة للأفراح

(هلال) مبتسماً وعينه على المكان: هيا لنرى

(هادي) بغضب: نرى ماذا؟! هل جننت؟!

نزل السائق من السيارة وفتح صندوقها وأخرج أمتعتهم ووضعها أمام ذلك المنزل وهز رأسه لـ(هلال) الذي نزل خلفه وقال له: حسناً حسناً سأعطيك أجرتك

(هادي) من داخل السيارة بعدما أنزل النافذة وطل برأسه للخارج: هل أنت جاد؟ هل تريد أن ننزل هنا؟!

(هلال) وهو يمد مبلغاً كبيراً للسائق: لاتكن متعجرفاً.. إذا لم يعجبك المكان يمكننا البحث عن غيره فقد توقف المطر

نظر السائق للمبلغ الممدود له فأشار بأنه لا يملك فكة لتلك العملة الكبيرة فأشار له (هلال) بأن يحتفظ بالبقية فبدأ السائق بتقبيل يده فقد كان المبلغ أضعاف ما تستحقه تلك الرحلة لكن جهل (هلال) برخص قيمة الأجرة جعله يمد مثل ذلك المبلغ.

(هادي) وهو يترجل من السيارة ويسير تجاههما: لما يقبل يدك بهذا الشكل؟

ترك السائق يد (هلال) وبدأ يقبل يد (هادي) أيضاً..

(هلال) ضاحكاً: يبدو أنهم يقدسون السلاحف!

(هادي) وهو يسحب يده من شفاه السائق: تقديسهم للبقر هو سبب تقبيله ليدك إذاً!

(هلال) يضحك بقوة ويحمل الحقائب: هيا لندخل

(هادي): ندخل إلى أين؟!

(هلال) وهو يشير برأسه للوحة المضيئة: انظر ما هو مكتوب..

"موتيل"..

ولجهل (هادي) بمعنى تلك الكلمة قال: تقصد "هوتيل".. أي فندق..

(هلال) وهو يسير تجاه مدخل: نعم نعم نوعاً ما.. هيا لندخل

استوقف السائق (هلال) وأخذ منه الحقائب وسار أمامه نحو النُزل فقال (هلال) مبتسماً: هذا السائق خدوم جداً

(هادي) يسير نحو المدخل بتجهم: هيا بسرعة كي أرفض البقاء ونبحث عن مكان آخر

دخل الاثنان خلف السائق الذي وضع حقائبهما أمام طاولة الاستقبال ووقف ينتظر الإشارة له بالرحيل لكن (هلال) تجاهله وتحدث مع الشخص الجالس خلف تلك الطاولة بالإنجليزية وكان الحديث مضيعة للوقت لأنه لم يكن يجيد إلا الهندية لكن مع بعض الإشارات والاستعانة بالسائق فهم أنهم يريدون المبيت في المكان فقدم لهم ورقة ليوقعوا عليها ووضع فوقها مفاتيح بميدالية تحمل رقم 7 فسحب (هلال) قلمه ليوقع لكن (هادي) استوقفه قائلاً: ماذا تفعل؟

(هلال) بتعجب: أوقع على الاستمارة كي ننام وننتهي من هذا اليوم المتعب

(هادي): دون أن ترى الغرفة؟

(هلال) وهو يوقع على الورقة: نحن لسنا هنا للسياحة وأي مكان بفراش ومخدة سيفي بالغرض

(هادي) بتجهم: إذا كنت قلق بشأن التكلفة فأنا معي المال الكافي

(هلال) وهو يأخذ مفتاح الغرفة ويبتسم لموظف الاستقبال: نحن لا نعلم حتى الآن كم سيكلف علاجك.. عندما نحصل على تلك المعلومة يمكنك السكن في أي مكان تشاء

أشار موظف الاستقبال إلى السائق الذي كان معهم وتحدث معه بالهندية كي يأخذ الحقائب للغرفة فقال (هلال) ضاحكاً وهو يلحق به: هذا السائق متعدد الاستخدامات

لم يلحق (هادي) به وظل واقفاً مكانه فالتفت إليه (هلال) وقال بتعجب: ما بك؟

(هادي) وهو يشير لموظف الاستقبال بيده بأنه يريد هاتفاً: أريد أن أتصل بأختك كي أطمئنها بأننا وصلنا

(هلال) ضاحكاً: حاول أن تنساها قليلاً كي نستطيع علاجك

(هادي) وهو يرفع سماعة الهاتف الذي وضعه موظف الاستقبال أمامه: زوجتي ليست مصدر قلق لي.. تتحدث عنها وكأنها ليست أختك

(هلال) وهو يصعد للطابق العلوي: أنا أقول ذلك لأنها أختي وأعرفها

أجرى (هادي) اتصالاً مع منزله لكن الخط لم يكن متاحاً للاتصال الدولي فحاول شرح ذلك لموظف الاستقبال لكن دون جدوى. بعد أن يئس (هادي) من التواصل مع زوجته أغلق الخط بإحباط وبدأ السير والتفكير في ردهة النُزل ولم يصعد للغرفة وخلال تفكيره سمع بعض الضجيج آتياً من بابٍ كبير بجانبه فألقى نظره من خلف ذلك الباب المفتوح جزئياً فرأى بأنه مطعم تابع للفندق وكان مكتظا بشكل غريب. كان المطعم متواضعاً لكن رائحة الطعام شهية جداً فقرر الدخول لتناول شيئاً ما وبعد أن أخذ بضع خطوات للداخل وقف يتمعن بتلك الحياة التي ضج بها المكان فقد كانت الأغاني الهندية تعزف بلا انقطاع والناس في المكان يتحدثون بصوت عالٍ نسبياً والنوادل يتحركون بسرعة حاملين الأطباق الفارغة والممتلئة ذهاباً وإياباً. خلال مشاهدة (هادي) لذلك المنظر اقترب منه أحد النوادل وأشار له بالجلوس على طاولة صغيرة تضم كرسيين وبمجرد

جلوسه بدأ ذلك النادل بوضع مقبلات غريبة في صحون صغيرة مستديرة أمامه ثم تحدث معه بالهندية وفهم أنه يسأله عن طلبه. بدأ (هادي) يشير بيديه في محاولة منه أن يقول للنادل بأنه يريد أي شيء لكن النادل ظل واقفاً ينتظر الطلب فقال (هادي) بتجهم: أحضر لي أي شيء!

في تلك اللحظة اقترب شخص كان يجلس على طاولة قريبة من (هادي) وقال له بالعربية: هل أنت عربي؟

(هادي) يلتفت إلى الرجل بشيء من السعادة: نعم نعم.. هل يمكنك أن تخبر هذا النادل بأن يحضر لي أي شيء لآكله

(الرجل) وهو يجلس مبتسماً على طاولة (هادي): لا تقلق سوف أخبره بأن يجلب لك أفضل طبق يشتهر به هذا المكان وتخفيف جرعة الفلفل لأنك لن تحتملها

تحدث الرجل مع النادل بالهندية وبعد رحيله أدار وجهه الباسم نحو (هادي) وقال: هل أنت هنا للسياحة؟

(هادي): لا أنا هنا في رحلة علاج

(الرجل) وهو يلاحظ وجه (هادي) الخالي من الشعر: هل أنت مصاب بالسرطان؟

(هادي) وهو يضع يده على رأسه مبتسماً: لا ولله الحمد.. مجرد "ثعلبة" بسيطة



(الرجل): لا تبدو بسيطة

(هادي): هل أنت طبيب؟

(الرجل) وهو يمد يده لمصافحة (هادي) مبتسماً: عذراً لم أعرف بنفسي.. أنا (حامد).. مقيم في ((مومباي)) لأكثر من خمس عشرة سنة

(هادي) وهو يصافح (حامد): تشرفنا أنا (هادي)..

(حامد) مبتسماً وهو يصافح (هادي): الشرف لي..

(هادي): وما طبيعة عملك يا أستاذ (حامد)؟

(حامد): أنا أتعاقد مع عمال لشركة بناء في الخليج وأنهي إجراءاتهم هنا

(هادي): وهل تُقيم في هذه الأرجاء؟

انقطع الحديث عندما عاد النادل ووضع الطعام على الطاولة أمامهم وقد كان عبارة عن ورقة خضراء كبيرة من شجرة الموز عليها بعض الأرز الأبيض المسلوق وبجانبه كرة من البطاطا

المخلوطة بحليب جوز الهند والخردل وبجانبه أيضاً كرة أخرى من عجين الدقيق الأبيض المخلوط بالزبدة والسكر بالإضافة لكمية من الفاصوليا الممزوجة بالسبانخ والجزر والقرع المهروس مع قطع الفلفل المقلي.

(هادي) وهو يشاهد ذلك الطبق الملون أمامه: ما هذا؟

(حامد): هذا أحد أشهر الأطباق الهندية وكل من يأتي للهند يجب أن يجربه

(هادي) وهو يرفع طرف ورقة الموز الكبيرة: وهل تؤكل هذه الورقة أيضاً؟

(حامد) وهو يضحك: لا.. ورق الموز هو للتقديم فقط!

(هادي) وهو مشمئز: لا أظن أنني أريد أن آكل هذا الطبق

(حامد): جرب لن تخسر شيئاً.. ثم إننا كمسلمين يجب أن نتجنب لحومهم هنا وهذا الطبق نباتي 100%

(هادي) باستغراب: ولما يجب أن أتجنب لحومهم؟

(حامد): هذا الحي تسكنه أغلبية هندوسية لذا فلحومهم غير جائزة لنا لكن يمكنك إيجاد بعض المطاعم التي يديرها مسلمون

(هادي): أليس الهندوس جميعهم نباتيين؟

(حامد): هذا مفهوم خاطئ بل معظمهم يتناولون اللحوم عدا لحوم الأبقار فقط

(هادي): وكيف أعرف الفرق بين المطاعم الهندوسية والإسلامية؟

(حامد): هل هذه أول مرة لك في ((مومباي))؟

(هادي): بل أول مرة لي في ((الهند))

(حامد) يُخرج ورقة من جيبه ويمدها: إذا احتجت أي شيء تواصل معي هذا هو رقمي

(هادي) وهو يأخذ الرقم: شكراً

(حامد) يهم بالنهوض: بالهناء والعافية

(هادي) وهو يضع الرقم في جيبه: إلى أين؟

(حامد): لدي موعد في مكان آخر لكن يجب أن نلتقي مرة أخرى وتمنياتي لك بالشفاء العاجل

(هادي): بإذن الله وشكراً مرة أخرى

رحل (حامد) وترك (هادي) يستكشف الطبق الذي أمامه بإصبعه حتى دخل (هلال) المطعم وهو يلتفت يميناً وشمالاً إلى أن وقعت عيناه على زوج أخته فقال بصوت مرتفع: أين كنت؟!

(هادي) وهو يلتفت خلفه ويشير إلى (هلال) بالاقتراب لأن الضوضاء والموسيقى العالية في المكان لم تمكنه من الحديث معه بصوت مسموع. سار (هلال) تجاهه وجلس بالقرب منه وهو يقول: مالذي تفعله هنا؟

(هادي) وهو ينظر للطعام أمامه: أحاول تناول شيئاً

(هلال): ولِم لم تنتظرني؟

(هادي): ظننت أنك خلدت للنوم

(هلال): هل تحدثت مع أختي؟

(هادي):لا فالخط هنا لا يتصل بالأرقام الدولية

(هلال) وهو يجول بنظره في المكان: لا تقلق.. غداً في طريقنا للمستشفى سوف نعرج على كبائن الاتصالات الدولية

(هادي): أي مستشفى؟.. هل حصلت على اسم الطبيب المتخصص في حالتي؟

(هلال) وهو يمد يده ويأخذ بعض الأرز: لا لكننا سنسأل

(هادي): التقيت للتو بشخص عربي يجيد الهندية لعله يستطيع مساعدتنا

(هلال) وهو يلوك لقمة الأرز في فمه: هذا الأرز خالٍ من الملح

(هادي): هل سمعت ما قلته لك؟

(هلال) وهو يمد يده ويأخذ بعض البطاطا المهروسة: نعم سمعتك.. لا نحتاج مساعدة من أحد وخصوصاً عربي

(هادي) بتعجب: لماذا؟

(هلال) وهو يتناول البطاطا ويمص أصابعه: هذه قاعدة أتبعها دائماً في السفر وهي الابتعاد قدر الإمكان عمّن يتحدث لغتك وخاصة من هم من نفس بلدك وبحكم أني أكثر خبرة منك في السفر يجب أن تثق بي في هذه النقطة

(هادي) بتهكم: أنت من نفس بلدي وتتحدث نفس لغتي

(هلال) يضحك ويشير للنادل بإحضار الفاتورة: هيا لنذهب للغرفة وننام فأمامنا يوم حافل غداً

(هادي) وهو يمسح على رأسه الأملس بحزن: أتمنى حقاً أن نجد علاجاً لهذا المرض

(هلال) وهو يعطي النادل الكثير من المال ويشير له بالاحتفاظ بالبقية: انظر للجانب المشرق في الموضوع

(هادي) بحزن: وما هو الجانب المشرق فيما أنا فيه؟

(هلال) وهو يشير مبتسماً لصورة معلقة على أحد جدران المطعم: هل تعرف من هذا؟

(هادي) يلتفت نحو صورة لرجل أصلع متشح رداءً أبيض ويلبس نظارة بعدساتٍ دائرية صغيرة: أليس هذا (غاندي)؟

(هلال): نعم.. الأب الروحي للهنود

(هادي) وعيناه على الصورة: وما علاقته بحالتي

(هلال) وهو ينهض ضاحكاً: ألا ترى التشابه بينكما؟ إذا لم تجد علاجاً فقد تكون الأب الروحي الجديد للهند

(هادي) بتجهم: لنعد إلى الغرفة!

(هلال) وهو مستمر بالضحك: صدقني لو وضعت نقطة حمراء على جبينك ولبست نظارة مثله سنحصل على تخفيضات في كل مكان

(هادي) وهو يسير نحو باب الخروج غاضباً: كم رقم الغرفة؟!

(هلال) وهو يلحق به ضاحكاً: تعال إلى هنا!

صعد الاثنان للغرفة وبعد دخولهما استقبلتهما رائحة نفاذة ساخنة فقال (هادي) بتذمر: ما هذه الرطوبة العفنة؟

(هلال) وهو يدير مروحة السقف ويتوجه نحو النافذة ويفتحها: لا تقلق سنغير المكان غداً

(هادي) يتوجه لأحد السرائر ويستلقي عليه بوجه عابس: هل يمكنك إطفاء الإنارة؟

أطفأ (هلال) النور واستلقى على سريره وكان صوت السيارات في الشارع عالياً فقال (هادي): كيف سننام مع هذا الإزعاج؟

(هلال): أنت مخير بين الإزعاج ورائحة المكان فأيهما تريد؟

(هادي) وهو يغطي رأسه بالوسادة: سأتحمل الإزعاج!

بعد دقائق من الصمت تحدث (هلال) وقال: هل نمت؟

(هادي) بصوت خدر: ماذا تريد؟

(هلال): عندما نزلت من الغرفة كي أبحث عنك طلب مني موظف الاستقبال أسماءنا كي يعبئ استمارة اخرى

(هادي): وما المشكلة؟

(هلال): لا حظت أنه كان يضحك عندما أخبرته بأن اسمك (هادي)

(هادي) وهو يرفع المخدة عن وجهه: لماذا؟

(هلال) مبتسماً: يقول أن اسمك معناه "فيل" باللغة الهندية

(هادي) بعبوس وغضب: ولِم تخبرني بذلك؟!

(هلال) وهو يغمض عينيه مبتسماً: أحببت أن أنبهك فقط كي لا تستغرب لو مد لك أحد بعض الفول السوداني غداً

(هادي) وهو يغطي رأسه بالمخدة بغضب: تصبح على خير!

في اليوم التالي استيقظ (هادي) على صوت (هلال) وهو يصرخ من النافذة في أحد المارة فقال له وهو يفتح عينيه بتثاقل: ما بك تصرخ هكذا؟

(هلال) وهو يغلق النافذة بغضب: أحمق كان يعزف الطبول في الشارع ولم يختر إلا هذا المكان!

(هادي) مبتسماً بسخرية: ألم يكن هذا المكان من اختيارك؟

(هلال) وهو يبدل ملابسه: هيا بنا كي لا نتأخر

(هادي): يجب أن أستحم

(هلال) وهو يخرج من الغرفة: سأنتظرك بالأسفل

خرج (هلال) وبعدما استحم (هادي) وبدل ملابسه نزل خلفه ووجده بانتظاره أمام مدخل النُزل يحاول إيقاف سيارة أجرة. سار حتى وقف بجانبه ثم قال: هل سننتظر طويلاً؟

(هلال) وهو يشير بيده لعربة صغيرة تُعرف بـ"القاري" أو "التك تك": سنركب هذه حتى نصل لقلب المدينة

(هادي): حسناً لكن أين سنذهب؟

ركب (هلال) وبدأ بالشرح للسائق بأنهم يريدون الذهاب للمستشفى..

(هادي) وهو يركب بجانب (هلال): يبدو أن هذا السائق لا يفهم شيئاً مما تقول

خلال محاولة (هلال) الشرح للسائق سمع الاثنان صوتاً يحدثهما بالعربية قائلاً: كيف حالك يا (هادي)؟!

تجهم (هلال) عندما سمع (حامد) يتحدث بالعربية وبدأ ينهر السائق الذي لم يكن يفهم شيئاً من كلامه فتبسم (حامد) وقال: إلى أين تريدان الذهاب؟

(هادي) مبتسماً: إلى أي مستشفى يكون جيداً ومتخصصاً في علاج حالتي

(حامد): أنت تحتاج لمتخصص وأنا أعرف المكان المناسب لك

بدأ (حامد) بالتحدث مع السائق بالهندية فهز السائق رأسه مشيراً بأنه عرف الوجهة وقبل أن ينطلق قال (حامد) مبتسماً: رافقتكم السلامة

(هلال) وهو ينظر أمامه بتجهم وينهر السائق: هيا تحرك!

(هادي) والعربة تبدأ بالانطلاق: شكراً أستاذ (حامد)

سارت العربة تاركة وراءها (حامد) وهو يشوح بيده مودعاً (هادي) الذي التفت بعبوس على (هلال) قائلاً: ما بك؟! لِم كنت فظاً مع الرجل؟! لقد كان يحاول مساعدتنا!

(هلال) وهو متجهم وينظر أمامه: أخبرتك بأني لا أحب الاحتكاك بالعرب في السفر

(هادي): ما هذا الغباء؟! الناس ليسوا سواء

(هلال): لننسى موضوعه الآن ولنركز على وجهتنا

بعد مسيرة طويلة بين ضواحي المدينة المزدحمة توقف السائق عند مستشفى ضخم ولم يسمح له بتجاوز بوابتها بعربته فنزل الاثنان ودفعا له الأجرة وبقيا يحدقان بذلك المبنى الكبير الذي كان أشبه بالصرح العظيم وقال (هلال): يبدو أن العلاج هنا مكلف

(هادي) وهو يسير متجاوزاً البوابة: لا يهم المهم أن نجد علاجاً لحالتي

أمضى الاثنان وقتاً ليس بالقصير في الحديث مع موظفة الاستقبال والتي كانت تجيد الإنجليزية لكن مصطلحات (هلال) كانت محدودة وجعلت الحوار يطول أكثر لكنهم في النهاية تمكنوا من فتح ملف باسم (هادي) في المستشفى وحجز موعد مع استشاري للأمراض الجلدية والتناسلية وخلال انتظارهم أمام عيادة الطبيب في الطابق الثالث قال (هادي): لِم يتخصص هذا الطبيب في الأمراض الجلدية والتناسلية معاً؟

(هلال): أعتقد أن هذين التخصصين مرتبطان ببعضهما.. لا أعرف

(هادي) بقلق: هل مرضي له علاقة بمرض تناسلي؟

(هلال) وهو يضحك: لا توسوس .. إلا إذا كنت قد اقترفت شيئاً دون علمي

(هادي) بتوتر: لا لا أقسم لك بذلك!

(هلال) وضحكه يرتفع: ما بك؟! أنا أمازحك فقط.. أعرف بأنك بريء كالطفل

(هادي) بتجهم: ماذا تقصد؟

خرجت إحدى الممرضات ونادت على (هادي) فنهضا وتوجها ودخلا إلى الطبيب..

جلس الاثنان أمام طبيب كبير في السن ولم يكن يحمل على وجهه ورأسه شعرة سوداء واحدة وكان يتفحص التحاليل التي أحضرها (هادي) معه من طبيبه الذي كشف عليه في بلده وبعد قليل تحدث الطبيب بالعربية وقال: سوف نجري المزيد من الفحوصات والتحاليل بالرغم من أن الحالة واضحة

(هلال) بتعجب: هل تتحدث العربية؟

(الطبيب): نعم فقد عملت عدة سنواتٍ في الخليج وكثير من مرضاي عرب

(هادي): وما الحالة يا دكتور؟

(الطبيب): كما كُتب في تقرير الطبيب السابق.. حالة "الوبيكا اريتا" لكنها متقدمة

(هلال): وما هو العلاج؟

(الطبيب) وهو يحرر ورقة للمختبر: سنتحدث عن ذلك عندما تقوما بهذه التحاليل

(هادي): ومالحاجة للتحاليل إذا كانت الحالة واضحة؟

(هلال) وهو يشير لـ(هادي) بالصمت: حسناً يا دكتور.. وكم سيستغرق الأمر من وقت؟

(الطبيب) وهو يمد الورقة للممرضة التي كانت تقف بجانبه: ساعتين فقط.. اتبعوا الممرضة وهي سترشدكم للمختبر وتعود بالنتائج لي

نهض الاثنان ولحقا بالممرضة وقام (هادي) بتزويد المختبر بالعينات التي طلبوها ثم خرج وجلس بجانب (هلال) الذي كان ينتظره بالخارج وقال: لا أعرف ما ضرورة هذه التحاليل المكلفة!

(هلال): ألم تسمع ما قاله الطبيب.. أغلب زبائنه من العرب وسوف يستغل كل فرصة كي يجني المال منا

(هادي) بعصبية: هل هذا طبيب أم جابي؟

(هلال) ضاحكاً: هذه الأيام لا يوجد فرق كثير

(هادي) بعبوس: لازلت لا أرى فائدة من تلك التحاليل!

(هلال): لاحظت شيئاً غريباً في هذه البلد..

(هادي) وهو لايزال متجهماً: ماذا لاحظت؟

(هلال): منذ أن نزلنا من الطائرة الكل استقبلنا بابتسامة.. السائقون.. موظف استقبال الفندق.. نادل المطعم.. الطبيب.. الممرضة.. جميعهم بلا استثناء يبتسمون على الدوام

(هادي): الابتسام بلا سبب حماقة

(هلال) مبتسماً: بل أنت الأحمق يا صديقي.. أنت تبحث عن علاج لمرضك وغيرك يقي نفسه من الأمراض بابتسامة

(هادي) بتجهم: ما معنى هذا الكلام؟!.. هل تقصد أن مرضي كان بسبب نفسيتي السيئة؟!.. التبسم بسبب أمر ثقيل بحد ذاته فما بالك بلا سبب؟!

(هلال): إذا كان الابتسام للناس أمراً ثقيلاً عليك فأنت تحمل في جوفك مرضاً لا يُرجى شفاؤه..

(هادي) بعصبية: إذاً أنا محق! وأنت تعيرُني بمرضي!

(هلال): مبتسماً: اصمت.. اصمت فأنت لا تفهم شيئاً..

بعد مضي الساعتين اتصل المختبر بالممرضة وسلمها نتائج التحليل وقد قامت بدورها بالإشارة لـ(هادي) بأن يتبعها لعيادة الطبيب وبعد جلوسهم أمامه وتفحصه لنتيجة التحليل قال: تحاليلنا تؤكد حالتك وتتطابق مع التحاليل التي أحضرتها معك

(هادي): وما الخطوة التالية يا دكتور؟

(الطبيب) وهو يخلع نظارته: مرضك لا علاج له

(هلال) بغضب: ماذا؟!.. لقد قطعنا مسافة طويلة كي نصل إلى هنا وتقول أن المرض لا علاج له؟!

(الطبيب): ومن أخبرك بأني قمت بعلاج هذا المرض من قبل؟

(هادي): صديق لنا تعالج من المرض في ((الهند)) وعلى هذا الأساس أتينا إليك

(الطبيب): وهل أخبركم أنني من قمت بعلاجه؟

(هادي): لا

حدق الطبيب في الأوراق أمامه لثوانٍ ثم أمر الممرضة بالخروج وبعد إغلاقها للباب قال: لا يوجد علاج معترف به لهذا المرض..

(هلال): ماذا تقصد بمعترف به؟

(الطبيب): اسمعا.. علمياً هذا المرض لايزال مجهول الأسباب والعلاج لكن..

(هادي): لكن ماذا؟

(الطبيب) وهو متردد بالحديث: يمكنني ان أدلكم على معالج آخر..

(هلال): جيد.. في أي مستشفى يعمل هذا الطبيب؟

(الطبيب): هو ليس بطبيب بالمعنى المتعارف عليه ولا يعمل بمستشفى

(هادي): لِم لا تتحدث بوضوح أكثر؟

(هلال) وهو يحدق بالطبيب مبتسماً ويوجه كلامه لـ(هادي): لا لا.. أعتقد أني فهمت مقصده.. يريد المزيد من المال

(الطبيب) متجاهلاً تعليق (هلال) ويبدأ بالكتابة في ورقة

صغيرة: هذا معالج شعبي معروف عندنا وقد عالج حالات كثيرة مشابهة لحالتك..

(هادي) باستنكار: معالج شعبي؟.. طبيب وتنصح بالعلاج الشعبي؟

(هلال) بسخرية: ما فائدة سنوات دراستك وشهاداتك المعلقة خلفك إذا كنت ستنصح مرضاك بمشعوذ؟

(الطبيب) وهو يمد الورقة لـ(هادي): أنت في الهند ونحن هنا لا نغلق عقولنا..

(هادي) وهو يأخذ الورقة بتعجب: ماذا تقصد؟

(الطبيب): أقصد بأن هذا الرجل عالج الكثير من الأمراض المستعصية التي وقف العلم عاجزاً أمامها ولا نعرف السر وراء قدرته على ذلك لكن هذا لا يمنع أن طرقه ناجحة مع أغلب المرضى الذين لجأوا إليه

(هلال): وما مصلحتك من الترويج له؟

(الطبيب):عندما يشفى صاحبك من المرض سوف يأتي غيره طلباً للعلاج في بلادنا مثلما كان شفاء صاحبكم سبباً في قدومكم.. لا نريد أن تعودوا خائبين

(هادي) وهو ينظر للورقة التي كانت مكتوبة باللغة الهندية: هل عالج حالة مثل حالتي من قبل؟

(الطبيب): لست أول من أحيله إليه وفي الغالب صاحبكم الذي تحدثتم عنه تعالج عنده لأن هذا المرض وكما أخبرتك لا علاج لها في الطب الحديث

(هلال) لـ(هادي): ما رأيك؟

(هادي) وعيناه لا تزالان تحدقان بالورقة: لا يمكنني العودة لزوجتي بهذا الشكل.. سنجرب

نهض الاثنان من أمام الطبيب بعدما شكروه وخرجوا من العيادة وبعد خروجهما من بوابة المستشفى أوقفا سيارة أجرة وبمجرد ما أن مدا العنوان للسائق ألقى نظرة للورقة وقال مبتسماً: "أروجي"!

(هلال) وهو يركب بجانب السائق: يبدو أنه عرف العنوان

(هادي) وهو يركب في المقعد الخلفي: لِم هو سعيد هكذا؟

(هلال) وهو يشير للسائق بالتحرك هيا انطلق!

(السائق) وهو يمسك بالمقود ويهز رأسه بسعادة: "أروجي"!..

"أروجي"!

(هلال) بابتسامة مصطنعة: نعم نعم "أروجي"

انطلق السائق بالسيارة وتوجه لضواحي خارج المدينة وكان صوت المذياع مرتفعاً خلال قيادته فقال (هادي): أخبره بأن يخفض صوت المذياع!

(هلال) وهو يهز رأسه مع أنغام الأغنية: لماذا؟ الأغنية جميلة؟!

لاحظ السائق اندماج (هلال) مع الأغنية فرفع صوت المذياع أكثر ورفع إحدى يديه وبدأ بالرقص على الأنغام.

(هادي) وهو يحدث نفسه بغضب: متي ينتهي هذا اليوم؟

بعد ساعة تقريباً من السير في إحدى ضواحي ((مومباي)) القديمة توقف السائق أمام منزل اكتظت أمامه حشود كبيرة من الناس فأغلق المذياع وأشار للمنزل مبتسماً وقال: "أروجي"!

(هلال) وهو يطل برأسه من النافذة نحو المنزل المفتوح والمملوء بالناس داخله وخارجه: يبدو أننا وصلنا

(هادي) وهو يطل من النافذة الخلفية نحو المنزل: ما هذا الزحام؟

(هلال) وهو يحاسب السائق ويهم بالنزول: ذكرني هذا التجمع بالتجمعات التي تحدث عندنا على الشيوخ الذين يقرأون على الناس

(هادي) وهو ينزل خلفه: هل هذا المعالج مسلم؟

(هلال) وهو يشير لتمثال أزرق كبير بجسد رجل بأربعة أذرع ورأس فيل: لا أظن..

(هادي) بتوجس: هل يجوز أن نطلب العلاج من شخص كهذا؟

(هلال) وهو يبحث بنظره بين الحشود عن ثغرة للدخول: ماذا تقصد؟

(هادي): أقصد أنه من الواضح بأنه غير مسلم وهذا الأمر يقلقني

(هلال) وهو لايزال يبحث بنظره: على الأقل سنضمن بأنه رخيص ولن يطلب الكثير

(هادي): كيف تعرف ذلك؟

(هلال) وهو يشير للناس المتجمعة عند مدخل المنزل وحوله: انظر لنوعية المرضى الذين يراجعونه.. هل تظن أنهم يستطيعون دفع مبالغ باهظة.. لا أستغرب إذا كان يتقاضى أجرته بالبيض

خلال وقوفهما تقدم رجل بجلباب أبيض نحوهما وتحدث معهما بالإنجليزية وقال: هل أنتما هنا لمقابلة المعالج الكبير؟

(هلال): نعم.. كم قيمة الكشف؟

(الرجل) وهو يبسط كفه تجاه المدخل: تفضلا

سار الاثنان نحو المدخل لكن (هادي) كان قلقاً ومتوجساً وينظر حوله وهو يتجاوز المرضى البائسين الذين عج بهم المكان حتى دخلوا المنزل وأرشدهم الرجل إلى غرفة خالية وطلب منهما الجلوس والانتظار. طال انتظارهما وبعد مدة عاد الرجل وأشار إليهما للحاق به.

(هادي) بتذمر: هل سننتظر في غرفة أخرى؟

(هلال) وهو يتبع الرجل: لا.. أظن أننا سنقابل المعالج أخيراً

وبالفعل دخل الاثنان على رجلٍ عجوزٍ بلحية بيضاء طويلة جداً وشعرٌ أبيض طويل لامست أطرافه الأرض لكن قمة رأسه

كانت صلعاء. كان العجوز متكئاً على عصا خشبية ومتشحاً بخرقة بيضاء بالكاد غطت عورته وتجلس بجانبه امرأة في الأربعين من عمرها تلبس ساري برتقالي اللون بأطراف خضراء ومذهبة. نظر (هادي) للرجل الذي لم يوجه نظره إليهما بل كان سارحاً في الأرض أمامه وقال: هل هذا الأصلع هو من سيعالجني من الصلع؟

ردت السيدة التي كانت تقف بجانب الرجل العجوز وقالت بالعربية: المعالج الكبير لا يحتاج للشعر مثلك..

انصدم (هادي) من رد المرأة وشعر بالحرج وقال: أعتذر على كلامي لم أقصد السخرية منه

(هلال) موجهاً كلامه إليها: ما المطلوب منا الآن وكم قيمة العلاج؟

(السيدة): المعالج الكبير لا يتقاضى الأموال مقابل علاجه

(هلال) لـ(هادي) مبتسماً: ألم أخبرك بأننا لن نخسر شيء؟

بدأ العجوز بالتمتمة بكلمات لم تكن مفهومة لـ(هادي) و(هلال) لكن خلال تمتماته قال: "هاتي"..

(هادي) باستغراب: كيف عرف اسمي؟

(هلال) وهو يراقب العجوز وهو يتمتم: لا تستعجل فقد يكون علاجك تناول لحم فيل

(هادي) بعصبية: هذا ليس وقت المزاح!

(السيدة): المعالج الكبير يقول بأنك أتيت من بلاد عربية واسمك (هادي)..

(هادي) بتعجب شديد: كيف علم بذلك؟

(هلال) وهو يهمس لـ(هادي) بتهكم: أنا متأكد بأن الطبيب الذي أرسلنا هو من أخبرهم بتلك المعلومات ولا أستبعد أنهم عصابة متفقون على اصطياد المرضى اليائسين مثلك

(السيدة) وهي تبتسم: ويقول أيضاً بأن أمك اسمها (كريمة) وأختك اسمها (هند) وأخاك اسمه..

(هادي) وهو يرفع يده بتوتر: كفى!.. كفى! نحن نصدقه

(هلال): ما الحكمة من استعراض شجرة عائلة رفيقي؟.. نحن هنا نبحث عن علاج لعلته

نهض العجوز وبدأ بالسير تجاه (هادي) المرتعب منه وعندما وقف أمامه وضع يده على رأسه ورفع يده الأخرى الممسكة

بالعصا وقال بصوت مرتفع: "باكرا"!

(هادي) وهو متوتر بشدة: ماذا يقول؟

(هلال): أعتقد أنه يطلب "بقرة"

(السيدة): بل يطلب "ماعز"

(هادي) ويد العجوز لاتزال على رأسه: ماعز؟

(السيدة): نعم كقربان

(هلال) بتجهم: قربان لمن؟!

(السيدة): لمن سيعالجكم

(العجوز) بصوت مرتفع: "باكرا"!

(هادي) وهو يبعد يد العجوز عن رأسه ويوجه كلامه للسيدة: هل هذا ضروري؟

ضرب العجوز بعصاه رأس (هادي) وصرخ فيه قائلاً: "باكرا"!

(هلال): ومن أين لنا بماعز؟!

أشارت السيدة بيدها فدخل رجلان يجران خلفهما ماعزاً أبيض أقرن وقالت وهي تمد سكيناً لـ(هادي): قدم القربان

تردد (هادي) في أخذ السكين فتناولها (هلال) بدلاً عنه وقال: وماذا بعدما نذبح الماعز؟.. هل سنذبح دجاجة؟

بدأ العجوز بالصراخ في (هلال) عندما رآه يأخذ السكين فقالت السيدة: يجب أن يقوم صاحبك بالذبح وليس أنت

(هادي) بتوتر: أنا؟.. وما الفرق؟

(هلال): أنا من سيقوم بذلك

(السيدة) لـ(هلال): لن يفيدك العلاج إذا قام صاحبك بالأمر عوضاً عنك

نظر (هادي) بحسرة إلى أخ زوجته ومد يده وأخذ منه السكين..

(هلال): هل قررت الإقدام على ذلك؟

(هادي) وهو يشد الحبل المربوط بعنق الماعز: لا خيار أمامي إذا كنت أريد أن أتماثل للشفاء

(هلال): لست مضطرا لذلك.. يمكننا العودة لو رغبت

(هادي) وهو يحدق بحدقة الماعز المستطيلة: لا يمكنني العودة لزوجتي هكذا

(هلال): لا تضع أختي سبباً لما أنت مقدم عليه

(هادي) وهو يلتفت حوله: أين القبلة؟

(هلال): أي قبلة؟.. أنت ستذبح لغير الله وتسأل عن القبلة؟

(هادي) وهو يهمس لـ(هلال): سأنويها لله في قرارة نفسي

(هلال) وهو يلتفت خلفه: هناك على ما أعتقد.. تجاه المدخل

بدأ (هادي) بجر الماعز كي يستقبل القبلة لكن العجوز عاود الصراخ والتمتمة بصوت مرتفع فقالت السيدة: المعالج الكبير يأمرك بأن تذبح في المكان المخصص

(هلال): وأين هو هذا المكان المخصص؟

أشارت السيدة لتمثال أسود لرجل متقرفص يلبس الحلي من الذهب وخلفه سبع تماثيل أخرى لرؤوس أفاعي الكوبرا وقالت: هناك.. تحت "زينو"

(هلال) وهو يهمس لـ(هادي): هذا المكان عكس القبلة تماماً وتحت صنم هندوسي.. هل أنت متأكد من أنك لازلت تريد القيام بذلك؟

(هادي) وهو يرمي السكين على الأرض ويترك لجام الماعز: لا

بعدما رأى العجوز ما حدث أشار إلى بعض الرجال بالإمساك بـ(هادي) و(هلال) واللذين حاولا المقاومة لكنهما لم يستطيعا التفلت فصرخ (هلال) في السيدة قائلاً: ماذا تريدون منا؟!.. لم نعد نريد علاجكم!

(السيدة): يجب أن تدفعا ثمن ما أهدرتماه

(هلال) بصوت مرتفع: إذا كنتِ تتحدثين عن ثمن الماعز فسوف ندفع لكم أضعاف قيمته!

(السيدة): لا.. الثمن الذي نطلبه ليس مالاً

(هادي) بقلق: ماذا تريدون إذاً؟

لم ترد السيدة عليهما واكتفت بالإشارة للرجال الممسكين بهما وهم بدورهم ساقوا الاثنين إلى غرفة داخلية مظلمة وقاموا بربطهما ورميهما على الأرض وإغلاق الباب خلفهم.

(هادي) وهو مربوط على الأرض: مالذي سيحدث لنا؟

(هلال): لا أعرف فهؤلاء القوم يبدو أنهم مجانين

(هادي) بنبرة ندم: كان يجب أن لا نأتي إلى هنا

(هلال): أنا المسؤول عن ما يحدث لنا؟

(هادي): كلانا مسؤول عن ما حدث

(هلال): أنا من أصر على الدخول وأنت كنت متردداً وكان معك حق لكني أقنعتك بالمضي قدماً

(هادي) وهو يتفحص بنظره المكان المظلم حوله: هذا ليس وقت العتاب يجب أن نركز تفكيرنا على الخروج من هنا وبسرعة

انقطع حديثهما عندما فتح الباب ودخلت السيدة التي كانت مع الرجل العجوز ومعها شخص آخر يحمل حقنتين وقالت: ستبقيان معنا بضعة أيام حتى تصبحا جاهزين

(هلال) بصوت مرتفع: جاهزان لماذا؟! حلّوا وثاقنا وأخرجونا من هنا فوراً!

أشارت السيدة للرجل الذي كان معها فتوجه نحو (هلال) وحقنه بإحدى الحقن التي كانت معه فصرخ بعصبية قائلاً: ماذا تفعل؟!

(السيدة) مبتسمة: هذا مهدئ بسيط سيساعدكم على النوم وسوف نحل وثاقكما بعدها كي تتحركا على راحتكما

غط (هلال) في النوم فتوجه الرجل إلى (هادي) وحقنه هو الآخر..

(هادي) بوجه متوجع: هل ستقتلوننا؟

(السيدة): ليس تماماً..

(هادي) وقد بدأت عيناه تنعسان: ماذا تقصـ..؟

غط (هادي) في نومٍ عميق فخرجت السيدة والرجل وأغلقا الباب خلفهما بعدما حلا وثاقهما..

بعد عدة ساعات فتح (هادي) عينيه عندما أيقظه (هلال) فأحس بالخوف والفزع لأن المكان كان مظلماً ولم يكن هناك أي مصدر للضوء سوى من خلال شق صغير في الجدار وعندما استوعب (هادي) أن من كان يوقظه هو أخ زوجته قال بتوتر: أين نحن؟

(هلال) وهو يجلس بجانبه: هل نسيت؟ نحن محبوسون عند ذلك المعالج المجنون

(هادي) وهو يعتدل في جلسته ويسند ظهره للجدار: كم غبنا عن الوعي؟

(هلال): لا أعرف لكن يبدو أنها فترة ليست بالقصيرة

(هادي) وهو يستنشق الهواء باشمئزاز: ما هذه الرائحة؟

(هلال) وهو يشير لدلو في زاوية الغرفة: لقد اضطررت لقضاء حاجتي هناك.. أعتذر

(هادي) ومعالم المكان بدأت تتضح له قليلاً بعد اعتياد عينيه على الظلام: لا بأس.. هل عاد أحدهم خلال نومنا؟

(هلال): يبدو ذلك فعندما استيقظت وجدت ذلك الدلو ووجدت شيئاً آخر

(هادي): ماذا وجدت؟

(هلال) وهو يشير لقارورة زجاجية كانت أمامه: تلك القارورة وقد شربت منها لشعوري بالعطش الشديد

(هادي) وهو يحبو تجاه القارورة: ماء؟ الحمد لله فأنا أشعر بالعطش الشديد أيضاً

(هلال) يراقب (هادي) وهو يشرب من القارورة: لا ليس ماء..

بصق (هادي) ما شربه وقال بصوت مرتفع: ما هذا؟!

(هلال): أعتقد أنه عصير ليمون.. وغير محلى أيضاً

(هادي) وهو يلعق شفتيه بلسانه بتقزز: ولِم يحضرون لنا عصير ليمون؟

(هلال): لا أعرف لكن هذا ما لدينا الآن

(هادي) وهو يضع القارورة جانباً: لن أشرب منها فمعدتي لن تتحمل تلك الحموضة

نهض (هلال) وتوجه لشق الجدار الذي يصدر بصيص النور البسيط ووضع كفه بجانبه وحاول النظر من خلاله وهو يقول: لا تقلق سنخرج من هنا قريباً

(هادي): ولِم أنت واثق هكذا؟

(هلال) وهو يتفحص الشق الجداري بعينه: لا يمكنهم إبقاءنا هنا للأبد

(هادي): هل تعتقد أنهم سيقتلوننا؟

(هلال) وهو يلتفت إلى (هادي): لا أظن.. لو كانوا يريدون ذلك لتخلصوا منا في الحال

(هادي): ربما ينتظرون الوقت المناسب

(هلال): لا أعرف لكن أنا مطمئن

(هادي): وما المطمئن في وضعنا هذا؟

(هلال) وهو يجلس أمام (هادي): جوازاتنا لازالت في النُزل ولاشك بأنهم سيبلغون الشرطة لو لم نعد خلال أيام

(هادي): ومالفائدة؟ نحن في مكان مجهول ولم نبلغ أحداً بقدومنا إلى هنا

(هلال): الطبيب الذي أعطانا العنوان يعرف ولابد أن الشرطة ستسأله

(هادي): نحن لسنا في فلم يا (هادي) هذا البلد كبير ولا أظن أن الشرطة ستبذل جهداً لإيجادنا ثم ما الذي سيقودهم للطبيب فلا أحد يعرف بأننا لجأنا إليه

(هلال): لا تيأس

(هادي): أنا لست يائساً لكني أحاول التفكير بمنطقية

بعد ساعات من استيقاظهما بدأ الاثنان يسمعان بعض الأحاديث القادمة من الغرفة المجاورة لهما ولم يفهما منها شيئاً لأنها كانت باللغة الهندية لكنهما تعرفا على أصوات المتحدثين فقد كانت السيدة من ضمنهم بالإضافة للعجوز المعالج وشخص ثالث بدا صوته مألوفاً.

(هلال) وهو ينصت للحديث: أعتقد أني سمعت صوت هذا الرجل من قبل

(هادي) وهو ينصت مع (هلال): نعم صحيح حتى أنا أتذكر بأني سمعت صوته من قبل

توقف الحوار الدائر في تلك الغرفة وبعد دقائق فُتح الباب عليهما ودخلت السيدة ومعها خمسة رجال يحمل أحدهم حقنتين في يده وقالت: حان وقت الدواء

تراجع الاثنان لأقصى المكان وأسندا ظهريهما للجدار وقال (هلال) بغضب وبصوتٍ مرتفع: إلى متى تنوون إبقاءنا هنا؟!

(السيدة) وهي تشير للرجال بالإمساك بهما: إلى أن نحصل على ما نريد

تحرك الرجال نحو (هادي) و(هلال) وأمسكوا بهما وثبتوهما بينما تقدم الخامس والذي كان يحمل الحقن وحقنهما ولم يتركوهما حتى خارت قواهما وغطّا مرة أخرى في نوم عميق. استيقظ الاثنان بعد مدة غير معلومة لهما وكما حدث معهما في السابق وجدا عصير الليمون والدلو فقط أمامهما ولأن العطش والجوع قد تمكن منهما هذه المرة شربا القارورة بالكامل

بالرغم من حموضة العصير. استمر هذا الروتين لعدة أيام بين تخدير إجباري واستهلاك لكميات كبيرة من عصير الليمون على مضض. فقد (هادي) و(هلال) بعض الوزن وفقدا أيضاً بعض قوتهما وأصبحا أكثر تعاوناً مع من كان يحقنهما بالحقن وبدأ اليأس يتمكن منهما حتى أنهما وفي أحد المرات التي دخلت فيها السيدة عليهما مع رجالها أخبروها بأنها إذا كانت تخدرهما كي لا يقاوما فهي ليست مضطرة لذلك بعد الآن وأنهم سوف يتعاونان معها ولن يقاوما وبالفعل توقفت جلسات التخدير واقتصر الأمر فقط على استبدال قارورة العصير الفارغة والدلو الممتلئ بمخلفاتهم والتي تناقصت مع مرور الأيام بسبب حمية عصير الليمون. بعد مضي عشرة أيام تقريباً فُتح الباب عليهما وهما مستلقيان على الأرض لكن هذه المرة لم تدخل السيدة كما اعتادا بل دخل عليهما رجل لم يتمكنا من رؤية وجهه بالكامل بسبب الظلام لكنه عندما تحدث معهما بالعربية تعرفوا عليه فوراً فقد كان الطبيب الذي زاروه في المستشفى وأعطاهما عنوان المعالج فقال (هلال) بحماس يخالطه التوتر: أرجوك يا دكتور ساعدنا على الخروج من هنا!

(الطبيب) مبتسماً: لا يمكنني ذلك الآن فقد أغضبتم المعالج بعدم تنفيذ ما طلبه منكما

(هادي): وهل سيبقينا هنا الى أن نموت كعقاب لنا؟

(الطبيب) وهو يشير إلى رجلين كانا يقفان خلفه: لا.. سوف تنتهي معاناتكما قريباً

دخل الرجلان وأمسكا بـ(هلال) ورفعاه وبدآ يسوقانه للخارج ولم يقاومهما لأنه كان منهكاً جداً..

(هادي) وهو يحاول النهوض ببطء وثقل: إلى أين تأخذانه!

(الطبيب) وهو يغلق الباب: لا تقلق سوف تلحق به قريباً

بدأ (هادي) يضرب الباب بقبضته وينادي على (هلال) لكن لم يجبه أحد..

بعد ساعات طويلة أمضاها (هادي) في التفكير بقلق وخوف على مصير (هلال) فُتح الباب فنهض وعيناه تترقب فدخل رجلان وأمسكا به ودخل خلفهما الطبيب وهو يلبس كمامة طبية وملابسه دامية وأشار بيده لمن كان في الخارج فدخل رجل يدفع سريراً استلقى عليه (هلال) وكانت الضمادات تغطي عينيه وخصره وكان فاقداً للوعي فصرخ (هادي) عندما رآه بهذه الحال وقال: ماذا فعلتم به؟!

خرج الرجل الذي كان يدفع السرير ولحق به الطبيب فدفع الرجلان الممسكان بـ(هادي) لزاوية الغرفة وخرجا وأغلقا

الباب خلفهما. نهض على عجالة وتوجه لصاحبه وبدأ يتفحص جسده في العتمة ومع تأقلم عيناه على الظلام اكتشف بأن ذلك الطبيب قد أجرى له عملية ما في عينيه وظهره. لم يمضِ (هادي) وقتاً طويلاً في التفكير حتى أدرك أنه لابد أن ينقذ نفسه مع صاحبه ويجب عليه أن يخرج من هذا المكان قبل أن يلاقي نفس المصير. لم يستيقظ (هلال) لكن من الواضح أنه كان يحتضر فالضمادات كانت تنزف وكان جلياً أنها لم تلف بعناية لذا وعندما فُتح الباب كالعادة لاستبدال قارورة عصير الليمون والدلو اندفع (هادي) بكل قوته وضرب الرجلِ الذي حاول الدخول إليه فسقط على الأرض وبمجرد خروجه من الغرفة رأى رجلاً آخر وبالرغم من ضعفه إلا أنه تمكن من مقاومته وضربه بالقارورة التي سقطت من الرجل الأول ليفقد الوعي هو أيضاً. جرى (هادي) وهو يترنح في ممرات المكان حتى شاهد باباً مفتوحاً يقود للخارج فخرج مسرعاً ليجد نفسه في شارع مزدحم بالناس فلم يتوقف واستمر بالجري بلا شعور بين الناس حتى أوقف سيارة أجرة وركب في المقعد الأمامي وصرخ في السائق بالتحرك لكن السائق تجمد من الخوف لأنه لم يفهم كلامه. دفع (هادي) السائق ورمى به على قارعة الطريق وقاد السيارة بسرعة مبتعداً عن المكان.

لم يمضِ وقت طويل حتى استوقفته الشرطة وقبضت عليه وأخذته للقسم للتحقيق معه. حاول (هادي) أن يشرح لهم ما حدث معه وأنهم لابد أن يعودوا لإنقاذ صاحبه لكن محاولاته باءت بالفشل بسبب حاجز اللغة. تذكر (هادي) رقم (حامد) فأخرجه من جيبه ومده للضابط الذي كان يحقق معه وأشار له بالاتصال عليه وبالفعل تم الاتصال به وطُلب منه الحضور. حضر (حامد) وقام بترجمة أقوال (هادي) للشرطة فتحركوا فوراً لمكان المعالج وقاموا بمداهمته وأرسلوا فرقة أخرى للقبض على الطبيب في مقر عمله بالمستشفى. وصلت الشرطة إلى منزل المعالج لكنهم وبعد تفتيشه وجدوه خاوياً. دخل (هادي) مع الشرطة للغرفة التي حُبس فيها مع (هلال) لكنها كانت خالية أيضاً. وجدت الشرطة بعض الأدوات الطبية في غرفة مجاورة فتحدث الضابط مع (حامد) الذي كان مرافقاً لهم خلال المداهمة فسأله (هادي) بقلق: ماذا يقول؟

(حامد): يقول بأنه من الواضح أنهم كانوا عصابة للاتجار بالأعضاء البشرية وقد فروا بعد هروبك منهم وهذا أمر مألوف

(هادي) بعصبية وصوت مرتفع: أمر مألوف؟!.. هل يعني ذلك أنهم لن يبحثوا عن (هلال)؟!

(حامد): الضابط لم يقل ذلك لكنه يقول أن وجود عصابات الاتجار بالأعضاء البشرية أمر ليس بالغريب في هذه الأرجاء

(هادي) بتوتر: ماذا عن الطبيب؟ ألم يقبضوا عليه؟! بالتأكيد هو يعرف مكانهم!

مرر (حامد) سؤال (هادي) للضابط لكنه هز رأسه بالنفي في إشارة منه بأنهم لم يجدوا الطبيب أيضاً. انهار (هادي) في المكان وبدأ بالبكاء. خرجت الشرطة وحاول (حامد) مساعدته على الوقوف وهو يقول: لا تقلق سوف نجد صاحبك لكن يجب أن تتماسك

(هادي) وهو في حالة مزرية: ماذا سأقول لأخته الآن؟!

بعدما عاد الجميع لمركز الشرطة استكملوا المحضر وأخذوا أقوال (حامد) و(هادي) وأخلوا سبيلهما ونصحوا (هادي) بالعودة لوطنه ريثما ينتهي التحقيق.

(هادي): كيف أعود و(هلال) لازال مفقوداً؟!

(حامد): سفارة بلدكما هي من سيتابع الموضوع الآن.. إذا أردت سوف آخذك للسفارة كي تعرف الإجراء المناسب في مثل

هذا الحالات

خرج الاثنان من قسم الشرطة وتوجها للسفارة..

توقف السفير الهندي عن سرد الحكاية للموظف عند هذه النقطة لكن الموظف سأله مستغرباً: لكن يا سيدي التقرير يذكر بأن الاثنين مفقودان وليس شخصاً واحداً فقط

(السفير الهندي): نعم فبعد خروج (هادي) مع (حامد) من مركز الشرطة اختفيا ولم تتمكن الشرطة من التواصل معهما والسفارة أفادت بأنهما لم يراجعاها

(الموظف) بتعجب: اختفوا؟.. أين ذهبوا؟

(السفير الهندي): بعد أسابيع من التحقيق اكتشفنا أن (حامد) جزء من تلك العصابة وهو من قادهما لذلك الطبيب كي يرشدهما للمعالج ولم تكن هذه أول مرة يقوم بذلك وبعد القبض عليه والتحقيق معه اعترف بكل شيء وتم القبض على العصابة كلها بمن فيهم الطبيب

(الموظف): وماذا عن (هادي)؟

(السفير الهندي) وهو يغلق الملف: لقي نفس مصير صاحبه وتم بيع أعضائه قطعة بقطعة قبل أن تحصل الشرطة على اعتراف (حامد) ولم يجدوا سوى ما تبقى من جثته في مقرهم الجديد في حيٍ آخر.

الكابوس

م. عبدالوهاب السيد الرفاعي

إنه يوم (الجمعة) الهادئ والمحبب إلى نفوسنا جميعا.. حيث نلتقي في بيت العائلة كما هي العادة.. فتسيطر على المكان الأجواء الحميمة ونحن نجلس في الصالة الواسعة نتناول الغداء ونتحدث حول أمور شتى.. لننهض بعدها واحدا تلو الآخر للاغتسال ومن ثم الاتجاه إلى غرفة المعيشة كي نقضي بقية الوقت ونستكمل حديثنا.. أنظر إلى أشقائي بشرود وهم بحالة استرخاء.. زوجتي تتحدث مع شقيقتي باهتمام حول أمر ما.. أما الأبناء فيستكملون النقاش بحماس حول مباراة لكرة القدم انتهت منذ يومين.. والفتيات فضلن الذهاب للاجتماع في إحدى الغرف للحصول على بعض الخصوصية.

ألتفت إلى والدتي -أطال الله في عمرها- التي تجلس بهدوء وتراقب كل هذا بابتسامة حنون كما هي عادتها أثناء زيارتنا لها.. لأنهض من مكاني وأجلس بجانبها.. أحيطها بذراعي وأقبل رأسها وأشكرها على كل شيء.. فتبتسم وتخبرني كم تتمنى لو كان أبي -رحمه الله- بيننا.. وتتحدث عن اشتياقها الشديد إليه رغم مرور سنوات طويلة على وفاته.. فأنظر إليها متأثرا وأترحم بدوري على والدي الذي توفي وأنا في السادسة من العمر بسبب السرطان الذي التهم جسده وهو في عز شبابه..

خاصة مع ضعف الرعاية الصحية آنذاك.. للأسف لا أذكر ملامحه جيدا لولا بعض الصور التي نمتلكها له.

أتنهد وأقبل رأسها مرة أخرى.. أطلب منها ألا تقلق كوننا نهتم جميعا لأمرها ونزورها باستمرار.. نعم.. إنها تعيش وحيدة مع الخادمة.. فالبيت ضاق كثيرا على شقيقي الأصغر الذي كان يعيش معها لكنه اضطر في النهاية للخروج والانتقال مع أسرته إلى بيته الجديد.. وبالطبع رفضت والدتي رفضا قاطعا أن تنتقل لتسكن عند أي منا كونها لا ترغب أبدا بترك البيت الذي يحمل رائحة أبي كما تقول دوما.

يقع بصري على جدران البيت القديمة المتشققة.. حقا أننا نسكن الأماكن ونتركها.. لكن بعض الأماكن تسكننا ولا ترحل منا.. إنه بيت العائلة الحبيب المتهالك الذي يحمل بين زواياه كل ذكرياتنا.. قبل أن أتركه في سن السادسة والعشرين بعد زواجي.. حيث أسست أسرة رائعة تتكون من 4 أبناء كبروا جميعا وأصبح أصغرهم طالبا في المرحلة الثانوية.. وأكبرهم ابنتي التي تزوجت منذ سنوات قليلة وأنجبت لي أول حفيدة.

مؤلم أننا نعيش أحلى أيام العمر.. لكنا لا ندرك ذلك إلا بعد

أن تتحول تلك الأيام إلى ذكريات.. هل أنا سعيد في حياتي الآن؟!.. بالمجمل نعم.. فأنا في الثالثة والخمسين من العمر وقد تقاعدت منذ فترة بسيطة شاعرا أنني حققت كل ما أتمناه في حياتي.. لكني أمر بلحظات من الحنين للماضي بين وقت وآخر.. خاصة حين أزور بيت العائلة.. إذ ينتابني ذلك الشعور بالغربة.. إنني في نفس البيت الذي عشت فيه سنوات طفولتي وشبابي.. أستخدم نفس الأثاث.. ونفس العبق يملأ أنفي.. الشيء الوحيد الذي تغير هو أنا!!.. أعبث في هاتفي قليلا لأنتبه أن الساعة تقترب من الثالثة والنصف عصرا.. أريد أن أفعل شيئا غير مألوف دون أن أفهم السبب.. فأنهض من مكاني وأخبر زوجتي أنني أرغب بالذهاب مشيا إلى السوق المركزي القريب وسأعود بعد قليل.. إننا في شهر مارس.. والجو مناسب للغاية.

أخرج من البيت وأسير بحزن لا أفهم سببه.. ربما هو حزن معتاد يشعر به كبار السن بين الحين والآخر.. أسير تجاه السوق المركزي وأتذكر تلك اللحظات المقدسة حين كنت أتجه إليه لأشتري ما أشاء من الحلويات.. مؤلم كيف يتغير الزمن.. مؤلم كيف يتغير دائما للأسوأ!!.. خاصة وأن شعور اللهفة الجميل الذي كان يرافقنا دوما في طفولتنا قد تلاشى الآن.

أصل إلى السوق المركزي الذي يبعد عن البيت دقائق قليلة.. أتوقف عنده.. ثم أنتبه إلى أنني لا أرغب بشراء شيء!!.. كل ما بالأمر أنني أشتاق لكل شيء قديم.. أولهم (أنا) في طفولتي. أقرر بعدها التوجه إلى تلك الساحة الترابية حيث كنت أقضي فيها ساعات طويلة باللعب مع أبناء الحي في منتصف ستينيات القرن الماضي.. لقد كانت الساحة موحشة ليلا آنذاك يكتنفها الظلام.. أما الآن فقد امتد إليها بعض العمران والإضاءة.. وتم شق طريق مسفلت يمر من خلالها.

لن أطيل عليكم في وصف ذكرياتي رغم أنها جزء هام من قصتي هذه.. وسأتحدث عما جرى في هذه الليلة بعد أن ودعنا والدتي وعدنا إلى البيت.. حيث مر اليوم عاديا لم أخرج فيه لأي مكان.. بل بقيت مستيقظا بين شاشة التلفزيون والعبث في هاتفي وقضاء بعض الوقت مع أسرتي.. إلى أن مر الوقت بسرعة.. ووجدت أن الساعة اقتربت من الواحدة فجرا.. حيث ذهبْت إلى الفراش وقد سبقتني زوجتي إليه بساعات قليلة.. الظلام يخيم على الغرفة.. والسكون يجعلك تنجذب لا شعوريا للتفكير بأشياء عشوائية.. خاصة وأنت غارق تحت اللحاف وتشعر بدفء حميم.. أحدق في الفراغ

بشرود منتظرا النعاس.. لا أعتقد أنه سيتأخر.. لأني أشعر به يطرق باب يقظتي.. ألتفت إلى زوجتي فأرى حدودها الخارجية وهي غارقة في سباتها.. إنني أنفصل تدريجيا عن الواقع وأغرق بدوري في نوم عميق.

الأحلام.. عالم آخر مختلف مستقل بحد ذاته حيث كل ما فيه غريب.. فتجتمع ذكرياتك وشخصيتك وخبرتك في الحياة لتزورك على هيئة موقف أو قصة تكون غير منطقية أحيانا كثيرة.. هكذا هي الأحلام بوجهة نظري مهما ادعى البعض أنه يمتلك الشفافية ليتصل خلالها بالأموات أو ليرى المستقبل.

لكني أعيش الآن حلما مختلفا بالفعل!!!.. إذ أجد نفسي فجأة في الماضي.. في حينا السكني القديم كما كان في طفولتي.. أرى طفلا صغيرا لا يتجاوز عمره 7 أو 8 أعوام يجلس خائفا في الساحة الترابية التي زرتها عصر أمس خلف السوق المركزي.. لقد كانت بقعة منعزلة في تلك الفترة -كما ذكرت- وأشياء كثيرة قد تحدث فيها ليلا بعيدا عن أعين الناس.. من هو الطفل؟!.. لا أعرفه.. إنه يبكي بشدة ويتوسل لأحدهم ألا يضربه.. المعتدي لا يظهر في الحلم.. ويبدو أنه لم يكترث للتوسلات.. إذ كان يحمل عصا غليظة انهال بها على رأس الطفل.. ضربة قوية

مركزة أصابت منتصف رأسه.. فتفجرت منه الدماء وانتفض جسده بقوة.. ليلفظ أنفاسه الأخيرة بمشهد مخيف.. ثم.. أصحو من النوم وأنا أشهق والعرق الغزير بلل بيجامتي!!!.

زوجتي تشعر بشهقتي وتصحو بدورها قلقة لتسألني إن كنت بخير.. فأخبرها بأمر الكابوس* وكيف كان مفزعا.. لتحتضنني بحنان وتطلب مني العودة إلى النوم.. أحاول أن ألتقط أنفاسي وأسترخي.. أذكّر نفسي أنه مجرد كابوس لا يمت للواقع بصلة.. فأهدأ أخيرا وأذهب إلى النوم.. لكن.. ساعات قليلة أخرى قبل أن يتكرر الكابوس حرفيا!!.. لأستيقظ أيضا وبنفس الطريقة.. شهقة قوية لم توقظ زوجتي هذه المرة لحسن الحظ.. فالتقطت أنفاسي للمرة الثانية ومسحت العرق الذي نبت على جبيني.. ثم أمسكت بهاتفي لأعرف الوقت.. الساعة تجاوزت السادسة صباحا بقليل.. أقرر النهوض من

* مصطلح (كابوس) (Nightmare) يشير إلى الأحلام المزعجة التي يراها النائم والتي تجعله يستيقظ من نومه فجأة خائفا متوترا.. وتعتبر الكوابيس من الأمور الشائعة في حياتنا وتصيب الإنسان في أي عمر.. ويرجع حدوثها أحيانا لارتفاع درجة حرارة الجسم.. وأحيانا أخرى بسبب الوجبات الدسمة كونها تؤدي إلى تحفيز ذبذبات المخ أثناء النوم .. كما أن هناك عدد من الأدوية التي تعتبر الكوابيس أحد أعراضها الجانبية مثل أدوية مضادات الاكتئاب.. ولا ننسى الأسباب النفسية أيضا.. فكثرة الكوابيس قد تشير أيضا إلى حياة غير مستقرة مليئة بالصعوبات والقلاقل يحتاج على إثرها الإنسان الحصول على علاج نفسي.. علما أن مواضيع الكوابيس تختلف من شخص لآخر.. لكن هناك مواضيع متكرره دون سبب مؤكد حتى الآن.. مثل عدم القدرة على الجري للهرب من خطر ما.. أو السقوط من مكان مرتفع.

السرير بعد أن شعرت أنني لن أتمكن من العودة إلى النوم مع تسلل أشعة الشمس عبر ستائر الغرفة.

أذهب إلى الصالة لأجد الخادمة وقد استيقظت للتو.. أطلب منها إعداد القهوة كما هي عادتي كل صباح.. ثم أجلس لأفكر بهذا الكابوس الغريب الذي تكرر مرتين في ليلة واحدة.. هذا لم يحدث لي من قبل!!!.. أحاول أن أتذكر ملامح الطفل.. أن أعرف هوية المعتدي دون جدوى.. عموما.. يبدو أنه مجرد كابوس في النهاية حتى وإن تكرر.. ربما السبب الحنين للماضي الذي شعرت به أمس حين زرت الساحة الترابية كوني لم أذهب إليها مشيا منذ طفولتي.. لذا نسيت الموضوع شيئا فشيئا مع رائحة القهوة التي رحت أشربها مستمتعا بوحدتي.. ولعلمي أن أحدا من أبنائي لن يستيقظ قبل 3 ساعات من الآن على الأقل.

أعتقد أنه من السهل عليك عزيزي القارىء تخمين ما سيحدث.. فعنوان قصتي واضح وصريح.. نعم.. لقد تكرر الكابوس في اليوم التالي.. واليوم الذي يليه.. والذي يليه.. إلخ!!!.. حتى أصبح الأمر مزعجا للغاية خلال الأسبوعين التاليين.. فقد بت أستيقظ يوميا مرتين أو أكثر أحيانا بشهيق يقترب من الصرخة والعرق يملأ وجهي.. وبدأت أسبب قلقا شديدا لنوم زوجتي

أيضا وأنا أوقظها في كل مرة بتلك الشهقة المفزعة التي تخرج مني تلقائيا.. فالكابوس موحش بالفعل.. وصورة الطفل البريء وهو يتعرض للقتل تقلق مضجعي وتجعلني أكره العالم كله.. نحن نشاهد بين الحين والآخر عبر وسائل التواصل الاجتماعي لقطات لطفل تساء معاملته من قبل الخادمة أو حتى من قبل والديه.. فتسوَدّ الدنيا أمامنا لفترة من الزمن قبل أن نتناسى ما حدث.. تخيلوا أن أرى هذا المشهد يوميا في كوابيسي!!!.

زوجتي تجلس معي بعد أيام من تلك الكوابيس المتكررة وتخبرني بضرورة زيارة طبيب نفسي لفهم ما يحدث لي مؤخرا.. أنظر إليها باستغراب وأقول:

- عزيزتي.. لا أظن أن الأمر يستحق.. إنه مجرد حلم.. كيف سيستطيع الطبيب النفسي مساعدتي لمنع تكرار حلم؟!!.

فترد بإصرار:

- ليس حلما.. بل كابوسا.. كابوسا يتكرر دون توقف.. لا شك أن هناك شيئا يستطيع الطبيب النفسي فعله.

أقول مغمغما:

- الكوابيس هي أحلام في النهاية يا عزيزتي.. إنني أعاني من (الأحلام المتكررة)*.. لقد أجريت بحثا عنها في شبكة المعلومات.. فتبين أنها تحدث إذا كانت هناك ضغوط يعيشها المرء بسبب مشكلة ما.. فتخرج تلك الضغوط من عقله الباطن على هيئة كوابيس تزوره بصورة مستمرة.. المشكلة أنني لا أعاني أي ضغوطات!!.. بل أعيش حياة هادئة جدا كما تعلمين.

تصمت زوجتي للحظة.. ثم تقول مصححة:

- ماذا لو لم تكن كوابيس؟!.. بل ذكرى!!.. حادثة عشتها في طفولتك وقد عادت إليك ذكرياتها على هيئة كوابيس.. لا تنسَ أن الأمر بأكمله بدأ بعد ذهابك سيرا إلى السوق المركزي.. ربما أيقظ ذلك شيئا مدفونا في عقلك الباطن منذ سنوات.

---

* كما هو واضح من الاسم.. فإن الأحلام المتكررة (Recurring Dreams) هي التي تزور الإنسان باستمرار بنفس تفاصيلها أو مع بعض الاختلافات البسيطة خلال فترات متقاربة من حياته.. عادة بسبب مشكلة تؤرقه ولم يقم بالعثور على الحل اللازم لها.. أو لأنه مر بتجربة مروعة في طفولته أو في فترة سابقة من حياته وتركت تأثيرها السلبي عليه.. وعادة ما تتلاشى تلك الأحلام مع مرور الأيام.. أما في حالة استمرارها بطريقة تقلق نوم الإنسان.. فعليه حينها اللجوء لطبيب نفسي للحصول على أدوية تساعده على النوم.

فأقول وأنا أهز رأسي نفيا:

- مستحيل.. لأنني وبكل بساطة لا أذكر شيئا كهذا أصلا في طفولتي.. لقد كنت في السابعة من العمر حين بدأت والدتي تسمح لي بالخروج للعب مع أولاد الحي.. وهو عمر يسمح لي بتذكر أي حادثة مخيفة شهدتها آنذاك.

سكتت.. وسكت معها.. فقد خضنا هذا النقاش أكثر من مرة في الأيام الماضية ولم نصل لنتيجة.. ثم.. طرأت في ذهني فكرة بسيطة وبديهية لا أعرف لماذا لم أنتبه لها سوى الآن!!.. أن أزور والدتي وأطرح عليها بعض الأسئلة المتعلقة بطفولتي دون أن أشغل بالها بأمر الحلم.. ربما ستنعش ذاكرتي وتخبرني بشيء نسيته بعد كل هذه السنوات رغم أنني لا أرجح ذلك كما ذكرت.. لكن لا ضرر من السؤال.

في اليوم التالي.. قمت بزيارة والدتي.. وبعد سؤالها عن أحوالها وعما تحتاجه.. بدأت الحديث عن طفولتي بشكل مفتعل.. فوجدَتها -أطال الله في عمرها- فرصة للتحدث عن ذكرياتها.. ثم سألتها في سياق الحديث إن كانت هناك أي مشاكل

تعرضت لها في طفولتي.. أي شيء خارج عن المألوف.. فأكدت لي أن حياتي كانت دوما مستقرة رغم وفاة أبي وعمري لا يتجاوز السادسة كما ذكرت.

ظللت أنظر إليها بشرود دون أن أستمع إلى بقية كلامها.. أفكر بما يجب فعله.. و.. مهلا.. لا أعلم كيف طرأت في ذهني تلك الفكرة!!.. أتحدث عن النبش في الماضي نفسه إن صح التعبير!!.. وعن غرفة المخزن الموجودة تحت الدّرَج المؤدي للطابق الثاني.. فنحن نضع فيها كل ما لا نحتاجه لكننا -وفي نفس الوقت- لا نرغب بالتخلص منه.. نعم.. هناك العديد من ألبومات الصور العائلية القديمة.. ربما سأعثر فيها على إجابات لهذا اللغز.

انتظرْت والدتي لتنتهي من كلامها.. ثم استأذنتها للذهاب إلى المخزن لأرى إن كانت هناك أي ذكريات جميلة للماضي الذي أعادتني إليه بكلامها للتو على حد قولي.. لتشير إلي مبتسمة أن لا بأس.. فذهبت للمخزن لأجده في فوضى عارمة كما هي العادة.. كل شيء مكدس فوق الآخر.. الكثير من أشرطة الفيديو القديمة التي لم نعد نستخدمها.. الكثير من المجلات القديمة.. والكثير من ألبومات الصور العائلية!!!.. ثيابي تتسخ قليلا وأنا

أخرج الألبومات التي غطاها الغبار.. لكني لم أكترث.. بل رحت أتصفحها واحدا تلو الآخر باهتمام.. مجرد صور عائلية قديمة أشعلت في قلبي الحنين للماضي.. أتساءل في قرارة نفسي.. لماذا ننظر إلى صورنا في فترة الطفولة بحزن؟!.. هل لأننا نرغب بالعودة إلى الماضي؟!.. أم لأننا خذلنا أحلام هذا الطفل؟!.. تلاشى السؤال من ذهني واتسعت عيناي ذهولا حين توقف بصري عند صورة معينة التقطتها لي أمي مع مجموعة من الأصدقاء في حينا السكني.. نعم.. هذا الطفل.. إنه الذي أراه باستمرار في الكابوس!!!.

استغرق الأمر لحظات كي أستوعب المفاجأة.. ثم أخذت ألبوم الصور إلى والدتي وسألتها عن هوية الطفل آملا أن تتذكره.. فسكتت طويلا وهي تنظر إلى الصورة.. لتمط شفتيها كناية عن عدم تأكدها.. ثم تقول:

- أعتقد أن اسمه (جاسم).. أنا أتذكر بيتهم في الحي المقابل.. لقد كنت تلعب معه أحيانا في طفولتك!!.

قلت وقد شعرت أنني وقعت على اكتشاف مهم جدا للغز الذي بت أعيشه مؤخرا:

- أين بيتهم تحديدا؟!.. هل تعرفين يا أمي؟!.

أخبرتني ببساطة عن مكان بيتهم كونها عاشت هنا طوال حياتها وتعرف معظم جيراننا والبيوت من حولنا.. دون أن تخفي أسفها أن الكثيرين منهم باعوا بيوتهم بعد أن توفي أصحابها وانتقلت إلى ورثتهم.. ثم.. سألتني بشيء من الاستغراب عن سبب اهتمامي المفاجئ بشخص لم ألتق به منذ طفولتي.. فابتسمت مغمغما أنه الفضول فحسب.. لم أخبرها أنني في الواقع كنت قد قررت زيارة ذلك البيت حال خروجي من هنا آملا أن أفهم ما يحدث لي.

قبلت جبينها وودعتها على أن أزورها خلال الأيام القليلة القادمة.. ثم خرجت بسيارتي إلى الحي المقابل حيث يفترض أن يكون بيت هذا الصبي آملا ألا يكون أهله قد انتقلوا إلى مكان آخر بعد كل هذه السنوات.. أسير ببطء في شوارع الحي حسب وصف والدتي.. لأجد نفسي أمام بيت قديم نسبيا ذي طابقين.

ترجلت من سيارتي لأسير ناحية الباب.. لا يوجد جهاز مناداة كحال البيوت الحديثة.. بل مجرد جرس قديم ضربته بخجل ووقفت أنتظر.. أسمع خطوات قادمة.. خادمة هندية تفتح

الباب لتسألني عن هويتي.. فأخبرها أنني أرغب بلقاء صاحب البيت.. لتغيب بعض الوقت.. ثم تعود وتسمح لي بالدخول.

هناك ديوانية خارجية يجلس فيها أحدهم.. شيخ في أوائل الثمانينيات من العمر كما يبدو لي.. يشاهد التلفزيون بصمت وتأمل كحال معظم الشيوخ.. دخلت وألقيت عليه التحية وأنا أقبل جبينه احتراما لسنه.. ينظر إلي مستفسرا عن هويتي.. فأتنحنح وأخبره باسمي كاملا.. لا يعرفني لكنه يعرف عائلتي.. هذا متوقع.. دار بيننا حديثا جانبيا.. ثم:

- المعذرة.. أريد أن أسأل عن ولدك (جاسم).. كيف حاله؟!.

لم أتوقع ردة فعله أبدا!!.. إذ نظر إلي مصدوما وكأنه لم يتوقع أبدا أن يطرح عليه أحد هذا السؤال.. ثم خرجت منه تنهيدة حارة وكأنه ينفث نارا مستقرة في جوفه منذ زمن طويل.. ليقول بألم:

- ولدي (جاسم).. لقد اختفى منذ سنوات طويلة.. منذ كان طفلا في الثامنة.. أتمنى أن يكون على قيد الحياة.. أريد أن أراه قبل موتي!!!.

خرست تماما من هول الصدمة.. ثم عاد إلي صوابي لأتنحنح وأسأله عن كيفية اختفاء ولده.. فأخبرني أنه خرج ذات يوم ليلعب مع صديق له يكبره ببضعة أعوام.. واختفى هو مع صديقه منذ ذلك الحين!!!.. وقد قام رجال الشرطة بتحقيقات مكثفة حول القضية دون جدوى.. لتظل الأمور معلقة حتى يومنا هذا.. ثم راح يتحدث بألم عن والدة (جاسم) التي توفيت منذ سنوات وهي تحلم برؤية ولدها قبل موتها.. لكن هذا لم يحدث مع الأسف.

سألته -وعلامات الألم واضحة على ملامحي- عن حياته حاليا وإن كان هناك من يهتم لأمره.. فأخبرني أن ولده الأكبر متزوج ويعيش معه.. وأن أحفاده يملؤون عليه حياته.. لكنهم خارج البيت وسيعودون بعد قليل.. ثم.. سألني بحيرة:

- ما سر هذه الزيارة يا ولدي؟!!.

أخبرته مبتسما بحرج أنه الحنين إلى الماضي والرغبة بمعرفة أحوال أصدقاء الطفولة.. وها أنا أزورهم على حد قولي.. فلن أشغل باله بهذا الحلم الذي قد لا يعني أي شيء ويفتح جروحه من جديد بنفس الوقت.

خرجت من البيت وقد شعرت أن اللغز يكبر.. وأن ما بت أعيشه مؤخرا ليس مجرد كابوس رغم أنني لست من المؤمنين بتواصل الموتى مع الأحياء عبر الأحلام.. إلا أن كل ما أعيشه مؤخرا يوحي بأن هناك رسالة ما.. رسالة من عالم الأموات ربما!!.. أحدهم يتواصل معي في أحلامي.. لكن.. حتى لو كان الأمر كذلك.. كيف سأحل لغزا عمره أكثر من 45 سنة؟!.. دعكم من أن الأمور تبدو أكثر تعقيدا مما ظننت.. فهذا الشيخ يقول أن ولده (جاسم) خرج مع صديقه واختفى الاثنان منذ ذلك الحين!!.. أين ذهب صديقه؟!!.. وهل هو الذي يقتل (جاسم) في الكابوس؟!.. هذا على اعتبار أن الكابوس يجسد رسالة بالفعل.

ظللت حائرا مرهقا لبضعة أيام أخرى.. نفس الكوابيس.. نفس النوم المتوتر الذي جعل حياتي أكثر توترا!!.. ليتني أستطيع أن أتناسى الأمر برمته وأعيش حياتي الطبيعية من جديد.. لم يعد الأمر ممكنا الآن للأسف.. بعد أن أصبح الكابوس يقلق منامي ويجعلني عاجزا عن الراحة في أكثر مكان في العالم يفترض أن يكون سببا لراحتي.. فراشي نفسه!!.. حتى لاحظ أبنائي اضطرابي الشديد وباتوا يسألونني بقلق إن كان هناك

ما يشغلني.. لكنني ظللت أؤكد لهم أنني بخير.. وأن الأمر لا يتجاوز بعض الإرهاق كوني تقاعدت من عملي منذ فترة بسيطة ولم أحصل على الراحة الكافية بعد.

أما زوجتي -وهي الوحيدة التي تعلم بأمر تلك الكوابيس- فقد اقترحت للمرة الثانية أن أزور طبيبا نفسيا عله يملك تفسيرا لما يحدث لي.. بل وراحت تتحدث عن (أزمة منتصف العمر)* والتي قد يكون لها دور أيضا في الكوابيس التي أعيشها مؤخرا.. والتوتر الذي بات يسيطر على حياتي.. حسنا.. يبدو أنني سآخذ بنصيحتها هذه المرة.

---

* أزمة منتصف العمر (Midlife Crisis) مصطلح شائع يطلق على مرحلة انتقالية طبيعية تبدأ في أوائل الأربعينيات من العمر.. وقد تمتد إلى الستين.. حيث يتعرض فيها الإنسان للعديد من التغييرات البيولوجية والهرمونية.. وتشمل الكثير من الأعراض النفسية السلبية.. كالشعور بالملل من الحياة.. والرتابة وعدم الجدوى.. والحزن دون سبب.. ليفقد فيها الإنسان الاهتمام بأمور كثيرة كانت تهمه في الماضي.. وتعتبر أزمة منتصف العمر مادة دسمة للكثير من الحكايات الطريفة حول الرجال.. إلا أنها في الواقع لا تقتصر على جنس دون آخر.. بل تصيب النساء أيضا حين ينقطع عنهن الطمث.. مما يؤثر كثيرا على حياتهن الجنسية والعاطفية.. ويشير الخبراء إلى أن أكثر الأمور المقلقة للرجال والنساء في تلك الفترة تتمثل بالخوف من الإصابة بالمرض.. لا سيما أمراض الشيخوخة المعتادة كالضغط والسكر والقلب.. ويخفق الكثير من الأزواج بالتعامل مع أزمة منتصف العمر.. فيبدأ كل من الزوجين بانتقاد الآخر بقسوة ويتصيد أخطاءه.. ويقوم بتضخيمها مهما كانت بسيطة.. مما يفاقم الخلافات ويزيد الفجوة بينهما.. أما التعامل مع هذه المرحلة من العمر فيستلزم ممارسة الرياضة.. والأكل الصحي.. مع ضرورة تجربة أشياء جديدة لم يجربها المرء من قبل.. كتعلم لغة جديدة مثلا.. أو تعلّم العزف على آلة موسيقية.. أو حتى السفر واكتشاف أماكن جديدة.. إلخ.

فبعد يومين.. كنت في إحدى العيادات النفسية الخاصة.. إذ جلست أمام طبيب كويتي الجنسية يصغرني سنا ويرتدي بذلة أنيقة.. حيث أخبرته بالقصة كاملة وهو يستمع إلي صامتا دون مقاطعة قرابة نصف الساعة.. ليقول بعدها باهتمام:

- هذه الكوابيس بدأت تزورك في نفس اليوم الذي ذهبت فيه مشيا إلى الساحة الترابية القريبة -وهو ما لم تفعله منذ طفولتك- لو أضفنا إلى هذا لقاءك بذلك الشيخ الذي أخبرك أن ولده الذي تراه في أحلامك مفقودا منذ سنوات طويلة.. فأستطيع أن أقول دون تردد أنه من العسير للغاية أن تكون هذه الحوادث مجرد صدف.. أعتقد أن ما تراه في منامك ليس أحلاما أصلا.. بل ذكريات!!.

قلت غير مصدق:

- وهل يعقل أن أنسى جريمة قتل بهذه البشاعة لو رأيتها وأنا في سن السابعة على الأقل يا دكتور؟!!.

رد بثقة:

- ممكن جدا.. فالأحداث المأساوية قد تتسبب أحيانا

بصدمة عاطفية تفقدك ذاكرتك أو جزءا منها*.. خاصة وأنك كنت طفلا آنذاك لا تحتمل مشاهدة جريمة قتل بهذه البشاعة.. أخبرني.. هل سألت والديك عن أي تجربة سيئة خضتها في طفولتك؟!.

قلت بملل:

- لقد توفي والدي في طفولتي بسبب مرضه.. أما والدتي فهي تؤكد لي أنني عشت حياة طبيعية للغاية.. وهذا ما أعرفه وأتذكره أنا أيضا.

ساد المكان صمت طويل.. ليقول الطبيب مفكرا:

- ربما خرج الطفل الذي تراه في أحلامك مع صديقه في تلك الليلة وتشاجرا لأمر ما.. هذه الأمور تحصل بين الأطفال.. فقتله صديقه في لحظة غضب.. وأنت شهدت الجريمة بنفسك وأصبت بخوف شديد تسبب بفقدان ذاكرتك كما شرحت لك قبل قليل.. وكتمت بعدها كل شيء في داخلك من شدة الخوف.. ربما مرضت يومها ومررت بوعكة صحية غير مفهومة تنفيسا لما عشته..

---

* حقيقة بالطبع

كآلام في المعدة مثلا أو أي شيء من هذا النوع.. يستحيل أن تتذكر والدتك ذلك بالطبع.. فالأمر سيكون بالنسبة لها مجرد عارض صحي يحدث لجميع الأطفال.. والآن بعد كل هذه السنوات.. عادت الحادثة إلى ذاكرتك بعد أن مررت بالمحفّز.. وهو ذهابك مشيا إلى تلك الساحة الترابية.. الأمر الذي لم تفعله منذ سنوات طويلة جدا.. أما الكابوس الذي يزورك باستمرار فهو مجرد تنفيس لتلك الذكرى السيئة.. وعلى الأرجح سيزول عاجلا أم آجلا.. عموما.. سأكتب لك بعض الأقراص المنومة.

كانت إجاباته مقنعة للغاية.. وإن ظل هناك تساؤلا مهما لم نعثر له على تفسير.. فلو كان ما أراه في كوابيسي ذكريات حقيقية.. أين اختفت جثة (جاسم) إذا؟!.. وهل الذي يقتله في كوابيسي -أو ذكرياتي- صديقه الذي اختفى بعد ذلك أيضا؟!.. هذا غير منطقي.. فنحن نتحدث عن قاتل في العاشرة من العمر ربما!!!.. ولو سلمنا جدلا أن هذا ما حدث.. هل من الممكن أن يقوم أهل القاتل بإخفاء الجثة حماية لولدهم؟!.. ثم قاموا بتهريبه خارج البلد ليعيش مع أقارب له في إحدى دول الخليج مثلا لتجنب العقاب؟!.. لو كان هذا ما حدث

فعليا.. فلماذا يتكبدون عناء إخفاء الجثة أصلا؟!.. لا.. لا أظن أن الأمور بهذه البساطة.. هناك لغز لا أفهمه.. معلومات كثيرة تنقصني لأستطيع إكمال سياق الحادثة.. وهذا طبيعي.. فنحن نتحدث عن مرور قرابة نصف القرن على أحداث لست متأكدا حتى الآن إن كانت حقيقية!!.

شكرت الطبيب بشرود ونهضت خارجا من العيادة شاعرا أنه لن يعيد إلي نومي المطمئن.. وأن الأقراص المنومة التي وصفها لي لن تفيد كثيرا.. و.. ما إن ركبت سيارتي.. حتى غرقت في خواطر كثيرة غلبها الحزن كوني أعيش تجربة غير مفهومة تقلق منامي وباتت تؤثر سلبا على راحتي بطبيعة الحال.. وأمام خواطري هذه.. شعرت برغبة قوية لزيارة والدتي كي ألتمس منها الدفء.. نعم.. مهما كبرنا.. نظل دوما أطفالا نبحث عن حضن الأم لتخبرنا أن الغد سيكون أفضل.

اتجهت إلى بيتها لأجدها في غرفة المعيشة حيث تشاهد فيلما عربيا قديما.. فقبلت رأسها واحتضنتها.. ليدور بيننا حوار معتاد حول صحتها كونها تعاني أمراض الشيخوخة كحال معظم كبار السن.. ثم.. وجدت أن لا ضرر هناك من إخبارها بما يحدث لي وسؤالها مرة أخرى عن طفولتي.. فقلت بجدية:

- المعذرة يا أمي لتكرار السؤال.. لكن الأمر مهم.. أريدك أن تخبريني.. هل مررت في طفولتي بتجربة قاسية؟!.. أرجوك لا تخفي شيئا عني.. هناك كابوس يقلق منامي يزورني باستمرار ويتعلق بطفولتي.. جريمة قتل بشعة ترتكب بحق الطفل المدعو (جاسم) الذي رأيتِ صورته في إحدى ألبومات العائلة.

يا إلهي.. لم أتوقع أن تصيبها مواجهتي المباشرة هذه في الصميم!!!.. يبدو أنها لم تخبرني بالحقيقة في المرة الأولى حين رأت صورة (جاسم) في الألبوم.. وحاولت إخفاء الأمر عني لسبب ما.. لكن مقاومتها انهارت أمام هذه المواجهة الصريحة.. ويبدو أيضا أن كبار السن كلما يقتربون من الموت.. يصبحون أكثر مصداقية.. ويعجزون عن الكذب.. غريب جدا أن يرى المرء نظرات القلق والخوف على ملامح والدته.. غريب أن أرى أمي تطرق برأسها وتبكي!!!.. أمي تبكي؟!!.. نهضت من مكاني كالمجنون لأحتضنها وأقبل جبينها ويدها محاولا تهدئتها.. إلى أن هدأت أخيرا.

ثم.. ظلت تنظر إلي مدة طويلة وأنا أنظر إليها بدوري وبترقب مدركا أنها تملك مفتاح القصة كلها.. لتقول بعد أن استعادت توازنها:

- كانت ليلة سوداء من عام 1968.. ليلة أحاول أن أدفنها في ذاكرتي وأتمنى نسيانها.. لكني أعجز عن ذلك رغم مرور كل هذه السنوات.. كنت حينها في السابعة من العمر.. أتذكر أنك خرجت لتلعب مع أصدقائك كالمعتاد في تلك الساحة الترابية.. وبعد صلاة العشاء بساعة أو ربما أكثر قليلا.. فوجئت بك تدخل البيت مصدوما مصابا بخوف لم أره على ملامحك من قبل.. وقد فقدت السيطرة على أعصابك.. حتى أنك تبولت في ثيابك رعبا!!!.. كان برفقتك (طارق).. لا أعتقد أنك تتذكره.. ولد بغيض مشاغب يكبرك بسنوات قليلة.. حيث بدت عليه هو الآخر علامات الرعب لكنه ظل أكثر تماسكا منك رغم كل شيء.. سألتك بذعر عما حدث.. لتخبرني أن (طارق) تشاجر مع (جاسم) وضربه على رأسه بعصا غليظة جعلت الدماء تنزف منه بغزارة وربما.. ربما مات!!!.. هذا ما قلته وأكده (طارق).. حسنا.. لا يمكن أن تتخيل حالة الرعب التي عشتها لحظتها.. لكني تجاوزتها بسرعة وبدأت أفكر بإبعادك أنت عن أي شر.. هكذا الأم دائما.. تنتابها قوة إلهية مفاجئة

حين يتعلق الأمر بسلامة أطفالها.. فطلبت من (طارق) بصرامة العودة إلى البيت فورا وأن يقطع علاقته بك تماما.. لم أكن أفكر بما يمكن أن يحدث له أو لـ (جاسم) المسكين.. كنت أفكر بك أنت فقط وبما قد يحدث لك.. المهم أن (طارق) انصاع لكلامي وهرع ليخرج من البيت.. فكانت هذه المرة الأخيرة التي أراه فيها.. ثم التفت إليك واحتضنتك طويلا محاولة أن أشعرك بالأمان.. لآخذك بعدها إلى الحمام كي تغتسل ومن ثم إلى فراشي لتبيت بجانبي في تلك الليلة المشؤومة.. لكن.. منظر القتل ظل في ذاكرتك.. لدرجة أنك في الأيام التالية ظللت تنهض يوميا من النوم تصرخ وتبكي.. وأصبحت تخشى الخروج من البيت.. حتى ساءت حالتك النفسية كثيرا.. فبت أخبرك باستمرار أن ما رأيته لم يكن حقيقيا.. بل مجرد كابوس.. لا تنسَ أنك كنت في السابعة من العمر.. فكان عقلك صغيرا يسهل تطويعه.

هززت رأسي نفيا وأنا أقول باستغراب شديد:

- مستحيل يا أمي.. لا يمكن أن أنسى حادثة كهذه وأنا في السابعة من العمر.. لا يمكن!!!.

ردت بحزن:

- بل ممكن جدا.. خاصة وأنني قمت بعدها بتغييرات جذرية في حياتك.. إذ منعتك بطريقة غير مباشرة من الذهاب للعب في تلك الساحة.. فظللت أحاول أن أقضي معك أكثر وقت ممكن لأشعرك بالدفء والأمان.. ربما تتذكر كيف كنت أشغل وقتك بترديد القصص المسلية على مسامعك.. أو حين كنت تخرج معي باستمرار لأشتري لك ما تريده من لعب.. أو نزور أقاربنا لتلعب مع أبنائهم وتبيت عندهم في العطل.. لقد بذلت جهدا خارقا لأجري بما يشبه عملية غسيل مخ مكثفة كي أقنعك أن ما رأيته لم يتجاوز حلما سيئا ستنساه مع مرور الأيام.. لنقل أنني صنعت لك ذاكرة زائفة لأمحو من ذهنك صور الجريمة التي شهدتها.. لم يكن الأمر سهلا أبدا.. خاصة مع وجود أشقائك الثلاثة أيضا.. والذين كانت مسؤوليتهم ملقاه بالكامل على عاتقي بعد وفاة والدك رحمه الله.. لحسن الحظ أنهم أصغر منك ولم ينتبهوا إلى ما حدث ليلتها.. خاصة وأنني أبعدتهم عنك مباشرة حين رأيتك مع (طارق)

بهذه الحالة.. المهم أنك صدقت كلامي بعد شهور طويلة واقتنعت بالفعل أن القصة بأكملها عبارة عن حلم مزعج فحسب.. وربما ساعد على إقناعك بذلك اختفاء (طارق) وضحيته (جاسم) من حياتك في لغز ما زلت أعجز عن فهمه!!!.

بالطبع كان كلامها صادما غير متوقع.. لذا صمتّ طويلا وأنا أحدق بها.. ثم قلت مذهولا:

- ما زلت عاجزا عن تذكر ما حدث.. يبدو أنكِ بذلت جهدا خارقا بالفعل لمحو تلك الأحداث من ذاكرتي.. لا أصدق أنني عشت قصة سوداوية كهذه ونسيت مع مرور الأيام كل ما يتعلق بشأنها لولا الكابوس الذي أعاد لي ذكرياتها!!!.. لا أعرف ما أقول يا أمي.. لقد عانيتِ الكثير.. أشكرك على كل ما فعلتهِ من أجلي.. إلا أنني ما زلت أتساءل عن لغز اختفاء الضحية والجاني معا!!.

قالت بحزن:

- لا أعلم يا ولدي.. كل ما أعرفه أن (جاسم) و(طارق) اختفيا ولم يعثر لهما رجال الشرطة على أي أثر.. حتى

تعاقبت الأجيال وأصبحت القصة في طي النسيان.

قلت وأنا أنظر للسقف:

- ما تقولينه يا أمي يعني أنني الشاهد الوحيد على جريمة قتل حدثت في طفولتي .. يا له من عبء نفسي.. ويا له من لغز.. ففي نظر القانون.. يبقى (جاسم) مجرد طفل مفقود.. ولا يعرف أحد أنه تعرض للقتل على يد (طارق) الذي اختفى بدوره لسبب مجهول.

احتضنتني والدتي وهي تقول:

- تخيل أنك مررت بكل هذا وأنت في السابعة من العمر.. حمدا لله أنك تجاوزت الأزمة وكبرت وكونت أسرة رائعة.

نظرت إليها بامتنان وقد شعرت أن القصة انتهت عند هذا الحد.. ثم احتضنتها وشكرتها كثيرا على كل ما فعلته من أجلي.. لأعود إلى بيتي.. وإلى حياتي الطبيعية.. حيث بدأت الكوابيس تقل تدريجيا مع مرور الأيام التالية.. إلى أن تلاشت.. يبدو أن حديث والدتي قد لعب دوره وأزال أي رواسب أو آثار لتلك الحادثة من عقلي الباطن.

مرت سنوات قليلة على تلك القصة تخرج على إثرها ولدي الأصغر من الجامعة.. وتزوج ثاني أبنائي.. قبل أن يحدث ما يحدث لأي عائلة.. حين فجعت ذلك اليوم بنبأ وفاة والدتي.. فقد ساءت صحتها في الفترة الأخيرة.. وكنت على يقين أنها ستلقى ربها قريبا.. لكني ظللت أكذب على نفسي كما نفعل دوما مع من نحب.. وأتظاهر أن هناك أملا في شفائها.. إلا أن الموت لا يجامل.. فكانت هذه النقطة السوداء الوحيدة في تلك الفترة.. أو هذا ما ظننته!!!.

فبعد حوالي سنتين.. تلقيت اتصالا هاتفيا مفاجئا من المباحث الجنائية يطلب فيه المتصل أن أزورهم فورا!!!.. هكذا دون مقدمات.. بل ورفض أن يخبرني بأي معلومات إضافية.. فذهبت بقلق شديد كوني لست معتادا على استدعاءات رجال المباحث هذه.. و.. لم أتوقع أبدا ما كان ينتظرني!!!.

يجب أن أذكر هنا أن بيت العائلة قد تحول إلى إرث بعد وفاة والدتي.. فقمت مع أشقائي ببيعه.. حيث قام المشتري بهدمه بالكامل ليعيد بنائه.. وأثناء عملية الحفر لبناء سرداب للبيت.. عثر العمال على بقايا عظام بشرية دفنت بإهمال في حفرة صغيرة كانت جزءا من حديقة البيت الداخلية.. فأبلغوا الشرطة مباشرة.

وقد تعرضت العظام البشرية هذه لفحوصات دقيقة بالطبع من قبل الطب الشرعي.. مع تحريات مكثفة فتح خلالها رجال الشرطة كل الملفات القديمة.. ليتضح لهم أنها تعود لطفلين بأعمار متقاربة تعرضا للقتل في وقت متقارب أيضا.. نعم.. جثة (جاسم) و.. جثة (طارق)!!!.

كنت أنظر إلى المحقق بذهول وهو يطرح علي أسئلة تقليدية لم أجب على أي منها جوابا شافيا كما يتوقع هو بنفسه بعد مرور كل هذه السنوات على حدوث الجريمتين.. وقد أخبرته بشرود أن القضية ميتة أصلا لوفاة أهم أطرافها.. وأعني والدتي كونها الوحيدة التي تملك تفسيرا لوجود جثتين في حديقة منزلنا الداخلية.

فسمح لي بالخروج وقدماي بالكاد تحملاني إلى السيارة.. حتى أنني جلست عاجزا عن إدارة المحرك للعودة إلى البيت.. عقلي يعمل بسرعة البرق.. أحاول أن أربط النقاط ببعضها.. كيف يمكن أن تُدفن جثتان في حديقة بيتنا الداخلية دون علم والدتي؟!.. التفسير والجواب الوحيد المنطقي أنها كانت تعلم طوال الوقت بوجود الجثتين هناك.. وأنها هي من قامت بدفنهما!!!.

الأفكار تتضارب في رأسي.. لكنها تنتظم شيئا فشيئا بعد أكثر من ساعة لم أتحرك فيها من مكاني.. إنني أرى بعين الخيال ما حدث.. لقد عدت إلى البيت في تلك الليلة مرعوبا أبكي وأصرخ وأخبر والدتي بمقتل (جاسم).. فاحتوتني سريعا وذهبت بي إلى غرفتي.. ثم خرجت إلى الصالة لتفهم من (طارق) كل شيء بالتفصيل.. لينتهي الأمر بإدراكها لحقيقة مخيفة.. أن هذا الولد قد يجرني إلى تلك القضية.. وربما يلصق بي تهمة قتل (جاسم) كي ينفي التهمة عن نفسه.. إذ ستكون حينها كلمته مقابل كلمتي.. وربما أخبرها بنفسه أنه سيلقي بالتهمة علي.. هذا جائز.. فنحن نتحدث عن طفل في العاشرة كل ما يريده تجنب العقاب حتى لو كان على حساب الغير.. لذا.. استغلت وجوده في بيتنا وقامت بقتله لتبعد عني الشبهات!!!.. ويبدو أنها رأت أن إخفاء جثة (جاسم) ليظل مفقودا حتى اليوم أفضل من أن تُكتشف فيدرك رجال الشرطة وجود جريمة قتل.. مما سيعني أنهم سيبحثون عن القاتل.. وعندها قد يتم التحقيق مع جميع أهالي الحي وينكشف كل شيء.

فخرجت لتأتي بجثة (جاسم) إلى البيت وتمحو أثر دمائه في تلك الساحة الترابية.. لقد كانت الساحة مظلمة آنذاك في

الليل كما ذكرت سابقا.. ومن الممكن جدا أن تظل الجثة ساعة أو ساعتين قبل أن يكتشفها أحد.. ثم قامت بدفن الجثتين في حديقة البيت الداخلية ليموت السر إلى الأبد.. لا أستطيع أن أجزم بصورة مؤكدة أن هذا ما حدث فعليا.. لكني لا أجد تفسيرا آخر لوجود الجثتين في حديقة البيت سوى القصة التي نسجتها خيوط عقلي!!!.

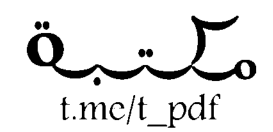
بدأت الحياة تدب في جسدي أخيرا.. ووجدت نفسي -لا شعوريا- أبكي.. إنني لم أبك منذ سنوات.. حتى رحيل أمي لم يبكني.. لكن الدموع تترقرق في عيني الآن.. ثم تنهمر ببطء.. يا إلهي.. عشت في هذا البيت مع أشقائي طوال سنوات طفولتي وشبابي دون أن أتخيل للحظة وجود جثتين مدفونتين في حديقته.. حقا أن الجهل أحيانا يكون نعمة!!!.. مؤلم.. مؤلم جدا أن أعرف دور والدتي رحمها الله في كل هذا مهما كانت دوافعها للقتل.. حتى أنني رحت أطلب لها المغفرة طوال طريق عودتي إلى البيت.. لقد ارتكبت جريمة قتل مع سبق الإصرار والترصد.. ولا أدري في الواقع إن كان يجب أن ألومها.. فلا شك أنها مرت بأيام سوداء هي الأخرى.. إذ كانت أرملة صغيرة السن تربي 4 أطفال لوحدها.. ترى.. كيف سيكون حال

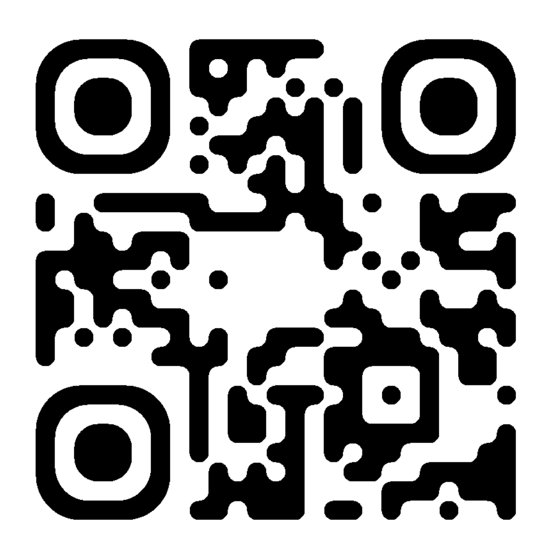
والد (جاسم) الذي ظل سنوات طويلة يبحث عن ابنه؟!.. لا شك أن قلبه سيتحطم حزنا حين يعلم بالحقيقة.. ولا أظن أن الأمر سيختلف كثيرا مع عائلة (طارق).

لقد تناقلت وسائل التواصل الاجتماعي فيما بعد خبر العثور على جثتين في بيت قديم مما يشير إلى حدوث جريمة قتل منذ حوالي 45 عاما.. لكن أحدا لم يسأل ولم يبحث في أمر قضية مات جميع أطرافها تقريبا.. لحسن الحظ أن رجال الشرطة اتصلوا بي أنا فقط كوني الشقيق الأكبر.. وكوني من قمت بعملية بيع البيت بتوكيل من أشقائي كما يحدث دوما في حالات حصر الإرث.. أي أنني الوحيد الذي علِم بأمر العثور على الجثتين.. أشعر أن هناك حكمة إلهية ألاّ تصل هذه القصة لأحد سواي وألاّ يعرف أحد أن أمي ارتكبت جريمة قتل في يوم من الأيام.. لذا قررت إخفاء السر عن جميع أفراد العائلة وإلى الأبد.. لن يكون الأمر سهلا.. سيظل الجرح غائرا في قلبي.. وسأحمل وحدي عبء الحقيقة.

لتنتهي قصتي عند هذا الحد.. متسائلا في قرارة نفسي عن كم الأشياء السوداء التي رآها كل منا في طفولته وقد نسيناها حين كبرنا.. متمنيا أن أتمكن من طي تلك الصفحة وأتطلع

للأمام.. وللنجاحات التي يحققها أبنائي.. وأن أعيش حياة هادئة مستقرة لا ألتفت فيها إلى الماضي.. حياة بدون ألم.. وبدون كوابيس.





القبر المفتوح

أسامة المسلم

2002

ورقة بيضاء مربوطة بخمس عقد
حبر بني اللون مائل للحمرة
جوف رجل ميت

سيارة إسعاف تتوقف عند بوابة إحدى المقابر تقف بجانبها سيارة شرطة كانت تتبعها. يترجل من سيارة الإسعاف رجلٌ يحمل بيده ورقة رسمية ويسير باتجاه البوابة ويطرق بابها ورجل آخر ينزل ويتوجه إلى خلف السيارة ويفتح بابها الخلفي. يفتح البوابة رجلٌ يستلم الورقة بصمت وبشكل روتيني عندما رأى سيارة الإسعاف لكنه وخلال توقيعه على الورقة لمح سيارة الشرطة فتحدث مع سائق سيارة الإسعاف وقال: لِم سيارة الشرطة ترافقكم؟ وأين أقرباء الميت؟

(السائق) وهو يأخذ الأوراق بعد توقيع الرجل عليها: الجثة التي ستستلمها اليوم حالة خاصة وليس له أقرباء

(الرجل) وهو يتمعن في سيارة الشرطة: ماذا تقصد بحالة خاصة؟

لم يرد السائق عليه وتوجه لمعاونة زميله في إخراج السرير المتحرك الذي استلقت عليه الجثة وبدأ بدفع السرير تجاه بوابة المقبرة. استوقفهم الرجل الذي كان مسؤولاً عن تغسيل الموتى وقال: ضعوه في الغرفة الخاصة بالتغسيل ولا تتركوه بالخارج كما فعلتم آخر مرة

(زميل السائق) وهو يدفع السرير المتحرك مع صاحبه إلى داخل المقبرة: لقد وضعناها حيث طلب منا زميلك

(مسؤول المقبرة) وهو يُشرع الأبواب على مصراعيها: زميلي السابق ترك العمل فلا تتحجج به

دخل الاثنان إلى وسط المقبرة وتوجها للمبنى المخصص لتغسيل الموتى وتكفينهم وبقي الرجل يحدق بسيارة الشرطة التي كان بها شرطيان يراقبان ما كان يجري بصمت. لحق الرجل برجال الإسعاف وتأكد من المكان الذي وضعا فيه الجثة ثم سار خلفهما خلال خروجهما ليغلق البوابة لكنه وجد أن الشرطيين قد نزلا من السيارة وأحدهم كان يدخن سيجارة ويحدق بسور المقبرة. رحل رجال الإسعاف وبمجرد رحيلهم ألقى الشرطي الذي كان يدخن سيجارته وداسها بحذائه وقال مبتسماً للرجل الذي كان يراقبهما بتوتر: كيف حالك يا..

(الرجل): (مسعود).. اسمي (مسعود)

(الشرطي1) وهو يمد يده باسماً لمصافحة (مسعود): أهلاً سيد (مسعود) تشرفنا بمقابلتك

(مسعود) وهو يصافح الشرطي وعلى وجهه نظرات شك وريبة: أهلاً بك

(الشرطي1) مبتسماً: ماهي طبيعة عملك هنا؟

(مسعود): أنا المسؤول هنا

(الشرطي1): مسؤول عن ماذا تحديداً؟

(مسعود): بالأساس أنا المسؤول عن تغسيل الموتى وتكفينهم لكن زميلي الذي كانت مهمته حفر القبور ودفن الموتى قد ترك العمل مؤخراً وأنا أقوم بعمله ريثما يُعين آخر

(الشرطي1): كم سنة وأنت تمارس هذا العمل؟

(مسعود): ما الأمر؟.. لِم كل هذه الأسئلة ولِم أتيتم من الأساس؟

(الشرطي2): نريد أن نتأكد فقط بأنك لن تتكلم

(مسعود) بنظرة استغراب: أتكلم؟.. أتكلم عن ماذا؟

(الشرطي1): نحن نريد فقط أن تدفن هذه الجثة بهدوء

(مسعود) بتجهم: وهل أخبركم أحدٌ بأننا نقيم حفلة خلال الدفن؟!

نظر (الشرطي1) لصاحبه الذي هز رأسه وكأنه يوافق على حديث تحدثا به سابقاً ثم أعاد نظره لـ(مسعود) وقال: هل يوجد مكان يمكننا التحدث فيه بعيداً عن الشارع

(مسعود) على مضض: هناك المجلس الخاص باستقبال التعازي

(الشرطي1): حسناً خذنا إليه

سار (مسعود) ولحق به الشرطيان حتى وصلوا لمجلسٍ مكيف وجلسوا به واستأنف (الشرطي1) حديثه وقال: اسمع يا سيد (مسعود) نحن هنا لنخبرك بأن الجثة التي استلمتها تعود لضحية جريمة قتل وهذه الجريمة لم تحل وقيدت ضد مجهول

(سعود): ليست هذه أول مرة أستلم فيها ضحايا جرائم أو حوادث.. الأمر ليس بالخارج عن المألوف

(الشرطي2): نعم نعرف لكن أحببنا إخبارك بأنك لست ملزماً بتغسيل هذا الميت.. يمكنك دفنه مباشرة

(مسعود) باستغراب: لماذا؟ أليس الميت مسلماً؟

(الشرطي1): لا نعرف.. نحن لا نعرف حتى اسمه أو جنسيته

(مسعود): ألم تقوموا برفع بصماته أو إجراء أي اختبار يرشدكم لهويته؟

تبادل الشرطيان النظرات ثم تحدث أحدهما قائلاً: الجثة ليست بحالة جيدة كي نفحصها.. الضابط المسؤول عن التحقيق لم يعرضها حتى على الطبيب الشرعي ويريد التخلص منها بسرعة

(مسعود): لم يعرضها على الطب الشرعي؟.. ألم تقل بأنها جريمة قتل؟.. وجريمة لم تحل؟

(الشرطي2): القضية معقدة ولن ندخل في تفاصيلها معك نحن هنا لنخبرك بأنك لست ملزماً بتغسيل الجثة لأنها في حالة سيئة لكن إذا أردت ذلك فلن نمنعك

(الشرطي1) وهو ينهض ويمد يده لمصافحة (مسعود): شكراً سيد (مسعود)

(مسعود) يقف مصافحاً (الشرطي1): هل أنتم راحلون؟

(الشرطي2) يمد كرتاً ورقياً: لو حدث أي شيء في أي وقت يمكنك الاتصال بنا

(مسعود) وهو يأخذ الكرت بقلق: مالذي يمكن أن يحدث؟

(الشرطي1) وهو يربت على كتف (مسعود) باسماً: لا تقلق هذا مجرد إجراء روتيني

رحل الشرطيان وتركا (مسعود) في قلقٍ وحيرة مما دار بينهما من حوار غريب وغير معتاد. توجه بعدما أغلق بوابة المقبرة لغرفة غسل الموتى وجلس أمام الجثة التي وضعها رجال الإسعاف في المكان المخصص وهي ملفوفة بالكامل بلحافٍ أبيض وموضوعة في كيس بلاستيكي أسود وهذا لا يحدث عادة إلا مع الجثث المحروقة أو المشوهة جراء حوادث ويكون فيها الجسد بحالة سيئة أو مفصولة الأجزاء. بقي (مسعود) يراقب تلك اللفة بصمت وفي هدوء مشابه للهدوء الذي عم المكان حتى استجمع قواه ونهض وغسل يديه ولبس القفازات في نية للبدء بتغسيل ذلك الميت. كان الوقت عصراً وكان (مسعود) يريد الانتهاء من التغسيل والدفن بما أن الميت ليس له أقرباء يريدون الصلاة عليه وهناك قبور محفورة مسبقاً لذا نوى تغسيله والصلاة عليه ودفنه قبل غروب الشمس.

كانت المغسلة في الجهة المقابلة لمنصة الغسيل لذا وعندما أدار (مسعود) الصنبور وبدأ الماء بالانهمار كُسر الهدوء وأخذ يدعك يديه بالماء والصابون وبعدما فرغ من الغسيل أغلق الصنبور ومد يده للمنشفة المعلقة بجانبه لكن قلبه كاد يتوقف عندما سمع صوتاً يأتي من خلفه. كان الصوت أشبه بشيء ينقر على الباب. قد يكون الصوت شيئاً عابراً واعتيادياً لكن حالة (مسعود) المتوترة وغير المستقرة ذلك اليوم بسبب حديث الشرطة معه جعلته يفزع ويسير مسرعاً نحو الباب ويفتحه ويطل برأسه للخارج محاولاً الإنصات بحثاً عن مصدر الصوت لكنه لم يسمع سوى صوت سيارة عابرة من الشارع خلف السور.

عاد (مسعود) للداخل وأغلق الباب خلفه وبدأ يردد " أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق" ثلاث مرات. وقف أمام اللفة البيضاء وشد على قفازاته المطاطية وهو يحدق بالجثة لثوانٍ ثم مد يده وفتح الكيس وحل العقدة القماشية التي كانت مربوطة عند رأس الجثة ومجدداً هذا لم يكن شيئاً مألوفاً فالجثث تصله غالباً مغطاة وليست مربوطة بهذا الشكل وكأن من ربطها لا يريد رؤية محتواها مرة اخرى. حل العقدة وسحب الغطاء كاشفاً ما كان يخفي تحته وهي جثة

مشوهة بشكل غريب جداً لم يرَ (مسعود) مثلها من قبل فقد كانت منزوعة العينين والأسنان واللسان والأظافر. كانت كقطة اللحم المعد للطهي. اشمئز (مسعود) من المنظر لكنه أصر على تغسيل الميت كرامة له مهما كانت حالته وافترض أنه مسلم لأنه كان مختناً.

تغسيل الموتى في العادة له خطوات معينة يتبعها أغلب المغسلين وهو البدء بوضع ثقل على بطن الميت كي يمنع الانتفاخ ولإخراج أي فضلات أو غازات متجمعة في بطنه وعندما قام (مسعود) بذلك بدأت تخرج أصوات كالغرغرة من معدته وكان ذلك عادياً لكن غير المألوف أن الصوت استمر لمدة طويلة قبل أن ينقطع بقي خلالها يراقب بطن الميت بتعجب. توقفت الغرغرة الآتية من بطن الميت فتردد (مسعود) في إكمال عملية التغسيل لشعوره بالتوجس وأن هناك أمراً غير طبيعي في هذه الجثة وأن نصيحة الشرطة له بدفنها مباشرة بدت كفكرة جيدة لكنه لم يتبع حدسه وتوجه لرفوف الأكفان وأخذ كفناً أبيض جديداً وبدأ بتعطيره بالمسك ثم وضعه جانباً وعاد للجثة الممددة. غطى عورته بقطعة من القماش وسد فتحات أنفه وعينيه المجوفتين بقطع قطن صغيرة ثم بلل الإسفنجة الخاصة بالتغسيل بالماء والصابون

وأخذ يفركه من رأسه نزولاً على صدره وأطرافه ثم بطنه وأفخاذه حتى أخمص قدميه وكان يبدأ بالجهة اليمنى قبل اليسرى خلال التغسيل. في هذه المرحلة انتبه لوشمٍ صغير على شكل نجمة سداسية موشومة على ظهر يد الميت اليسرى. تجاهل (مسعود) ما رآه وأكمل عمله.

أمسك (مسعود) بكتف الجثة الأيمن ورفعها نحوه ودعك بالإسفنجة ظهره ومؤخرته وخلف ساقيه وكرر نفس العملية للجهة اليسرى أيضاً. بعدما انتهى من فرك جسده بالكامل بالماء والصابون بدأت بعض أجزاء جسد الميت بالنزف واختلط الدم بالصابون وتحول للون الأحمر الفاتح فأعاد (مسعود) تمرير الماء على جسده بالخرطوم لكن نزف تلك الجروح لم يتوقف وهذا كان أمراً غريباً بالنسبة لجثة توقف القلب عن ضخ الدم فيها. أحضر قطعة من الكافور وبدأ يدعك تلك الجروح لأن من خصائص الكافور غير حفظ الجثث من التحلل السريع هو إيقاف نزف الجروح الصغيرة والمساعدة على تجلطها بسرعة. انتهى (مسعود) من دعك الفتحات النازفة والتي توقفت عن النزف مباشرة بعد دعكها فأكمل المسح بقطعة الكافور التي كانت أشبه بقالب الصابون على جسد الجثة بالكامل. خلال ذلك تحولت قطع القماش التي سد بها فتحات أنفه وعيناه

للون الأحمر في إشارة بأنه نزف من تلك الفتحات أيضاً. انتقل بعدها (مسعود) للخطوة التالية وهي تنظيف محتوى البطن والأمعاء وذلك برفع الجثة من الأعلى قليلاً بيده اليمنى والضغط بلطف على البطن بعدما رفع الثقل الذي وضعه سابقاً. حركة المسح تكون من الصدر نزولاً مع شيء من الضغط عن البطن بالمرفق الأيسر ينتج عنه خروج أي فضلات متراكمة في البطن والأمعاء. يتجنب المغسل في هذه المرحلة النظر لِم يخرج حتى ينتهي ثم يقوم برفع سيقان الميت وسكب الماء تحته وتنظيفه مرة أخرى بالإسفنجة.

عندما أنزل (مسعود) سيقان الميت لاحظ شيئاً قد خرج مع فضلاته ولم ينزل في المجرى وعلق بفتحة التصريف. كانت قطعة بيضاء في كيس بلاستيكي صغير بدت مربوطة بخيطٍ أسود. مد يده والتقطها وأخذ يتفحصها بنظره ثم وضعها جانباً وأكمل عمله. بلل قطعة من القطن ومسح الميت على شفتيه ومناخيره ثم رماها في قمامة كانت بجانبه. بلل قطعة أخرى من القطن وبدأ يمسح أذني الميت وأنتبه بأن شحمتي أذنه كانتا مخرمتان لكنه لم يلقي بالاً لذلك وأكمل التنظيف. ملأ (مسعود) دلواً بماء وسكبه على جسد الميت بالكامل وكرر ذلك حتى أزال كل أثر للصابون. قام بعدها وأوضأ الميت وضوء كاملاً. في نهاية

كل غُسل كان (مسعود) يمسح على الميت بماء نبتة ((السدر)) وهذه عادة اعتاد عليها قبل أن يبدأ بالتكفين لكنه عندما مسح على صدره بالإسفنجة المبللة بماء ((السدر)) تفاعل جلد الميت معها وبدأ يخرج من مكان المسح دخان وكأن جلده يحترق. فزع (مسعود) مما حدث وسكب دلو الماء الذي استخدمه للوضوء على صدر الجثة فهدأ جلده وتوقف الدخان. بقي يحدق بالجثة برعب لثوانٍ ثم أحضر الكفن وبدأ يلفه دون أن يجففه. كفنه بالكامل بثلاث لفائف معطرة بالكافور حتى غطاه بالكامل. خلع قفازاته وحمل الجثة ووضعها على سرير متحرك وبدأ يدفعها نحو المصلى الموجود في المقبرة.

بعد دخوله بالجثة للمسجد المخصص للصلاة على الأموات وضعها على الأرض عند المحراب ووقف عند رأس الميت وكبر للصلاة عليه. بعد التكبيرة الأولى استعاذ من الشيطان وبسمل وهم بقراءة الفاتحة وعند قراءته لآية (غير المغضوب عليهم) قطع (مسعود) صلاته وقفز للخلف مفزوعاً لأنه رأى أو أعتقد بأنه رأى رأس الجثة يتحرك. بقى يتنفس بثقل وعمق وضربات قلبه تطرق صدره بقوة وهو يحدق بالكفن الذي كان ساكناً كما هو مفترض منه. استعاذ من الشيطان وقال في نفسه: "لا بد أني أتوهم". عاد مرة أخرى ووقف عند رأس

الميت وكبر واستعاذ من الشيطان وبسمل وبدأ بقراءة الفاتحة مرة أخرى وعينه منصبة على الكفن. انتهى من القراءة وكبر التكبيرة الثانية وهو لايزال يحدق بالكفن وشرع بقراءة الدعاء الواجب. فرغ من القراءة ولم يحدث شيء فكبر التكبيرة الثالثة وبدأ بالدعاء للميت وعندما انتهى كبر التكبيرة الرابعة والأخيرة وسلم تسليمة واحدة على يمينه وفي تلك اللحظة اضطر أن يحيد بنظره المنصب على الجثة ولم يقابلها سوى أذنه التي سمعت شيئاً أشبه بالهمس يقول " آمين".

تجاهل (مسعود) ما كان متيقناً من سماعه لكن قلقه وتوتره كانا في ذروتيهما وفكر في الاتصال على أحد أصدقائه لمساعدته في الدفن لكن ذلك سيكون على حساب نور الشمس الغاربة وسيضطر بذلك أن يقوم بدفنه ليلاً. في النهاية رجح (مسعود) فكرة الاتصال بصديقه (جابر) وطلب منه المساعدة حتى لو كان ذلك يعني الدفن بعد غروب الشمس. حضر (جابر) بعدما اتصل عليه صاحبه الذي ترك له بوابة المقبرة مفتوحة كي يدخل مباشرة ويتوجه للمصلى الذي كان يعرف طريقه فهذه لم تكن زيارته الأولى لـ(مسعود) في مكان عمله. دخل عليه المسجد ووجده جالساً لوحده أمام الكفن يقرأ القرآن فناداه بصوت مرتفع وقال:

ما الأمر؟! لِم استدعيتني في هذا الوقت؟!

انتفض (مسعود) وأغلق المصحف والتفت إلى (جابر) بعبوس وقال: لِم تصرخ هكذا؟!

(جابر) وقد وصل عند صاحبه مبتسماً: ما بك؟ تبدو متوتراً على غير عادتك

(مسعود) وهو ينهض ويضع المصحف بعد تقبيله على أحد الرفوف: أحتاجك لمساعدتي في دفن هذا الميت

(جابر) موجهاً نظره للكفن ثم حول أرجاء المصلى: أين الناس؟.. أين أقارب الميت؟

(مسعود) وهو ينظر للكفن: ليس لديه أقارب ولقد صليت عليه قبل أن تأتي ولم يتبقَّ سوى دفنه

(جابر) بتعجب: ولِم تتحدث عن الأمر وكأنه شيء تريد التخلص والانتهاء منه بسرعة؟.. حاول أن تستحضر الأجر والروحانية في الموضوع

(مسعود) بنبرة حادة ومكتومة: هذا ليس وقتك الآن!.. هيا ساعدني في حمله للمقبرة

(جابر): الظلام خيم على المكان.. لِم لا تدفنه غداً؟

(مسعود): لا يمكنني ذلك لقد غسلته وكفنته وصليت عليه وإكرام الميت دفنه

(جابر) وهو يلتفت خلفه نحو باب المصلى المفتوح: هل تملك مصباحاً لنرى طريقنا نحو القبر؟

(مسعود): بالطبع.. وكل شيء جاهز.. الألواح الاسمنتية والطين وكل شيء

(جابر): هيا بنا إذاً

حمل الاثنان الميت ووضعاه على النعش المخصص وسارا به نحو القبر وكان (مسعود) يمسك بالجهة الأمامية وصاحبه بالجهة الخلفية وقد علقوا مصباحاً على أحد مقابض النعش كي ينير لهم الطريق. عندما وصلا للقبر المفتوح أنزلا الجثمان ونزل (مسعود) للقبر بعدما أعد اللبنات الطينية وجهز الألواح الأسمنتية التي ستصف على الميت ورفع يديه في إشارة لـ(جابر) لإنزال الميت. وبالفعل ناوله الجثة المكفنة ووضع المصباح على الأرض لينير جزءًا من القبر ثم وضع (مسعود) الميت في الحفرة وبدأ بتناول الألواح التي مدها (جابر) له ليصفها عليه.

(جابر) وهو يراقب (مسعود): ألن تحل أربطة الكفن؟

(مسعود) وهو يصف اللوح الأخير: لا.. ناولني اللبنات

مد (جابر) لبنة طينية بيد وباليد الأخرى رفع المصباح لينير القبر أكثر..

(مسعود) وهو يأخذ اللبنة من يد (جابر): يرحمكم الله

(جابر): ماذا؟

(مسعود) وهو يرمي باللبنة على اللحد الحجري: أقول لك "يرحمكم الله" ألم تعطس قبل قليل؟

(جابر) وهو يمد لبنة طينية أخرى: أنا لم أصدر صوتاً.. هل تحاول إخافتي؟

(مسعود) وهو يرمي باللبنة الأخرى بتوتر: حسناً!.. حسناً!.. لننتهي بسرعة ونخرج من هنا!

أكمل (مسعود) رصف اللبنات الطينية بصمت ثم مد يده لـ(جابر) ليخرجه وما إن خرج بدأ يواري القبر الثرى فشاركه (جابر) بصمت وخلال قيامهم بذلك سمعا صوت أنين يأتي من القبر فتوقف (جابر) وقال: هل سمعت ذلك؟!

(مسعود) وهو يكمل إهالة التراب على القبر: لا لم أسمع شيئاً!.. أكمل ردم التراب في الحفرة!

(جابر) وهو يمسك بيد (مسعود) ويوقفه عن ردم التراب: كيف لم تسمع؟!.. هل أنت متأكد من أنه ميت؟!

(مسعود) وهو يتفلت من يد صاحبه ويكمل ردم القبر: بالطبع ميت!.. هل تظن أني سأدفن شخصاً على قيد الحياة؟!

(جابر) وهو يقف ويمسح التراب عن يديه: الأمر مثير للريبة.. لِم لا تخبرني بالحقيقة؟

(مسعود) وهو مستمر بردم القبر: عن أي حقيقة تتحدث؟

(جابر) وهو يرفع المصباح ويوجه نوره نحو صاحبه: حقيقة هذا الميت..

توقف (مسعود) عن كب التراب وزفر نفساً ثقيلاً وقال: لنعد للمجلس وسأخبرك

(جابر): ألن تُخرج الرجل؟

(مسعود) بعصبية: أي رجل؟!.. إنه ميت!.. ميت!

نهض (مسعود) غاضباً وانتزع المصباح من يد (جابر) وهم

بالعودة نحو مبنى المقبرة وهو يقول بتجهم: اتبعني كي تعرف الحقيقة!

بعدما وصل الاثنان وجلسا سوياً في مجلس العزاء شرح (مسعود) لـ(جابر) ما حدث له منذ أن جاءت سيارة الإسعاف حتى اتصل به.

(جابر) وهو يحك لحيته مستغرباً: قصة غريبة

(مسعود): هذا ما حدث فلا تقل لي أن تلك الجثة لازالت على قيد الحياة

(جابر): من أصدر تلك الأصوات التي سمعتها في المغسل والمصلى وعند القبر إذاً؟

(مسعود): كلها أوهام بسبب الخوف

(جابر): أوهام؟

(مسعود): نعم أوهام.. هل سمعت أنت أي شيء منها؟

(جابر): نعم.. سمعت الأنين عند القبر

(مسعود): أنا لم أسمع شيئاً! وهي أوهام بسبب بقائي في هذا المكان لأربع وعشرين ساعة يومياً طيلة الأسبوع الفائت

(جابر): لِم تبقى اليوم بأكمله؟.. أليس (عبيد) مسؤول عن الفترة المسائية؟

(مسعود): لقد ترك العمل قبل أسبوع وأنا استلمت ورdياته ريثما يتم تعيين شخص آخر

(جابر): وأين تنام؟.. وكيف تأكل وتشرب؟

(مسعود) وهو يبتسم: تتحدث وكأني منقطع في الصحراء.. أنام هنا في المجلس ولا أستيقظ إلا إذا كان هناك أمر طارئ وهذا لم يحدث طيلة الأسبوع وبالنسبة للطعام والشراب فالبقالة المقابلة للمقبرة تفي بالغرض

(جابر): أتمنى أنهم عوضوك عن هذه المشقة

(مسعود): التعويض المادي ليس مهماً المهم أن أنتهي من هذا الوضع المتعب

(جابر): سأبقى معك الليلة إذا لم تمانع

(مسعود): لا لا عد لزوجتك فأنا متعود على النوم لوحدي

(جابر) ضاحكاً: ألم أخبرك؟!.. زوجتي أنجبت مولودي الأول وهي الآن في بيت أهلها وأنا لوحدي في المنزل لذا لن يفتقدني أحد فلا تقلق

(مسعود) وهو يعانق صاحبه مبتهجاً: ألف مبروك !.. ماذا أسميته؟

(جابر): على اسم أبي بالطبع!

(مسعود) وهو يفك عناق (جابر) بوجه محبط: لا تقل لي بأنك أسميته (حنيش)

(جابر) مبتسماً: ولِم لا؟ هذا الاسم جميل

(مسعود): لكنه قديم جداً ولا أحد يستخدمه الآن

(جابر): من قال لك ذلك ؟ ثم أني سوف أعيد إحياء الاسم بتسمية ابني به

(مسعود) مبتسماً: كما تشاء يا أبو (حنيش)

(جابر): هل تريد أن نعود لنكمل طمر القبر؟

(مسعود): لا.. يمكننا إتمام ذلك في الصباح

(جابر) وهو ينظر حوله: وأين سأنام؟

(مسعود) وهو يخرج من المجلس: انتظر هنا وسوف أعود بعد قليل

خرج (مسعود) وترك (جابر) لوحده جالساً في المجلس وكانت الساعة وقتها قد أتمت التاسعة مساءً وبعد ربع ساعة تقريباً عاد (مسعود) وهو يحمل وسادتين وفراشين ولحافين أبيضين ورمى بهم في وسط المجلس وقال: هيا أعد فراشك!

لم يرد (جابر) وعندما وجه (مسعود) نظره نحوه رآه متسمراً بأعين متسعة تحدق به برعب وتوتر. اقترب منه وقال بقلق: ما بك؟

بدأ جابر يأخذ أنفاساً عميقة وهو ينظر للأرض وكأنه أصيب بنوبة قلبية..

(مسعود) وهو يمسك به ويحدثه بنبرة صارمة: ما بك؟!.. ما الذي حدث؟!

(جابر) وهو يلتقط أنفاسه: هل سمعت الصوت؟

(مسعود) باستغراب: أي صوت؟

(جابر) وهو يشير إلى باب الخروج من المجلس: الصوت..

توجه (مسعود) إلى براد مياه كان في إحدى زوايا المجلس وأحضر قارورة مياه وفتحها ومدها لـ(جابر) وهو يقول: خذ.. اشرب بعض الماء

(جابر) وهو يرفع فتحة القارورة بيدٍ راجفة نحو فمه: لقد سمعت صوتاً..

(مسعود) وهو يمسح على ظهر صاحبه بكفه مبتسماً: لا تجزع هكذا.. المكان هنا مليء بمصادر الأصوات الغريبة مثل الحيوانات الضالة كالكلاب ونحوها, كذلك لا تنسَ أننا قريبون من الشارع وصوت السيارات يمكن أن يكون مخيفاً في الليل إذا لم نكن نتوقعه

(جابر) وهو يضع قارورة الماء جانباً ويستعيد شيئاً من تركيزه: لا لا.. ما سمعته كان مختلفاً وكان آتياً من جهة القبور

(مسعود) مبتسماً: وماذا سمعت؟

(جابر): نداء.. شخص ينادي وكأنه يستنجد لكن صوته بدا متحشرجاً وكأنه رجل مسن

(مسعود) بتعجب: نداء؟

(جابر): نعم.. وكان الصوت قادماً من نفس الجهة التي دفنا فيها تلك الجثة

(مسعود) وهو يجلس بجانب (جابر) ويبدأ بالضحك: لو كنت أعرف لِم طلبت منك مساعدتي في دفنها

(جابر): تعرف ماذا؟

(مسعود): بأنك رقيق القلب هكذا

(جابر) بتجهم: أنا لست جباناً لكن ما سمعته قبل قليل ينزع العقل قبل القلب!

(مسعود) وهو يلتفت للخلف ثم للأمام مبتسماً: وأين الصوت الآن؟

(جابر): لا أعرف.. لقد توقف.. ولا تجرؤ أن تلمح بأني كنت أتوهم!

(مسعود) وهو ينهض ضاحكاً: حسناً.. حسناً هيا لنعد إلى فراشينا كي ننام

عندما انتهى الاثنان من إعداد مكان نومهما استلقى (جابر) على الفراش ووضع رأسه على الوسادة وشد اللحاف الأبيض وغطى معظم جسمه ماعدا رأسه وقال وهو يراقب (مسعود) الواقف قريباً منه: ألن تنام؟

(مسعود) وهو يسير لنهاية المجلس: سأغلق الأنوار أولاً..

(جابر) بقلق: الأنوار؟

(مسعود) وهو يضع إصبعه على القابس مبتسماً بخبث: ماذا؟ هل تخاف الظلمة أيضاً؟

(جابر) وهو يشد اللحاف ويغطي رأسه: لا

أغلق (مسعود) الأنوار وعاد نحو فراشه واستلقى عليه بصمت..

بعد دقائق من الهدوء في تلك الظلمة الحالكة تحدث (جابر) بعدما رفع الغطاء عن رأسه وقال: النوم يجافي عيني..

(مسعود) وهو مستلقٍ على ظهره مغمضاً عينيه: لا تقلق سيغلبك النعاس بعد قليل

صمت الاثنان لكن (جابر) كسر حاجزه مرة أخرى وقال: هناك شيء يشغل بالي..

(مسعود) مبتسماً وهو مغمض العينين: ماذا يا (جابر)؟

(جابر): من أين اشتريت هذا اللحاف؟

(مسعود): ولِم السؤال؟

(جابر): لأن نعومته وملمسه جميل وأفكر بشراء مثله

(مسعود): يمكنك أخذه فلدي الكثير منه

(جابر) باستغراب: ولِم تحتفظ بالكثير من اللحف؟

(مسعود): هذا كفن يا (جابر) وليس لحافاً..

نهض (جابر) من فراشه وهو يصرخ مفزوعاً ويقول: ماذا؟! كف؟! هل أنت معتوه؟!

(مسعود) ينهض بسرعة ويسير في الظلمة حتى وصل لقابس النور وأداره: ماذا؟! لِم تصرخ هكذا؟!

(جابر) وهو يستشيط غضباً: لماذا؟!! تكفنني وتتساءل عن سبب غضبي؟!

(مسعود) وهو يضحك: هو في النهاية قطعة من القماش كغيره من الأقمشة

(جابر) بعصبية: ولو!!

بدأ (مسعود) يضحك بقوة و(جابر) يصرخ فيه بغضب فعلا صوتهما في المكان لكنهما توقفا فجأة في نفس الوقت وبدآ ينظران لبعضهما بعضاً بتوتر شديد.

(جابر) بعينين مرتعبتين: هل سمعت ما سمعت؟!

هز (مسعود) بوجه مرعوب رأسه بصمت..

(جابر) بتوتر: هل هذا صوت مألوف أيضاً؟

(مسعود) يهز رأسه بالنفي بوجه مصفر رعباً..

(جابر) بنبرة غاضبة وصوت مكتوم: ماذا ننتظر إذاً؟! لنخرج من هنا فوراً!

(مسعود) بصوت خفيض يخالطه التوتر: لا يمكنني ترك المكان هكذا.. هذه مسؤولية

(جابر): هل أنت مجنون؟!.. أنت مسؤول عن حياتك فقط!

تكرر الصوت الذي سمعاه مرة اخرى والذي كان كنداء رجل عجوز بكلام غير مفهوم يأتي من وسط المقبرة لكن الصوت هذه المرة كان أقرب وكأن مصدره متوجه نحوهما. أغلق (مسعود) قابس النور بسرعة عندما سمع الصوت يقترب فنهره (جابر) بغضب وصوت منخفض: ماذا تفعل؟!

(مسعود) من خلال الظلمة: لا أعرف لكن لا أريد لذلك الصوت أن يعرف بأننا هنا

(جابر): وهل سنبقى هنا حتى يجدنا؟!

(مسعود): مالذي سيجدنا؟

(جابر) بغضب: وكيف لي أن أعرف؟!

(مسعود) بقلق: هل تعتقد أنها تلك الجثة؟

(جابر): أي جثة؟



(مسعود): التي دفناها اليوم

(جابر): وهل يعود الموتى للحياة بعد دفنهم؟!

(مسعود): نحن لم ندفنه بالكامل

(جابر) بعصبية: وما علاقة ذلك بخروجه من القبر؟!

(مسعود) وهو يشعل النور ويستجمع نفسه: لحظة.. مالذي نفعله؟ نحن نخيف أنفسنا بأنفسنا

(جابر): هل تظن ذلك؟

(مسعود) وهو يتوجه نحو باب الخروج بوجه صارم: نعم بالطبع.. أنا متأكد بأنه شخص يحاول إخافتنا

(جابر) وهو يجري خلفه: إلى أين؟!

(مسعود) وهو يرفع المصباح الذي تركه خارج المجلس ويديره: سنعود للقبر وسترى بأننا واهمون

(جابر) بقلق وتوتر: نعود للقبر؟

(مسعود) وهو يسير لوسط المقبرة: نعم

سار الاثنان نحو القبر المفتوح وسواد الليل يحيط بهما فالقمر كان غائباً تلك الليلة ولم يكن هناك سوى نور ذلك المصباح في يد (مسعود) وبعد وصولهما للقبر انحنى (جابر) نحو تلك الفجوة النصف مطمورة بالتراب وقال:

اقترب بالمصباح قليلاً كي نرى..

أنزل (مسعود) المصباح وأنار محتواه بالكامل وكان ما رأوه محيراً فقد رأوا القبر على حاله لكن التراب كان فيما يبدو مقلوباً وليس على الحالة التي تركوها عليه.

(جابر) وهو يحدق بالقبر: ما رأيك؟

(مسعود) وهو ممسك بالمصباح ويحدق بالقبر: رأيي في ماذا؟

(جابر) وهو يلتفت إلى صاحبه: هل القبر كما تركناه؟

(مسعود) وهو لا يزال يحدق بالقبر: نعم على ما أظن

عاد الصوت الذي أرعبهما سابقاً وكان قريباً جداً منهما ففزعا وبدآ بالجري بسرعة عائدين نحو مبنى المقبرة. كان أول الواصلين (مسعود) الذي دخل المجلس وهو يتنفس بثقل وفي يده المصباح وأطل برأسه من فتحة الباب بحثاً عن (جابر) لكنه لم يرَه فبدأ ينادي عليه بصوتٍ خفيض وحذر ولم يجد أي استجابة. وقع (مسعود) في حالة من الحيرة التي خالطها خوف وقلق على صاحبه فقرر الخروج مرة أخرى والبحث عنه وخلال خروجه من المجلس لمح شخصاً يتوجه لغرفة غسيل الموتى فنادى عليه ظناً منه أنه (جابر) لكنه لم يتلقَّ جواباً فرفع المصباح لينير الطريق أمامه أكثر وسار نحو المغسل. وصل عند الباب وفتحه ومد يده الحاملة للمصباح وعندها رأى شيئاً أفزعه لدرجة أنه لم ينطق بكلمة وأصيب بالخرس التام وتوقف عن التنفس من هول ما رأى.

شاهد أمامه الجثة المشوهة التي دفنها سابقاً وهي واقفة عند سلة القمامة وترفع تلك الورقة المربوطة بالخيط الأسود التي أخرجها من بطنها خلال تغسيلها. حاول (مسعود) أخذ نفساً من الهواء لكنه أصيب بحالة من التشنج منعته من ذلك فبدأ قلبه ينبض بقوة وكأنه يغرق. هم بالتراجع للخلف للخروج من المكان لكن أقدامه لم تستجب له وبقي متسمراً مكانه ولم يتحرك منه سوى يده الحاملة للمصباح والتي كانت ترجف

بقوة. انكسرت تلك الحالة من الشلل عندما التفتت الجثة بأعينها المجوفة نحوه فتحرر فجأة من حالة الجمود التي أصيب بها وجرى مسرعاً عائداً للمجلس وأغلق المصباح وبقي خلف الباب يتنفس بسرعة شديدة في ظلامٍ دامس. وقتها كان الهدوء يعم المكان لذا سمع (مسعود) خطوات تقترب من المجلس انتهت بقرع قوي على الباب أفزعه وأسقطه على الأرض وهو يغطي أذنيه ويصرخ بقوة. استمر الطرق واستمر (مسعود) بالصراخ لكنه توقف عندما سمع صوت (جابر) من خلف الباب يقول بصوت مرتفع: افتح! افتح لي الباب!

نهض (مسعود) بسرعة وفتح الباب فدخل (جابر) وأغلقه خلفه وهو يلهث وكأنه كان يجري بسرعه فقال له (مسعود): أين كنت؟!

(جابر) وهو محني الرأس ويداه مسندة للباب: لقد سقطت في أحد القبور المفتوحة!

(مسعود): هل رأيته؟!

(جابر) بأنفاس متسارعة: لم أرَ شيئاً!.. لقد خرجت من القبر بصعوبة وبدأت أجرى كالمجنون حتى وجدت طريق العودة!.. هل رأيت أنت شيئاً؟!

(مسعود): نعم رأيت الجثة واقفة على قدميها في غرفة غسيل الموتى؟

(جابر) برعب وتوتر: هل أنت متأكد؟

(مسعود): نعم متأكد!

(جابر): إذاً يجب أن نرحل من هنا فوراً!

(مسعود): وكيف سنخرج وذلك الشيء بالخارج؟

(جابر): ماذا تقترح إذاً؟! نبقى هنا؟!

(مسعود): أنا لا أسمعه الآن.. لعله رحل

(جابر) وهو يضع أذنه على الباب: ربما

(مسعود): هل تسمع شيئاً؟

(جابر): كم الساعة الآن؟

(مسعود): لا أعرف.. أعتقد قرابة العاشرة

(جابر): ما رأيك أن نخرج ونبيت في السيارة حتى الصباح؟

(مسعود): فكرة جيدة

خرج الاثنان بحذر شديد من المجلس وبدآ بالسير نحو بوابة المقبرة وخرجا للشارع وركبا سيارة (جابر) التي كانت مركونة على بعد أمتار قليلة من البوابة لأنها كانت أكبر حجماً ومقاعدها أنسب للنوم.

(جابر) وهو يجلس في مقعد السائق ويربط حزام الأمان: هل أدير المحرك؟

(مسعود) من المقعد الخلفي: لماذا؟

(جابر): لا أعرف..

(مسعود): لماذا ربطت حزام الامان؟

(جابر) وهو يخلع الحزام: لا أعرف.. لا أعرف.. أنا متوتر جداً

(مسعود) وهو يستلقي: لا داعي لذلك.. لننام فقط حتى تشرق الشمس

(جابر) ينظر في المرآة للمقعد الخلفي حيث استلقى (مسعود): وماذا سنفعل بعدها؟

(مسعود) يسند رأسه على كفه الأيسر ويغمض عينيه: سنقرر عندما تشرق الشمس

(جابر) ينظر لبوابة المقبرة: لا أعرف كيف تتحمل هذا العمل

(مسعود) وهو مغمض العينين: تتحدث وكأن هذا الأمر يحدث معي كل يوم

أدار (جابر) محرك السيارة..

(مسعود) وهو ينهض: ماذا تفعل؟

(جابر) يدير التكييف: أشعر بالحر!

(مسعود): وهل ستترك السيارة تعمل طيلة الليل؟

(جابر): نعم فلدينا وقود كافٍ حتى الصباح

في تلك اللحظة تحركت إحدى دُرف بوابة المقبرة وفُتحت بالكامل..

كان المكان منيراً بأعمدة الإنارة الممتدة بامتداد الشارع لكنها بدأت ترمش فجأة وانقطع نورها فقام (جابر) بسرعة بتشغيل مصابيح السيارة وهنا رأى الاثنان تلك الجثة المشوهة وهي تسير نحوهما ببطء. صرخ (مسعود) في صاحبه وقال: اهرب من هنا!!

قام (جابر) بقيادة السيارة والانطلاق بها بسرعة نحو بوابة المقبرة و(مسعود) يصرخ فيه قائلاً: ماذا تفعل؟!

دهس (جابر) الجثة وكسر البوابة ولم يتوقف إلا عندما أصبح وسط المقبرة..

عندما استعاد الاثنان تركيزهما قال (مسعود) بهدوء يخالطه بعض التوتر: ماذا فعلت؟

(جابر) وهو ممسك بالمقود وينظر أمامه للقبور التي أنارتها مصابيح السيارة وغطتها سحابة من الغبار: هل تعتقد أنه مات؟

(مسعود) يمسك رأسه من ألم الصدمة: هو ميت من الأساس فكيف يموت مرتين؟

(جابر) يلتفت إلى صاحبه: وهل الميت يمشي؟

متجاهلاً سؤال (جابر) فتح (مسعود) باب السيارة الخلفي وهم بالنزول..

(جابر): إلى أين أنت ذاهب؟

(مسعود) وهو يسير نحو بوابة المقبرة: لرؤية نتيجة تهورك..

نزل (جابر) من السيارة ولحق بـ(مسعود) الذي وقف يتفحص بوابة المقبرة المحطمة بيده قائلاً: أتمنى أن لا تُخصم قيمة إصلاحها من راتبي..

(جابر) متجاوزاً البوابة للشارع وباحثاً حوله بنظره: لا أثر له..

(مسعود) موجهاً نظره لـ(جابر): ربما عاد لقبره

(جابر): لنعد نحن أيضاً للسيارة

بقي الاثنان في السيارة المدارة داخل المقبرة ولم يذق أياً منهما طعم النوم ومع انكسار عتمة الليل أول الصباح قال (مسعود) وإرهاق النعاس قد تمكن منه: هيا بنا..

(جابر) وهو متعب: إلى أين؟

(مسعود): للقبر بالطبع كي نطمره بالكامل

(جابر): هل تظن أن هذا هو الحل؟

(مسعود): هل لديك خيار آخر؟

صمت (جابر) وخلال صمته نزل (مسعود) من السيارة وتوجه مشياً نحو القبر المفتوح. لحق به (جابر) بعدما أطفأ محرك السيارة وبعد وصولهما رأيا القبر على حاله فبدآ يدفعان التراب فيه بصمت حتى أغلقاه بالكامل.

(مسعود) وهو ينهض وينفض التراب عن كفيه: يجب أن أُعد تقريراً عن سبب تحطم بوابة المقبرة

(جابر) وهو ينفض ثيابه من تراب القبر: هل سأقع في مشكلة؟

(مسعود): لا تقلق لن أذكر أنك كنت السبب لكن حاول ان تصلح سيارتك بطريقة ما

(جابر): حسناً

ركب (جابر) سيارته وأدار المحرك وبدأ بالتراجع للخلف فاستوقفه (مسعود) وقال: لا تذكر ما حدث لأحد..

(جابر) مبتسماً: ومن سيصدقني إن فعلت؟

رحل (جابر) وعاد (مسعود) للمجلس وبدأ بترتيب المكان وخلال ذلك سمع صوت بوق سيارة عند مدخل المقبرة فخرج ليرى صاحب السيارة فشاهد رجلاً ملتحياً تظهر عليه علامات التدين المألوفة. خلفه وقفت سيارة فارهة جداً وكان يفرك أسنانه بعودٍ من السواك وبمجرد أن رأى (مسعود) ابتسم وأشار إليه بالتقدم نحوه. سار (مسعود) والريبة والشك يخالجانه وزاد ذلك التوجس عندما وصل للرجل الملتحي وألقى نظرة على السيارة الفارهة عن قرب ورأى امرأة منقبة تجلس في المقعد الخلفي وقبل أن يطيل النظر إليها قاطعه الرجل بهز كتفه مبتسماً: كيف حالك؟

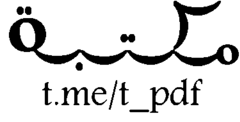
(مسعود) وهو يحيد بنظره عن المرأة نحو الرجل المبتسم: الحمد لله.. كيف يمكن أن أخدمك؟

(الرجل الملتحي) وهو يسحب (مسعود) جانباً ويبدأ بالحديث معه: لقد استلمت جثة بالأمس أليس كذلك؟

(مسعود): أنا أستلم جثث كثيرة

(الرجل الملتحي) مبتسماً: أتحدث عن الجثة التي سلمتها لك الشرطة.. أم أنك استلمت أكثر من جثة عن طريق الشرطة بالأمس؟

(مسعود): نعم أعرفها.. ما بها؟



(الرجل الملتحي): نريدها..

(مسعود) بتجهم: ماذا؟.. تريدونها؟!.. هل تعتقد أن الأمر بهذه البساطة؟!

(الرجل الملتحي) وهو يخرج مبلغاً ضخماً من جيبه ويمده لـ(مسعود): لا أحد سيعرف وأنت ستستفيد

شعر (مسعود) بالخوف عندما انتبه ليد الرجل الملتحي وشاهد وشماً صغيراً على شكل نجمة سداسية موشوم على

ظهر يده اليسرى وقال: لا شكراً لا أريد مالك وكرماً لا أمراً أرحل من هنا قبل أن أستدعي الشرطة

تجهم الرجل الملتحي وأدخل المال في جيبه وعاد أدراجه نحو السيارة لكنه لم يركبها بل توجه نحو النافذة الخلفية التي فُتحت بمجرد وقوفه أمامها وحنى رأسه وبدأ يتكلم مع تلك السيدة. كان (مسعود) يراقب المشهد بقلق وبعد أقل من دقيقة عاد الرجل الملتحي إليه وهو مبتسم بابتسامة عريضة وقال عندما وقف أمامه: سوف نرحل الآن..

(مسعود) بتوجس: جيد.. مع السلامة

وجه الرجل الملتحي لكمة قوية لوجه (مسعود) أسقطته أرضاً وأفقدته الوعي. عندما استيقظ لم يرَ السيارة فنهض بثقل وسار إلى القبر الذي دفنت فيه الجثة وكما توقع وجده مفتوحاً وخاوياً. عاد (مسعود) واتصل بالشرطة وبعد أن حضروا أدلى بأقواله وزودهم بتفاصيل الرجل والسيدة ونوع السيارة التي كانا يستقلانها ولونها لكنه لم يستطع تذكر أرقام لوحاتها وعندما سأله المحقق عن ما إذا كان لديه معلومات إضافية قال: نعم تذكرت.. الرجل كان يملك وشماً على ظهر يده اليسرى.. كان الوشم على هيئة..

(المحقق) مقاطعاً (مسعود): وشم نجمة سداسية..

(مسعود) باستغراب شديد: نعم.. كيف عرفت؟

(المحقق) وهو يربت على كتف (مسعود) باسماً قبل أن يهم بالرحيل: شكراً لقد كنت عوناً كبيراً لنا

(مسعود) وهو ينادي على المحقق الذي اقترب من البوابة المحطمة بصوت مرتفع: مالذي حدث بالأمس؟!.. ومن هؤلاء الناس؟!

(المحقق) وهو يستدير ويستمر بالسير للخلف: صدقني لا تريد أن تعرف..

استدار المحقق مرة أخرى وأكمل سيره نحو سيارته وركبها وقادها مبتعداً عن المكان ولم يعرف (مسعود) حتى هذا اليوم مالذي حدث معه تلك الليلة ومن كان هؤلاء الناس الذين أرادوا أخذ تلك الجثة الغريبة.

من المفترض أن نقدم هنا نبذة عن محتوى الكتاب..

لكن هذا سيفسد الأمر..

فالقصص الموجودة فيه أغرب من أن توصف..

لذا سنترككم معها مباشرة دون تقديم.





www.novapluskw.com @novakw

9 789996 618635